قـاربـي سيعـود

رواية



محمد إبراهيم السادة

قاربي سيعود

رواية

محمد إبراهيم السادة



رواية قاربي سيعود

تأليف: محمد إبراهيم السادة

الطبعة الأولى - 2022

الناشر: وزارة الثقافة

إدارة الإصدارات والترجمة

قسم الإصدارات

البريد الإلكتروني: rs@mcs.gov.qa

هاتف رقم: 44022222

الدوحة - قطر

التدقيق اللغوي: منى محمد أبو صيام

الإخـراج الـفني: مطابع الدوحة الحديثة

رقم الإيداع في دار الكتب القطرية: 2023/9

الترقيم الدولي (ردمك): 9789927135576

مطابع الدوحة الحديثة المحدودة

تقديم

تحرص وزارة الثقافة على نشر الأعمال الأدبية المتميزة للكتاب القطريين والعرب. وللأعمال السردية نصيب وافر من هذا النشر حيث يعد العمل السردي إنتاجًا فكريًا متميزًا.

وقـد فرض الكتاب القطريون أنفسـهم في السـاحة الأدبية المحليـة والخليجية والعربيـة لما تحمله أعمالهم مـن إبداعات متميزة، وأفكار نيـرة، نالت بها جوائز في مناسـبات عديدة، كما تمت ترجمة العديد من الأعمال القصصية والروائية القطرية إلى لغات أجنبية عديدة نالت استحسان القارئ غير العربي .

وفي هذه الرواية (قاربي سـيعود) للكاتب محمد إبراهيم السـادة ينقلنا إلى عالم الثلاثينيات من القرن الماضي مما يجعلنا نتعرف على تلك الحياة في البيئة القطرية بتفاصيلها الدقيقة التي تدل على إلمام الكاتب بتلك الحياة التي لا شك في أنها قد وصلته عبر تناقل الأجيال لها من الأباء والأجداد، ينقلك المؤلف فيها إلى ذلك العالم كأنك تعيشـ فيه فيصف بأسلوب سـردي وبلغة شاعرية وعاطفة جياشة معاناة الحياة اليومية والتفاصيل الدقيقة لذلك الزمن كمهنـة الغوص، وتجارة اللؤلؤ، والمفردات المسـتخدمة في ذلك الزمن والحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد كعادات الزواج وإكرام الضيف وغيرها.

والكاتب محمد إبراهيم الســادة شــاعر صدرت له العديد من الدواوين الشعرية باللغة العربيــة الفصحى بالإضافة إلى بحث أدبي في الســردية الشــفهية، وكذلك أناشيد للأطفال، ويعد هذا العمل الأول له في الكتابة الروائية.

وتأمل وزارة الثقافة أن يشكل هذا العمل السردي إضافة جديدة للمكتبة القطرية والعربية.



قاربي سيعود

رواية

محمد إبراهيم السادة



١ـ

الأُفُــقُ يَتَأرجَحُ بَينَ اللَّيلِ والنَّهارِ والأصِيلُ يَنشُرُ بِعُنفٍ خَفقاتِهِ الحَمراءَ على نُتَفِ الغُيُومِ وأَصداءُ النَّوارِسِ تَتَرَدَّدُ في الفَراغِ الفَسِيحِ وتَتَداوَلُها انكِساراتُ الأَمواجِ الهَادِئةِ المتدافِعةِ نَحوَ الشَّاطئِ.

مَساءٌ جَميلٌ تَنعَكِسُ رَوعَتُهُ على وَجهِ عَلي المتَقرفِصِ على رِمالِ الشّاطئِ الممتَدِّ لِعَــشراتِ الأمتارِ عَــن يَمينِهِ ولعدةِ أمتارٍ عَــن يَسارِهِ تَجُولُ نَظَراتُــهُ في ذلكَ العُمقِ اللامُتَناهِــي الذي بالكادِ يَتَمَيَّزُ فِيــهِ الخَطُّ الفاصِلُ بينَ البَحرِ والسَّمــاءِ يَدُورُ بِرَأسِهِ ثُــمَّ تَتَوقّفُ التِفاتَتُهُ إلى اليَسارِ ويَتمَعَّنُ في قارِبِــهِ الملقَى على الشَّاطئِ ذلكَ القارِبُ المتَهالِــكُ الذي لا يَتَعَدَّى طُولُهُ الأمتارَ السَّبعَةَ يَمِيــلُ على جانِبِهِ وقَد دَفَنَت الرِّمالُ جُــزءاً مِنهُ واهتَــرَأت بَعضُ خَشباتِهِ بسَببِ القِدَمِ وما مرَّ عليــهِ مِن عوامِلِ التَّعرِيَةِ مِن المطَــرِ والرياحِ ومِياهِ البحرِ تَفتَرُّ شَفَتاهُ عَن ابتِسامَةٍ تَعُجُّ بالذِّكرَياتِ والشّجُونِ لقَد كانَ ذلكَ القارِبُ يَحمِلُهُ إلى البَحــرِ يَحمِلُهُ بَعِيداً على الرَّغمِ مِن غَضَبِ البَحرِ أحياناً إلى لُجَــجٍ تَزخَرُ أعماقُها بالخَيراتِ والنِّعَمِ هذا القارِبُ كانَ ماضِيهِ حافِلاً بالرَّحلاتِ وبِوافِرِ الصَّيــدِ الذي يَعُودُ بِهِ إلــى القَريَةِ ويُوزّعُهُ على الأهلِ والجِيــرانِ نعم يوزّعهُ ولا يبيعُهُ فظُروفُ أهلِ القريَةِ لا تَسمحُ لهُم بِشراءِ قُوتِهم بِسببِ الحَربِ وقِلَّةِ مصادِرِ الدَّخلِ هذا القارِبُ صَدِيقُهُ الذي حَمَلَ جَوفُهُ ذِكرَياتِــهِ وحَملَ الشِّباكَ وخُيوطَ الصّيدِ والصَّنانيرَ والدَّرياتِ وامتَزَجَت مَجادِيفُهُ بِمِلحِ ماءِ البَحرِ وخَفَقَت في شِراعِهِ المواويلُ الآتِيةُ مِن

المدى البَعيدِ مَعَ نَسائمِ الشَّوقِ فكَم مِن مَرّةٍ تَشَرَّبَ ذلكَ الشِّراعُ بأهازيجِهِ وهوَ يُطلِقُ العِنــانَ لِصوتِه بأشعارِهِ وأغنياتِهِ كَم مِن مَرَّةٍ شارَكَهُ صَديقٌ أو أكثرَ رِحلَةَ صَيدٍ فيهِ وكَم مِــن مَرةٍ أوصَلَ فِيــهِ مَعارِفَ مِن برٍ إلى برٍّ هذا القارِبُ تَعرِفُــهُ أمواجُ البَحرِ والشّواطئُ وعيُونُ الشَّمسِ في النّهارِ وفي اللّيلِ يعرِفُهُ الظّلامُ والنُّجُومُ والشِّعرُ والقَمَر.

هــذا القارِبُ لا بُدَّ أن يَعُودَ إلى البَحرِ ويُصارِعَ أمواجَــهُ مَرّةً أُخرى لا بُدَّ أن يُصلحَ هَيكلَــهُ المتَهالِكَ ويَسُدَّ فَجواتِهِ لِيَعُودَ صالِحاً للإبحارِ يَحدُوهُ في ذلكَ أمَلٌ كَبيرٌ حتّى وإن تَخطَّــى السَّبعِينَ فَهوَ لا يُحِسُّ عَجزاً بَل يستَنــشِقُ أملاً والأملُ هو مُحَرِّكُ الحَياةِ ودافِــعُ دُولابِها إلى الأمامِ إنَّ لدَيهِ الخِبرَةَ في إصلاحِ المراكِبِ الخَشبيَّةِ الكَبيرَةِ وهذا القارِبُ لَن يَحتاجَ مِنهُ الكَثِيرَ مِنَ الجُهدِ والمالِ في الماضِي عندَما اصطَدَمَت سَفِينَةُ والِدِهِ بصُخُــورِ البحرِ تَضَرَّرَت ألواحُها وحدَثَت بِها فَجوَةٌ مِنَ الجانِبِ الأماميِّ الأيمَنِ فَتَدارَكها البَحّارَةُ وسَدُّوهــا بالفَتِيلِ والخَيشِ وسَحَبُوها إلى الشّاطِئِ وأصلَحُوها يَتَذكَرُ عَلــي كيفَ تَمَّ إصلاحُهــا فيستَعِيدُ الحَدِيثَ الذي دارَ بَيــنَ والِدِهِ و(القَلّافِ) الذي اتفقَ مَعَهُ على إصلاحِ السَّفِينَةِ وكانَ اسمُهُ شَعبان فقالَ لوالِدِه :

– يا عَمّ أحمَد هذا العَمَلُ يَتَطَلَّبُ عَشرَةَ أيّامٍ.

– وكَم تَكلُفَةُ إصلاحِها..؟

– خَمسُمائةِ رُوبِّيةٍ.

– خَمسُمائةِ رُوبِّيةٍ..؟ أليسَ ذلكَ كَثيراً..؟

– أنتَ تَعلَم يا عَمّ أحمَد أنَّ هذا العَمَلَ يَحتاجُ إلى ألواحٍ وفَتِيلٍ ووَدَكٍ وصِلٍ وعَمَلٍ مُتَواصِلٍ وخَمسُمائةِ رُوبِّيَّةٍ بالكادِ تَكفِي.

– صَحيح.. داوِم..وإذا أجَدتَ عَمَلَكَ سَوفَ أُكافِؤكَ.

ثُمّ وَجَّهَ أحمَد كلامَهُ إلى ابنهِ علي قائلاً :

– علي.

– نَعم يا أبي.

– أريدُكَ أن تأتِي الى هُنا يومِياً وتَتَعَلّمَ من شعبان صَنعَتَهُ فسَوفَ تُفيدُكَ مُستَقبلاً.

– سَمعاً وطاعَةً يا أبي.

– فِعــلاً يا عليّ كَما قالَ أبوكَ.. إنَّها مِهنَةٌ تَحتاجُ مَهارَةً ويَجدُرُ بِكُلِّ مَن يَرتادُ البَحرَ أن يَتَعلَّمَها فقَد تُنقِذُهُ يَوماً ما مِنَ الغَرَقِ والآباءُ لا يقُولُونَ لأبنائهِم إلّا عُصارَةَ تَجارِبِهِم فيستَفِيدُونَ مِنها في مُستَقبَلِ حياتِهم.

وبالفِعــلِ ظَلَّ علي طَوالَ أيّامِ العَمَلِ يَجلِــسُ قُربَ شعبان يُراقِبُ ويَتَعلّمُ إنّهُ يَعشَقُ البَحــرَ فقَد نَــشَأ في أحضانِهِ وغاصَ في قِيعانِــه إنهُ بيئتُهُ التي نَشَأ فِيهــا وأنشَأهُ والدُهُ على حُبِّهــا والتَّعلُّقِ بِها تَطُوفُ بِهِ ضَحكاتُ أقرانِهِ في صِغَرِهِ وهُم يتَسابَقونَ إلى البَحرِ بَعــدَ أن ينتَهوا مِن دَرسِ تَحفيظِ القُرآنِ في الكُتّــابِ يَخُوضُونَ في مائِهِ ويَسبَحُونَ في أمواجِهِ وتَتَشَرَّبُ أجسادُهم أملاحَهُ فَتَتَغَلغلُ في أعضائِهم لِتَغرِسَ فيهم حُبَّهُ والانتِماءَ إليــهِ لا يَخرُجُونَ مِنهُ إلّا بأصواتِ أُمهاتِهم بالصُّراخِ أحياناً وأحياناً بالدُّخُولِ إلى البَحرَ لإخراجِهــم بالقُوَّةِ فَيَتَفرَّقُونَ إلــى بُيُوتِهم تَطُوفُ بِهِ أخيلَةُ الرِّجــالِ الذينَ يَزورونَ أباهُ وعَمَّــهُ في المجلِسِ أيامَ الشِّتاءِ وفي البَراحَةِ القَريبَةِ مِنَ الشّاطيءِ في الأيامِ المعتَدِلَةِ الحرارَةِ ومَلامحُ وُجُوهِهِم الباهِتَةُ بِسَبَــبِ وَهَنِ الفوانيسِ في اللَّيلِ وهُم يَتَحَدَّثونَ عَن

البَحرِ ومُغامراتِهم فيهِ والأساطيرِ التي مَرَّت بِهم أو ما نَقَلَهُ لَهم غَيرُهم مِن حكاياتٍ في غَياهِبِهِ يصعُبُ على العَقلِ تَصديقُها كالعَمالِقَةِ التي تَخرُجُ مِن أعماقِهِ أو عَرائسِ البَحرِ التــي تَنتَظِرُ في اللَّيلِ على شُطآنِهِ والجِنِّ والأشباحِ التي تُرعِبُ الغَوّاصينَ في دَياجيهِ وهُوَ وإخوَتُهُ وأبناءُ عَمِّهِ يَتداولُونَ في اليومِ التّالي أحلامَهُم المخيفَةَ بِسَببِ ما استَمعوا إليهِ مِن حِكايات تَطُوفُ بِــهِ مَشاهِدُ المراكِبِ الخَشَبيَّةِ البَعيدَةِ وأشرِعَتِها وهيَ راحِلَةٌ فــي عُبابِهِ فَيَتَمَنَّى أن يكُونَ على مَتنِها يُشارِكَ بَحارَتَهــا استِمتاعَهُم بالرَّحيلِ والإيابِ تَطُوفُ بِخاطِــرِهِ لَحظاتُ هَمساتِ الأمواجِ تَبوحُ بِها لرمــالِ الشاطِئِ قَبلَ الغُروبِ في لَحظَةِ سكونٍ وصَمت ويَستَعِيدُ نَصائحَ والِدِهِ وهوَ يُحَذِّرُهُ مِن غَدرِ البَحرِ.

إنَّ للذِّكريــاتِ دَرباً لَهُ بِدايَةٌ ولَيسَ لَهُ نِهايَةٌ فقــد انهَمَرَت على عَلي ذِكرياتُ والِدِهِ أحمَــد وأَطيافُهُ، يالَ ذلكَ الرَّجُلِ مِن عَظيمٍ لهُ مَهابَةٌ بينَ أقرانِهِ ولَهُ صوتٌ مَسموعٌ في أهــلِ زَمانِه كانَ مَجلِــسُهُ يَعُجُّ بكبارِ رجالاتِ القَريةِ وأعيانِها تَــزَوَّجَ العَديدَ مِن النِّساءِ فَأصبَحَ لَهُ عَشرَةٌ مِنَ الأبناءِ وابنَتانِ إلّا أنَّ عَلياً كانَ أصغَرَ ثلاثَةِ إخوَةٍ هُم محمّد وعِيسَى وهُوَ تَكبُرُهُم أُختٌ هِيَ أمُّ عَبدِالله لأمٍّ واحِدةٍ.

لا تَزالُ عَالِقَةً بِذِهنِهِ كلماتُ والــدِهِ وهُو في السَّابِعَةَ عَشرَةَ مِن عُمرِهِ يَتَذَكَّرُ نَبَراتِ صَوتِهِ وهو يقُولُ لَهُ :

– لقَــد أصبَحتَ رَجُلاً يُعتَمَدُ عَليهِ يا علي خاصَّةً بَعدَ أن دَخَلتَ البَحرَ مَعَ أخوانِكَ وأثبَتَّ أنَّكَ رَجلٌ أهلٌ للاعتِمادِ عَليهِ وقَد قَرَّرتُ أن أُزَوّجَكَ بابنَةِ عمِّكَ هزيم.

بَــدَت عَليهِ مَلامحُ امتزَجَت بالسُّرورِ والخَجَــلِ إلّا أنَّها سرعانَ ما اختَفَت لقَد كانَ مُتَوقِّعــاً أن يُفاتِحَهُ أبُوهُ بِمَوضُوعِ الزَّواجِ فَفِي ذلكَ الزَّمَــنِ وذلكَ الجِيلِ وتِلكَ البِيئَةِ

يُزَوجُــونَ الغِلمانَ في مِثلِ ذلكَ العُمرِ وعَليه أن يَقبَــلَ كيفَ لا وَقَد بَلَغَ الحُلُمَ وهَفَت نَفسُهُ للاستِقرارِ مَعَ نِصفِهِ الآخَرِ كَيفَ لا وهوَ يَعلَمُ أَنَّ أباهُ وهوَ مَثلُهُ الأعلى لا يَختارُ لَهُ طَريقاً إلّا طَريقَ الصَّوابِ وها هُوَ يقُولُ لَهُ لَقد بَلَغتَ مَبلَغَ الرِّجالِ والرِّجالُ هُمُ القادِرُونَ على تَنفِيذِ رِسالَةِ خالِقِهم سُبحانَهُ وتَعالى بالتَّزاوجِ وصِناعَةِ الأجيالِ لِذلِكَ كانَ لا بُدَّ أن يُرِي والِدَهُ أنَّهُ أهلٌ لِثِقَتِه بِهِ لا بُدَّ أن يَرُدَّ على والِدِه بِرَدٍّ يُعَبِّرُ بِهِ عَن رأيِهِ كَرَجُلٍ والرَّدُّ لا يَحتَمِــلُ أكثَرَ مِن نَقِيضَينِ هُما الموافَقَةُ أو الرَّفضُ ولكنْ هَل يَجرؤُ على الرَّفضِ هل يَجــرؤ أنْ يَرفُضَ قَــرارَ أَبيهِ لا وألفُ لا فتَربيتُهُ ونَشأتُهُ فِي كَنَــفِ هذا الرَّجُلِ الذي هُوَ سَبَــبٌ في وجُودِهِ فــي الحَياةِ تأبى أن يَكُونَ جَوابُهُ بالنَّفــي وحتَّى وإن كانَ السُّكُوتُ علامَةَ الرِّضى والموافَقَةِ إلّا أنَّ الإفصاحَ لِوالِدِهِ عَن انصياعِهِ لِأمرِهِ بالقَولِ واجِب.

أجابَ علي والِدَهُ قائلاً :

– سَمعاً وطاعَةً يا أبي.

داخَلَــهُ شُعُورٌ بالسَّعــادَةِ لأنّهُ سَيُصبِحُ زَوجــاً ورَبَّ أسرَةٍ ومَــسؤولاً عَن كيانٍ قائمٍ بذاتِــهِ في المجتَمَعِ ولا شَكَّ أنَّهُ سَيُسَمِّي ابنَهُ البِكرَ أحمَد تَيَمُّناً باسمِ والِدِهِ وسَيُنادِيهِ الرِّجالُ بأبي أحمَد أما زَوجَتُهُ التي سَتَكُونُ أمَّ أحمَد مُستَقبَلاً فَهي ابنَةُ عَمِّهِ هزيم عَمِّهِ الأكبَر مِن أبِيــهِ تاجِرِ اللُؤلُؤِ المعرُوفِ ليسَ في القَريــةِ فقَط بَل على مستوى الخَليج والهِندِ وعُمان وسَتَكُــونُ ابنتُهُ زَوجَةً له لَعِبَ مَعَها ومَعَ إخوَتِها محمد وخليفة وعبدالله فــي طُفُولَتِه وعِندَما شَبَّت وكَبُرَت كانَت تَتَــوارى عَن أنظارِهِ بِحُكمِ العاداتِ والتَّقالِيدِ وقَــد يَراها أحياناً ويَرى أنَّها فَتاةٌ جَميلَةٌ إلّا أنَّهُ لَم يكُن يَتَوقَّعُ أن يَختارَها أبُوهُ لأن تَكونَ زَوجَةً لَهُ وكانَت بالفِعلِ زَوجَةً صالِحَةً لكنَّها لَم تُنجِب لَهُ الوَلَدَ لَم تُنجِب لَهُ أحمَد إنَّما أنجَبَت لَهُ ابنتَينِ.

أعادَتــهُ تلكَ الخَواطِرُ إلى تّذَكُّرِ يومِ زَواجِهِ الذي كانَ يومــاً مُمَيَّزاً عَن باقِي الأيامِ في حياتِهِ ونَقَلَــهُ إلى مَصافِّ الرِّجالِ المتَحَمِّلِينَ للمَسؤوليَّــةِ فبَعدَ صَلاةِ العَصرِ مِن ذلــكَ اليومِ كانَــت والِدَتُهُ وأختُهُ أمُّ عبــدالله قَد جَهَّزتا لَهُ ملابِسَ العُــرسِ وأعدَّتا لهُ الأطيــابَ والعُودَ والبخورَ فلَبِــسَ وتَطَيَّبَ وتَوَجَّهَ إلى المجلِــسِ حيثُ كانَ هناكَ أبُوهُ وعَمُّهُ وإخوَتُهُ وأبناءُ عَمِّهِ يَستَقبلونَ الضّيوفَ المهَنِّئينَ مِن الأقارِبِ ومِن رِجالِ القَريَةِ والخَدَمُ يوزِّعُونَ عَلَيهِمُ التَّمرَ ويَصُبُّونَ لَهُم القَهوَةَ دَخَلَ المجلِسَ وقَبَّلَ رَأسَ عَمِّهِ وأبيهِ وسلَّمَ على إخوتِهِ وأبناءِ عَمِّهِ وبَدأَ المهَنِّؤونَ يَتَوافَدُونَ على المكانِ وفجأةً سُمعَ صَوتُ طَلقٍ نــاريٍّ خارِجَ المجلِسِ تَلَتهُ عِدَّةُ طَلقاتٍ وبَدأت فِرقَــةُ العَرضَةِ بإطلاقِ الشِّيلاتِ وتَحَلَّقَ الشُّبانُ حَولَ الفِرقَةِ وبَــدأَ بَعضُهُم بالدُّخولِ إلى الحَلبَةِ مُستَعرِضينَ بِسُيُوفِهِم رقَصاتِ الحَربِ على إيقاعِ نَغَماتِ العَرضَةِ الفُولوكلوريَّةِ التي يكُونُ تَواجُدُ فِرَقِها عُرفٌ في الأعراسِ والأعيــادِ والاحتِفالاتِ الجماعِيَّةِ خاصَّةً عِندَ كِبارِ الشَّخصياتِ للدّلالَةِ على الجاهِ والمكانَــةِ وهي مِنَ العاداتِ القَديمَةِ التي تقُومُ فيهــا الفِرَقُ بإنشادِ أشعارِ الحمــاسةِ ويقُومُ الشبّانُ بالتَّمايلِ معَ أنغامِها بالسّيــوفِ، ثُمَّ وُضِعت صِينياتُ العَشاءِ العامِــرَةُ بالذَّبائحِ داخِلَ المجلِسِ وخارِجَهُ ودعا والِــدُهُ جميعَ الحضُورِ لِتناوُلِ العَشاءِ وأثنــاءَ ذلكَ كانَت الوُجُوهُ تَبسُمُ في وجهِهِ وتَدعــو لَهُ بالتَّوفيقِ في حياتِهِ الزَّوجِيَّةِ ولَم تَخلُ تَبريكاتُ بَعضِ أصحابِهِ مِنَ المزاحِ مَعَهُ بأنَّهُ سيبتَعِدُ عَنهُم وعَن مُسامَرَتِهِم خاصَّةً العــزَّابَ مِنهم، بعدَ ذلكَ عادَت فِرقَــةُ العَرضَةِ بإطلاقِ الشيــلاتِ والأناشِيدِ ودَخلَ الفِتيَةُ في الحَلبَةِ بينَ صَفَّيهــا يَرفَعُونَ سُيُوفَهُم ويخفِضونَها على إيقاعاتِ دُفُوفِها وهُرِعَ إليهِ الشُّبَّانُ يُمسِكونَ بِيَدِهِ يَجُرُّونَهُ بِلُطفٍ وهو في شِبهِ تَمنُّعٍ لِيُشارِكَهمُ ولو بالاصطِفافِ معَهم والتَّمايلِ في العَرَضة.

في اليَــومِ التَّالي أحسَّ علي أنَّهُ انتقلَ مِن مَرحَلَةٍ إلى أخــرى مِن مَرحَلَةِ العزوبيَّةِ والانطــلاقِ إلى مَرحلَةِ الأُسرَةِ والمسؤوليةِ مِــن مَرحلَة الانفرادِ إلى مَرحَلَة المشارَكَةِ حتّى تَعامُلُهُ أصبَحَ أكثَرَ رَزانَةً معَ الآخرينَ وحَتى معَ زَوجَتِهِ أُمِّ أحمَد.

كانَت أمُّ أحمَد مُلازِمةً لأُختِهِ ابنَةِ عَمِّها أمِّ عَبدالله وتَستَقِي مِنها عِلمَ القُرآنِ والسُّنَّةِ وعُلُــومَ الأدَبِ والشِّعرِ فأمُّ عَبدالله كانَت على اطِّلاعٍ وثَقافَةٍ ويَسَّرَ لَها ذلكَ الأمرَ تَوَجُّهُ أَخيهَا محمّد وشَغَفُــهُ بالعِلمِ فَقَد دَرَسَ على أيدِي شيُوخٍ مِنَ الهِندِ وفارس والأحسَاءِ والبَحرَينِ وأهَّلَهُ عِلمُهُ أن يكُــونَ إماماً وخَطِيباً لِجامعِ القَريةِ وكانَت لَهُ مَكتَبَتُهُ الخاصَّةُ في المنــزِلِ تَعُبُّ أمُّ عَبدالله مِــن مَناهِلِها وتَستَقِي مِن حِياضِها فقَــد حَفِظَت القُرآنَ الكَريمَ واطَّلعَت على كتُبِ التَّفسِيــرِ والسِّيرَةِ ولَم يَمنَعها ذلِكَ مِن قِراءَةِ كُتُبِ الشِّعرِ والأدَبِ ومــا يَقَعُ تَحتَ يَدَيها مِنَ الكُتُبِ التــي يُحضِرُها إخوَتُها مِن أَسفارِهِم فالقِراءَةُ بالنِّسبَةِ لَها كانَت مَنهَــلاً لا تَستَغنِي عَنهُ يَروِي عَطَشَها لِلعِلمِ والمعرِفَةِ فَكانَ لَها الأثرُ الواضِحُ في فِكرِ زَوجَةِ أخيها أمِّ أحمَد.

لَم يَكُن حَــظُّ أخَوَيهِ مُحَمَّد وعيسى وحَظوَتُهُما عندَ والِدِهما أحمَد بِأقَلَّ مِن حَظِّهِ وحَظوَتِــهِ عِندَه فَمُحَمد هو الأكبَرُ وكانَ الآمــرَ النّاهي في العَائلَةِ في غِيابِ أبِيهِ وفارِقُ السِّنِّ بينَ مُحمَّد وعِيسى أكبَرُ مِن فارِقِ السِّنِّ بينَهُ وبينَ عِيسى فَكانَ لَهُ مِنهُما احترامُ الأبِ وتَقدِيــرُهُ وقَد أهداهُ أبُوهُ سَفِينَتَهُ بَعدَ إصلاحِهــا واشتَرى سَفينَةً أهداها لِعِيسى وجَعَلَ علي مُرافِقاً لَهُ وطَلبَ مِنهُ أن يَتَعلمَ عُلومَ البَحرِ وتِجارَةَ اللُّؤلُؤِ لِيشتَرِيَ لَهُ سَفينَتَهُ الخــاصَّةَ بِهِ ولكنَّهُ مَرِضَ وماتَ يَرحمهُ اللهُ قَبلَ ذلك، كَــم كانا يتَعاركانِ في صِباهُما وتكــونُ الغَلَبَةُ دائمــاً لِعِيسى أمّا الآنَ فقَد أصبَحَ عيسى هُــوَ الرُّبانُ والآمرُ النَّاهِي في

السَّفِينَةِ إلّا أنَّهُ كانَ يأخُذُ برأيِهِ ويُقَدِّرُهُ، قد تَحدُثُ بينَ الأخَوَينِ مشادّاتٌ كلامِيَّةٌ وقد تَحــدُثُ بَينَهُما قَطِيعَةٌ لِفَترَةٍ زَمَنِيَّةٍ ولكــنَّ أواصِرَ الأخُوَّةِ أقوى مِن عادِياتِ الزَّمَنِ فإذا عادَت العلاقَةُ بَعدَ فُرقَةٍ عادَت أقوى مِمّا كانت عَليهِ.

لَقَد جابَ هُوَ وعِيسى البَحرَ وصارَعا أمواجَهُ وتَعرَّفا على مُرتادِيهِ مِن غَواصِينَ وتُجّارٍ وحتــى العَسَسَ وسُفُنَ المراقَبَةِ الأمنِيَّةِ عَرفاها وكَوَّنا صداقاتٍ معَ بَعضِ بَحّارَتِها تعرَّفا على جُغرافِيَّةِ المنطقَــةِ وجُزُرِها وخِلجانِها وقِيعانِ بحرِها عَرَفــا مَناخَها وحَرَكَةَ رياحِها واتِّجاهــاتِ هبُوبِها عَرفا نُجُومَها وأسماءَهــا ومطالِعَها وكيفَ يَهتَدُونَ بِها عِندَما يُبحِرونَ لَيلاً في ظُلُماتِ أمــواجِ الخَليجِ عَرفا أسماءَ الأسماكِ والأحياءِ البَحرِيَّةِ وطُرُقَ صَيدِها وما يُؤكَلُ مِنها وما لا يؤكَلُ عَرَفا اللآلئَ وأثمانَها ومَزاياها ومَثاقِيلَها وطُرُقَ التِّجارَةِ بها.

لَقَد كانَــت صُحبَةً وأخُوَّةً طَيِّبَــةً بينهُما حتى البَحارَةُ الذِينَ يَعمَلــونَ مَعَهُما كانُوا يُحِبُّونَهُما ويتَفانَونَ في العَمَلِ مَعَهُما لكنَّ صُروفَ اللَّيالي والأيامِ لا تدُومُ على حالٍ.



٢ـ

فــي يَومٍ خَريفيٍّ مُنذِرٍ بِدُخولِ الشِّتاءِ وبَعدَ صَلاةِ العِشاءِ كانَ هُو ومحمّد مَعَ بعضِ الأصدِقاءِ في البَراحَةِ وكانَ عيسى مُسافراً كانَ الهواءُ مُنعِشاً ونسماتُ الخَريفِ تُذكي حَسِيــسَ النارَ في الأخشابِ التي في الموقدِ فتُصدِّعُهــا وتُحيلُها جمراً يُقَلِّبُهُ الخادِمُ مَرزُوق ويُحِيطُ بِهِ دَلَّةَ القَهوَةِ النُّحاسيَّةَ وإبرِيقَ الشَّاي الذي يَسكُبُهُ في الفَناجِينِ ويُوزِّعُهُ على الحُضُورِ وإبراهِيمُ ذُو السَّنواتِ السِّتِّ مُتَّكِئ على فَخِذِ عَمِّهِ مُحَمَّد مُلتَحِفٌ بِجُزءٍ مِــن عَباءَتِهِ باحِثاً عَن الحَنانِ الذي افتَقَدَهُ بِسببــبِ سَفَرِ أبيهِ عيسى كانَ اللَّيلُ حالِكاً والنُّجومُ تَملأُ السَّماءَ ويُفَرِّقُ الظَّلامَ مِن حَولِ ذلكَ الأُنسِ (ترِيك) وهو فانُوسٌ يَعمَلُ بالكازِ فالكهرباءُ لَم تَصِلِ القَريَةَ بَعدُ.

بَدَأت النَّسَماتُ تَشتَدُّ والطَّقسُ يَزدادُ بُرُودَةً ولكنَّها أقَلَّ مِن بُرُودَةِ الشِّتاء والرِّجالُ تَرتَفِعُ أصواتُهــم ونِقاشاتُهُم في بَعضِ الموضوعاتِ وتخفُتُ أحياناً إلى درجَةِ الصَّمتِ ثــمَّ تَبدأُ حِــواراتٌ جانِبيَّةٌ ما تَلبَــثُ أن تَشمَلَ كُلَّ مَن في المجلِــسِ إلى أن نَضَبَت كُلُّ الموضوعــاتِ فاستأذنُوا بالمغادَرَةِ وتفَرَّقَ الجَمعُ ودَخلَ عليٌ دارَهُ حَيثُ كانَت أمُّ أحمَــد في انتِظارِهِ على أحَرِّ مِنَ الجَمرِ، شَهــرانِ مَرَّا على زَواجِهِما زاداهُما حُبَّاً وتَعَلُّقاً ببَعضِهِمــا وزاداهُما أُلفَةً وتَفاهُماً على مــاكانَ بينَهما مِن أُلفَةٍ وتَفاهُمٍ مُنذُ الصِّغَر جَعَلَ مِــن كِلَيهما يَفهَمُ الآخَرَ ويَعلَمُ ما يَدورُ بِخَلَدِهِ مــن ملامحِ وجهِهِ ونظراتِ عَينيهِ دَخَلَ عَليهــا ولكنَّها لَم تكُن كَعادَتِها نَظَرَ إليها فأحسَّ بأنَّ لَديهــا موضوعاً يَشغَلُها فهوَ يَعلَمُ

خَلَجاتِهـا إلى دَرَجَةِ أنَّهُ يَقرأُ ماتَقُولُهُ عَيناها ومـا ترسمُهُ تَعابيرُ مُحَيَّاها ويعلَمُ إن كانَ ما تُخفيهِ أمراً مُفرِحاً أم مُحزِناً كيفَ لا وقَد عاشَ مَعها مُنذُ نُعُومَةِ أظفارِهما ولكنَّ صَمتَها فـي تِلكَ اللَّيلَةِ كانَ مُبهَماً بالنِّسبَةِ لَه لا بُدَّ أنَّ ما تُخفيهِ شَيءٌ جَدِيدٌ على حَياتِهما إنَّهُ يُريدُ أن يَسألَها ولكنَّهُ يُهَيِءُ نَفـسَهُ لِجَوابِها هَل سَيُفرِحُهُ أم يُحزِنُه وكَيفَ ستكُونُ ردَّةُ فِعلِـهِ واستَعادَ بِسُرعَةٍ حَديثَ أُمِّهِ مع أُختِهِ بالأمس حيثُ التَقَطَ كلمَةَ أُختِهِ أم عبدالله (إن شاء الله وَلَد)، فبادَرَ زَوجَتَهُ :

- هل أنتِ حامِل..؟

لَم تُجِبهُ بَل صَمتَـت وكانَ صَمتُها لِفترَةٍ وجِيزَةٍ لَم تَتجاوز عِدَّةَ ثَوانٍ ولكنَّها كانَت كالسَّاعـاتِ بالنِّسبَةِ إليه، تَدُورُ عَيناهُ في صَفحـاتِ وَجهِها في عَينَيها اللَّتَينِ يَنتَظِرُ أن تَرفَعَهما لَهُ وتُعانِقَ بِهما عَينَيهِ في خُدُيها ووَجنَتَيها اللّتينِ مالَتا إلى الحُمرَةِ في شَفَتَيها اللّتيـن يَنتَظرُ أن تَتَحرَّكا وتَنبِسا بما يختَلِجُ في سَريرَتِها لَم تَرفَع رَأسَها ولَم تَنبس بِبِنتِ شَفَـةٍ وإنَّمـا أشارَت بِرأسها بالإيجـابِ واغرَورَقَت عَيناها بالدُّمُـوعِ فاحتَضَنَ وَجهَها بِراحَتَيهِ ومَسَحَ دَمعَها هُوَ أيـضاً تَوَقَّفَت الكَلِماتُ في حَلقِهِ كانَت دُمُوعُها دُموعَ الفَرِحِ الممزُوجِ بالرَّهبَةِ الفَرَحِ الذي تَشعُرُ بِهِ كُلُّ زَوجَةٍ عندَما تُصبِحَ أُمّاً لأولِ مَرَّةٍ والرَّهبَةِ مِنَ التَّجربَةِ الجَديدَةِ التي ستَمُرُّ بِها. أما هُو فَقَد صَمَتَ لزَخَمِ الأفكارِ التي تَزاحَمَت فجأةً في خاطِرِهِ بالنَّقلَةِ الجَديدَةِ في حَياتِهِ العائليةِ فَكَّرَ في حَملِها وولادَتِها وبأنَّهُ سيكُونُ أباً لأحمَد الذي سَيربيهِ تَربيةً صالِحَةً وسيأخُذهُ مَعَهُ إلى مجالِسِ الرِّجالِ وسيُعَلِّمُهُ علُومَ البِحارِ وسيكونُ رُباناً وتاجِراً كأبيهِ وعَمِّهِ ولكن ماذا لو كانَ القادِمُ بِنتاً أرادَ أن يَطرُدَ هذهِ الفكرَةَ ويستَبعِدَها فَهوَ في مُجتَمَعٍ يَعتَمِدُ على الأولادِ والرِّجالِ في تَوفيرِ سُبُلِ العَيشِ

ليــسَ مُهِمّاً أن تُنجِبَ بِنتاً فــي حملِها الثّاني فمُجتَمَعُهُ لا يَرفُضُ المــرأةَ أو يَحتَقِرُها، المهِــمُّ أن يكُــونَ الأولُ ولَداً فعلاً ماذا لو كانَ القادمُ بِنتاً إنَّــهُ أمرُ اللهِ وقَدَرَهُ ولا بُدَّ أن يتأقلَــمَ مَعَه راحَ يُفكِّرُ في ما يُصالحُ بِهِ نَفــسَه ويُقنِعُها بأنَّ الوَلَدَ أو البنتَ عطاءٌ مِنَ اللهِ سُبحانَهُ وتَعالى ولكُلٍّ مِنهُما مَزاياهُ فالبِنتُ حَنُونَةٌ رَقِيقَةُ المشاعِرِ خاصَّةً إذا رَبَّتها امرَأةٌ فاضِلَــةٌ كأُمِّ أحمَد وسيانَ الأمرُ أكانَ القادِمُ ولَداً أو بِنتاً فَهوَ لا بُدَّ أن يَبدأَ بالتَّفكِيرِ في بِناءِ مَنزلٍ يضُمُّ عائلَتَهُ بَدلاً من هذهِ الغُرفَةِ الصَّغيرةِ أنتبَهِ مِن أفكارِه ليسَ لأيِّ صَوتٍ سَمِعَهُ بَل للصَّمتِ المطبِقِ الذي خَيَّمَ عليه وعلى أُمِّ أحمَد طَوَّقَها ونَبَسَ بِكَلِمَةٍ لأولَ مَرَّةٍ يقُولُها لَها :

– مَبرُوك.. مَبرُوك يا أمَّ أحمَد.

اشتَدَّ عَصفُ الرِّيحِ وبَدأت تُحــدِثُ أصواتاً بالأشياءِ التي تتَلاعَبُ بِها في الخارِجِ حــاولَ النَّومَ فكانَت تُوقِظُــهُ الأصواتُ بَعدَ كُلِّ غفوةٍ إلّا أنَّ هــذه المرَّةَ كانَ الصَّوتُ شَديداً خَرَجَ مِن دارِهِ لِيَرى ما الذي حَدَثَ ذَهَبَ إلى البَراحَةِ فإذا بالأمواجِ تهدِرُ مِن شدَّةِ الرِّياحِ ونادى في الظَّلامِ :

– مرزُوق.. يا مَرزُوق.

لَم يُجِبهُ مرزُوق ولَم يَــرَ شَيئاً، عادَ إلى دارِهِ فهوَ لا يستَطيعُ أن يَرى ما أحدَثَهُ ذلكَ الــصَّوتُ فالظَّلامُ دامِسٌ هَدأت الرِّيحُ قَليلاً وحاولَ أن ينامَ لكنهُ لَم يستَطع وأصبَحَت تَتلاعَبُ بِهِ الهَواجِسُ والأفــكارُ وبَعدَ تَرَدُّدٍ خَرجَ مَرَّةً أُخرى فإذا بالرِّيحِ أَقَلَّ حِدَّةً وإذا بالأمواجِ أقَــلَّ شِدَّةً تَوَجَّهَ إلى البَراحَــةِ وبَحَثَ عَن الفانُوسِ فَوَجَــدَهُ وأشعَلَهُ وتَوجَّهَ

إلى البَحــرِ رَفَعَ الفانُوسَ إلّا أنَّ نُورَهُ لم يُبدِ لَهُ الأشيــاءَ البَعِيدَةَ فدَخلَ البَحرَ وخاضَ في مياهِــهِ مَشى ومشى حتى تَراءَت لَهُ سَفينَةُ أخيهِ محمَّــد سارَ إليها فوَجَدَها تَميلُ علــى جانبِها قَليلاً ما يَدلُّ علــى أنَّ البَحرَ بَدَأ حَرَكَةَ الجَزرِ سارَ نَحوَها والشُّكُوكُ تَزيدُهُ اضطِراباً وتَــزدادُ مَعَ كُلِّ خطوَةٍ يَخطوها رَفَعَ الفانُوسَ والتَفَــتَ يَميناً وشمالاً فتَأكَّدَت ظُنُونُهُ لَم يَجد سَفينَةَ عيسى إنها مَصدَرُ رِزقِهم لا شكَّ أنَّ الرِّياحَ قَطعَت حَبلَ المرساةِ فأفلَتَــت السَّفينَةُ وجَرَفَتها أمواجُ البَحرِ الهائِجةُ إلى لُجَجٍ بَعيدَةٍ وظَلَّ حائراً لِبُرهَةٍ كيف يُعالــجُ هذهِ المشكِلَةَ بَل هذهِ المعضِلَةَ هَل يَعُودُ أدراجَــهُ إلى البَيتِ ويقبَعُ في غُرفَتِهِ وفــي الصَّباحِ يَجِدُ حَــلاًّ أم يُغامِرُ ويّبحثُ عَن السَّفينةِ في هــذا البَحرِ الشَّاسع.؟ قَد تكُــونُ قَرِيبَةً أوقَــفَ انجِرافَها تَجَمُّعُ للصُّخورِ أو مياهُ ضَحلَةٌ لجَزيــرَةٍ رَمليَّةٍ صَغيرَةٍ وإن كانَ سَيبحَــثُ عَنها فَكَيفَ سَيَراها في هذا الظَّلامِ الدَّامِسِ إنَّها وإنْ ابتَعَدَت سَيجدُها لا مَحالَــةَ مُرتادُو البَحرِ مِن صَيَّادِينَ أو تُجارٍ أو سُفنِ أمنٍ أو غَيرِهم وسَينشُرُ هوَ ورِجالُهُ خَبَــرَ فُقدانِ السَّفينَةِ وسَتَعُودُ إليهِ ولكِنْ ألا يُمكِنُ إن تاهَت في البَحرِ أن تَتَحَطَّمَ على الصُّخُورِ وتَغرَقَ فلا يَراها ليُعِيدَها ويُصلِحَهــا أو يَسرِقَها اللُّصُوصُ والقَراصِنَةُ ويُغَيِّرُونَ ملامِحَهــا إنَّها مــصدَرُ الرِّزقِ الذي يَعتَمِــدُونَ عَليهِ هُوَ وأخُوهُ وبَينَمــا هُوَ في احتِدامِ الــصراعِ في أفكارِهِ اندَفَعَ إلى الأمامِ يَخُوضُ البَحــرَ رافِعاً الفانُوسَ إنَّهُ يَعرِفُ المنطِقَةَ التــي بينَ قَريَتِهِ وبينَ القَريَةِ المقابِلَةِ لها شِبراً شِبراً، ويَعرفُ قاعَ ذلكَ البَحرِ جيِّداً فَهُوَ فِي خَليجٍ صَغِيرٍ بيــنَ القَريَتَينِ يمتَدُّ عِدَّة كيلومتراتٍ طولاً وعَرضاً أما الجِهةُ الجَنُوبيةُ عَــن يَمِينِهِ فمَفتُوحَةٌ علــى البَحرِ العريضِ خاضَ مُتَوغلاً في البَحــرِ وهو يَلتَفِتُ يَميناً وشمالاً بِمــا تَسمَحُ لَهُ إضاءَةُ الفانُوسِ أن يَراهُ وأسمــاكُ (الحاقُولِ) الطُّوليةُ الشَّكلِ تَقفِزُ حَولَهُ بينَ حِينٍ وآخَــرَ يُثِيرُها ضوءُ المصباحِ وهُوَ يَتفاداها كُلَّما اقتَرَبَت مِنهُ حتَى

لا تُصِيبُهُ بِمناقِيرِها المدَبَّبَةِ المسَنَّنَــةِ الطَّويلَةِ فتجرَحُهُ أو تُصِيبُ إحدى عَينَيهِ، كَثِيرَةٌ هيَ الحَوادِثُ التي تَسبَّبَــت فيها تِلكَ الأسماكُ للمُتَنَوِّرينَ في اللَّيلِ لِصيدِ الأسماكِ بالمصابِيحِ إما بِجُرحٍ غائرٍ في الجَسَدِ أو في العَينِ فَتَفقؤها إنَّهُ يَتَذَكَّرُ قِصَّةً حَكاها لَهُ أبُوهُ عَن رَجلٍ فَقأَت إحدى عَينَيــهِ سَمَكَةٌ من هذِهِ الأسماكِ إنَّها لا تُهاجِمُ الإنسانَ بِدافِعٍ عدوانِيّ لأنَّها لا تَرى في الظلامِ الدَّامِــسِ إلّا إضاءَةَ المصباحِ فتَقصِدُها كالفراشاتِ ولكــن لَيسَ بالأجنِحَةِ بَل بِقفزاتٍ على سطحِ المــاءِ، واصَلَ مَشيَهُ يَخُوضُ في البَحرِ إلى أن أحسَّ أنَّ قَدَميهِ بَدَأتا تَغوصان في وَحلِ القاعِ ووَصلَ مستَوى البَحرِ إلى أعلى صدرِهِ إنَّــهُ يَعرِفُ هذهِ البُقعَةَ الموحِلَةَ ويعلَمُ أنَّــهُ سَيَجتازُها بَعدَ عِدَّةِ دَقائِقَ وأنَّ بَعدَها أرضاً رَمليَّــةً سَتَرفَعُهُ عَن مُستَوى البَحرِ إلى جَزيــرَةٍ مِنَ الرِّمالِ تَظهَرُ على السَّطحِ في حالــةِ الجَزرِ طُولُها وعَرضُها عِدَّةُ أمتارٍ اقتَرَبَ مُستَــوى الماءِ مِن رَقَبَتِهِ وغاصَت رِجلُهُ اليُمنى في الوَحلِ أمسَكَ الفانُوسَ مِن قاعِدَتِهِ ورَفَعَهُ أعلى مِن رأسِهِ وحاوَلَ أن يُخرِجَ رِجلَــهُ مِنَ الوحلِ فَسَقَطَ الفانُوسُ في البَحرِ مُحدِثــاً فرقَعَةً وانكَسَرَت زُجاجَتُهُ بسَببِ الحَرارَةِ، أخرَجَ رِجلَهُ ولكنَّ الفانُوسَ انطَفأ فَرَماهُ وأحاطَت بِهِ دَياجِيرُ لَيلٍ حالِكٍ.

رَفَــعَ رِجلَيهِ عَن وَحلِ قاعِ البَحــرِ وصارَ يَرفِسُ بِهِما الماءَ ويُجَدِّفُ بِيَدَيهِ بهُدوءٍ وهوَ فــي مكانِهِ ثُمَّ بَدَأ يَسبَــحُ باتّجاهِ البَرِّ الرَّمليِّ المتَوقَّعِ بَعدَ قَليــلٍ تَوقَفَ ومَدَّ رِجليهِ إلى القاعِ فثَبَتَتا على أرضٍ رَمليَّةٍ ومُستَوى البَحرِ عندَ أعلى صَدرِهِ مَشى بِبطءٍ وأخَذَ يجُولُ بَبَــصرِهِ فيما حَولَهُ كانَت قُبَّــةُ السَّماءِ مُترَعَةً بالنُّجومِ أتاحَ لَهُ بَريقُهــا أن يُمَيِّزَ ما حَولَهُ نَوعــاً ما وساعَدَ في ذلِكَ نُورٌ خافِتٌ جِداً في بُؤرَةِ الأُفُقِ الشَّرقِيِّ يَزدادُ وضُوحُهُ ولكِن بِبُطءٍ شَدِيدٍ فَظَنَّ أنّهُ ضِياءُ نَجمَةِ الصُّبحِ (الزُّهرةِ) تُفصِحُ عَن شُرُوقِها أدارَ بَصَرَهُ فلاحَ

لَـهُ الرَّملُ ليسَ بَعِيـداً أبيضاً مُحدَودِباً وكأنَّهُ ظَهرُ كائنٍ غاطِـسٍ في البَحرِ فاتَّجَهَ نَحوَهُ ازدادَت إضاءَةُ النُّـورِ مِـنَ الشَّرقِ فعَلِمَ أنَّها لَيست الزُّهرة إنَّـهُ القَمَرُ يُعلِنُ عَن شُرُوقِه وبالفِعـلِ ما إن وَصلَ إلى الجَزيرةِ الصَّغيرَةِ جِداً حتّى أشرَقَ نِصفُ القَمَرِ آسِراً يرسلُ ضِياءً لُجَينياً شاحِباً ينعَكِسُ علـى سَطحِ البحرِ فتَتَراقَصُ بهِ موجاتُه، وبِخُطواتٍ بَطيئةٍ بِسَبَـبِ مُقاومَةِ الماءِ مشى نَحوَ البَرِّ وبِثيابِهِ المبتَلَّةِ اضطجَعَ على الرَّملِ ونامَ ولَم يترك التَّعبُ والسَّهرُ لَهُ المجالَ أن يَحلُمَ ولَم يترك لَهُ البردُ والعَراءُ مَجالاً لأن يَستَمتِعَ بِنَومِه فلَم تَستَمِرَّ غَفوَتُهُ طَويلاً لقَـد أيقَظتهُ نسمَةُ هَواءٍ بارِدَةٌ صاحَبَها صِياحُ الدِّيَكَةِ الخافِتُ القادِمُ من بَعِيـدٍ أحَسَّ بالجُوعِ ولم يأبَه لِذلك فكَثيراً ما أدامَ مِطالَه صلى الفَجرَ ودَعا اللهَ أن يُحَقِّقَ لهُ أمنيَتَهُ ويُعِيدَ إليهِ السَّفِينَةَ.

إزدادَ نُورُ الفَجرِ ضِياءً قَبلَ طُلوعِ الشَّمسِ فبَدَت الأشياءُ أكثرَ وضُوحاً وبَدأَت تَصِلُ إلى أُذُنَيهِ أصواتٌ مِن بَعيد تَدُلُّ على أنَّ الحَرَكَةَ بَدأت تَدُبُّ في البَشَرِ وبَدأ نُورُ القَمَرِ يَتضاءَلُ إلى أن انطفأ فأصبَحَ جُرماً بلا لَون ثُم أشرَقَت الشَّمسُ بِصَباحٍ جَمِيلٍ وبَدأت تَرتَفِـعُ شَيئاً فَشيئاً لتَفتَحَ صَفحَـةً جَديدَةً في الكَونِ فتَمحُـو بأشِعَّتِها الذَّهبيَّةِ صفحَةً كانَـت تُرَصِّعُها النُّجُومُ والقَمَرُ لِتَفتَحَ صَفحَةً يغلِبُ علَيهـا اللونُ الأزرقُ بِزُرقَةِ السَّماءِ والبَحرِ ويَنعَكِـسُ اللَّونُ الأصفَرُ البَرَّاقُ فيها على كُلِّ ما يَقَعُ عليهِ ضِياؤها وعِندَما أدارَ بَصَرَهُ رآها رأى السَّفينَةَ مِن بَعِيدٍ كأنَّها تَقُولُ لَهُ: ها أنا ذا. كانَت بَعِيدَةً جداً إلّا أنَّ حِدَّةَ بَصَرِهِ مَيَّزتها فَقَدَّرَ أنَّ الـوصُولَ إليها قَد يَستَغرِقُ قرابَةَ الساعةِ سِباحَةً والسِّباحَةُ إليها أمرٌ لا بُدَّ مِنهُ فَهوَ لَن يَترُكَهـا للمَدِّ القادِمِ لِيَجرِفَها إلى البَحرِ الواسعِ بَعيداً فبَدأ يَسبَحُ نَحوَها وفـي مُنتصَفِ الطَّريقِ أحسَّ بالتَّعَبِ فَأوقَفَ حرَكَتَـهُ وظَلَّ يُحَرِّكُ يَدَيهِ ورِجلَيهِ

بِهُـدُوءٍ طافياً على سَطحِ الماءِ ليَأخُذَ قِسطاً مِن الرَّاحَةِ ثُمَّ واصَلَ سابِحاً أحياناً إذا كانَ العُمقُ أكبَرَ مِن قامَتِهِ وماشِياً إذا كانَ أقَلَّ مِنها وَصَلَ إلى السَّفينَةِ وقَد أخَذَ مِنهُ التَّعَبُ مأخَـذَهُ كانَت مائلَةً قَليلاً على جانِبِها وتَحتَها منطِقَةٌ ضَحلَةٌ مِنَ الرِّمالِ والصُّخُورِ وقَفَ أمامَها صامِتاً وكأنَّهُ يُعاتِبُها على ما أصابَهُ بسَبَبِها مِن عَناءٍ اتَّجَهَ إلى طَرفِ حَبلِ المرساةِ المقطـوعِ بِسَبَبِ العاصِفَةِ ورَبَطَهُ جَيداً في جِسمِ المنطقَةِ الصَّخرِيَّةِ ثُمَّ صَعدَ إلى ظَهرِ السَّفينَـةِ وتَوَجَّهَ إلى الخُنِّ ونَزَلَ بِهِ وتَأَكَّدَ مِن سَلامَـةِ السَّفينَةِ مِنَ الداخِلِ وأنَّ الماءَ لَم يدخُـل إلى جَوفِها ثُمَّ عادَ إلى السَّطحِ وفـي الطَرفِ الخَلفِيِّ مِنَ السَّفِينَةِ وجَدَ إناءً بِهِ تَمرٌ فأكلَ ووجَدَ فراشاً مطوياً فَبسطه وافتَرَشَهُ ثم جلس عليه وراحَ يُفَكِّرُ كَيفَ يَخرُجُ بِالسَّفينَـةِ مِن هذا المكانِ فَعلى الرّغمِ مِـن أنَّ المدَّ سَيرفعُها عَن القاعِ وعَن الصُّخورِ ويَرقـى بِها علـى سَطحِ الماءِ إلّا أنَّ تَحريكَها يَحتاجُ إلى أربَعَـةِ رِجالٍ على أقَلِّ تَقديرٍ لتَحريـرِ حَبلِ مَرساتِها مِـنَ الصُّخُورِ ورَفعِ الشِّراعِ وتَوجيهِهـا بالدَّفَّةِ ولكِنه وَحيدَه..؟ بالطَّبـعِ لا يَستَطِيعُ. تَوَجَّهُ إلـى خَشَبَةِ الصَّارِي ورَفَعَ عَليها عَلَـمَ الطَّوارِئ ثُمَّ عادَ إلى مَكانِهِ فَوَجدَ خَيطاً لِصَيدِ السَّمَكِ فتَرَكَهُ ونَزَلَ إلى البَحرِ يَبحَثُ بينَ الصُّخُورِ عَن طُعمٍ يَضَعُهُ فـي الصَّنارةِ فَجمَعَ الكَثيرَ مِنَ الرَّخوياتِ ثم عادَ إلـى السَّفينَةِ وألقى بِصنَّارتِهِ في البَحـرِ واصطادَ مِنَ السَّمِكِ ما يَكفيهِ ذهبَ بِهِ إلى مـكانِ الطَّبخِ وأوقَدَ النارَ وفي أثنـاءِ شِوائهِ للسَّمَكِ كانَ يَلتَفِتُ يَميناً وشِمالاً لَعلَّهُ يرى أحداً مِن مرتادِي البَحرِ لكنَّهُ لَم يُفلِح فأكَلَ وتَمَـدَّدَ على الفِراشِ ليأخُذَ نَومةً ولَو قَصِيرةً أفضَلَ مِن نَومَتِهِ في العَراءِ وفـي فَترةِ انتِقالِهِ مِن حالَةِ اليَقظَةِ إلى النَّـومِ فَكَّرَ في زَوجَتِهِ وكيفَ سَيكُونُ حالُها إذا صَحت مِـن نَومِها ولَم تجِدهُ وفي أخيهِ محَمد إذا لَم يَجِـدهُ في المسجدِ عندَ صلاةِ الفَجرِ إلّا أنَّ النّومَ كانَ أقوى مِن تِلكَ الأفكارِ فنامَ بِعُمق.

انتَبَهَ مِن نَومِهِ على صَوتِ أخِيهِ مُحمَّد وهوَ يُوقِظُهُ :

– علي.. علي..

صحا مِن نَومِهِ..

– مُحمَّد..؟

– الحَمدُ لله أنَّا وجَدناكَ.. ما الذي حَدَثَ..؟

حَكى علي قِصَّتَـهُ وكَيفَ اكتَشفَ فُقدانَ السَّفِينَةِ وكَيـفَ وجَدَها وما واجَهَهُ مِن مَتاعِبَ في طَرِيقِهِ إليها ثُمَّ سَألَ مُحَمَّد :

– كَيفَ وجَدتُمُوني ..؟

– اكتَشَفنـا عَدَمَ وُجُودِكَ مُنذُ صَلاةِ الفَجرِ فَقَـررتُ أن أبحَثَ عَنكَ وأخَذتُ مَعي مَرزُوق وإبراهِيم لَقَد بَحَثنا كَثيراً والحَمدُ للهِ أنَّا وجَدناكَ.

قَبَّلَ إبراهِيمُ ومَرزُوقُ رَأسَ علي..

– الحَمدُ لله..هَل تُريدُونَ سَمكاً..؟

– لا .. هَل أنتَ جائِع..؟ لَقَد أحضَرنا بَعضَ الطَّعام.

ثُمَّ وجَّهَ محمّد كلامَهُ لِمَرزوق :

– أحضِرِ الطَّعامَ مِنَ القارِبِ يا مَرزُوق.

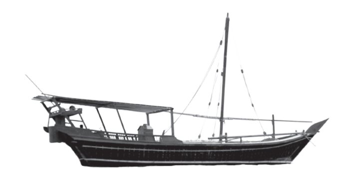
– إن شاء الله عَمّي.

أحضَرَ مَرزُوقُ الطَّعامَ وقَدَّمَهُ لِعلي كانَ الوَقتُ عَصراً وكانَ مَدُّ البَحرِ قَد رَفَعَ السَّفِينَةَ عَن قاعِ البَحرِ فَرَقَت غاصَ مَرزُوقُ وفَكَّ حَبلَ المرساةِ مِنَ الصُّخُورِ ثُمَّ تَعاوَنُوا على رَفعِ الشِّراعِ الصَّغِيرِ وأبحَرُوا.

قَطَعَــت نَورَسَةٌ حَبلَ أفكارِ علــي وذِكرَياتِهِ بِصَوتِها العالِي فــإذا بالبَحرِ يَقتَربُ مِنَ الشّاطــئِ أكثرَ، والشّمسُ خَلفَهُ تَمِيلُ إلى الغُرُوبِ أكثَــرَ ألقى نَظرَةً على قاربِهِ المائِلِ علــى جنبهِ وقَد امتَلأَ جوفُهُ بالرِّمالِ وكأنّه مضطجعٌ يشارِكُهُ ذكرياتِهِ وأمانيهِ بأن يُصلِحَهُ ويُعيدَهُ إلى البَحر تَنَهَّدَ ثم مَدَّ يَدَهُ إلى جَيبِهِ العُلويِّ وأخرَجَ مِنهُ ساعَةَ جَيبِهِ فتحَها ونظَر إلى عَقارِبها فإذا بِها تُشيرُ إلى الحادِيَةَ عَشرةَ وأربَعينَ دَقِيقَة، هَمسَ لِنَفسِهِ :

- اثنا عَشَر إلّا ثلث ..! ، بقي ثلث ساعَة عَن صلاةِ المغرب.

وانتِظاراً للمَغرِبِ وضع رَأسهُ بينَ رُكبتيهِ وعادَ إلى ساحَةِ ذِكرياتِه.





الذِّكرياتُ تَدمَــغُ ببَصَماتِها أوّلَ كُلِّ شَيءٍ في القُلُوبِ الطَّريَّــةِ النَّقِيَّةِ تدمَغُهُ بِكُلِّ انعِكاساتِهــا وظِلالِها حتّى إذا وَجَدَت خلوَةً مِنَ الزَّمَــنِ تَسَيَّدَت الفِكرَ فإذا أغمَضَت العَينانِ بدَت تَفاصِيلُها ماثِلَةً بِكُلِّ وُضُوحٍ كأنَّها واقِعٌ مَلمُوسٌ.

إنَّ شَريطَ التَّذَكُّرِ لا يَحمِلُ الأزمِنَةَ السَّعِيدَةَ فَقَط ولكنَّهُ أيضاً يَعرِضُ أوقاتَ المِحَنِ والأزَمــاتِ ولحَظاتِ الحُزنِ والألَم فهُوَ لا يزالُ يذكُرُ ذلــكَ اليَومَ ومَن لا يَذكُرُهُ، كانَ يَوماً صَحواً جَميلاً في بِدايَتِهِ وعلى الرّغمِ مِن أنَّهُ كانَ يَوماً صَيفِياً يُنذِرُ بِقُدُومِ الخَريفِ إلّا أنَّ حَرارَتَــهُ كانَت مُعتَدِلَةً وأُفُقَهُ بِهِ خُطُوطٌ مِنَ السُّحُبِ البَيضاءِ المائِلَةِ إلى الحُمرَةِ وكأنَّ رِيشَةَ رَسامٍ سُحِبت بِها عَلــى صَفحَةِ السَّماءِ الزّرقاءِ كانَت الشَّمسُ الوَليدَةُ في الشَّرقِ للتَّوِّ قَد خَرَجَت مِن خِدرِ أُمِّها والقَمَرُ المنطَفِئُ بِسَبَبِها يَقتَرِبُ مِن كَبِدِ السّماءِ وأمواجُ البَحرِ هادِئَةً وكأنَّها غِيدٌ تَصحُو مِن نَومٍ عَمِيقٍ يُداعِبُها نَسِيمٌ كَسُول.

كانَ هُوَ وأخــوهُ عِيسى في سَفِينَتِهم أما مُحَمّد فَقَد ابتَعَــدَ كثِيراً بِسَفِينَتِهِ بَحثاً في مِيــاهِ البَحرِ الشَّاسِعَةِ عَن الرِّزقِ وعَن زَبائنَ يَستَهِلُّ بِهِم يَومَهُ يَبحَثُ عَن سُفُنِ الغَوصِ ليَبيعَهمُ الزَّادَ والماءَ ويشتَرِيَ مِنهُم اللُّؤلُؤَ وهذهِ هيَ مِهنَةُ الطَّواشِينَ في مَوسِمِ الغوصِ.

في ذلــكَ اليَومِ رَفعَ لَهم مُحمّد علــى صَارِي سَفينَتِهِ (نوف) وهــوَ عَلَمُ الطَّوارئِ الــذي يَتفِقُ أهلُ البَحرِ على أنَّ مَن يرفَعــهُ يَحتاجُ إلى المساعَدَةِ كانَت سَفِينَتُهُ بَعِيدَةً عَــن سَفِينَتِهِما إلّا أنَّهُم كانُوا شَدِيدِي الملاحَظِةِ وكانُوا كُلَّما اختَفَوا عن أنظارِ بَعضِهِم

البَعض تَقارَبُوا لِيطمَئـنَّ كُلٌّ مِنهُما على الآخَرِ، عِندَما رأى عيسى علمَ الطوارئِ أوعَزَ لِبَحارتِـهِ بِسُرعَةِ التّحَرُّكِ إلى سَفِينَةِ أخِيهِ وعِندَ وصُولِهِم وَجَدُوا مُحمَّد مُلتَحِفاً بِبَطانِيَّةٍ ويَرتَجِفُ وهوَ يَقرأُ مِنَ القُرآنِ سُورَةَ(يس) فقال لهُ عيسى :

- ما بكَ يا مُحَمَّد..؟

- اليَومَ سَتقُومُ القِيامَةُ أو سَتَحدُثُ كارِثَةٌ.. ولا بُدَّ أن نَتَحرَّكَ إلى أقرَبِ بَندَرٍ.. (مرفَأ)

فَلم تَرُق الفِكرةُ لعلي فقالَ :

- كيفَ..؟ والجَوُّ صَحوٌ وجَميلٌ.

إلّا أنَّ عيسى أرادَ أن يستَفسرَ من محمّد عن السَّبَب فقال :

- كيفَ عَرَفتَ يا مُحَمَّد.. ؟

- رَأيتُها يا عيسى رَأيتُ الأمواجَ التي تَعلُو إلى السَّماءِ ثُمَّ تَنحَدِرُ إلى القاعِ الصَّواعِقُ تَتخاطَـفُ والغُيومُ تُزَمجِرُ وتَقصِفُ بالرُّعُودِ وعَصفُ الرِّيحِ يَصُمُّ الآذانَ مُخِيفٌ ما رَأيتُهُ رَأيتُ المراكِبَ الخَشَبيَّةَ تَتدَحرَجُ على الموجِ كَعُلَبِ الكِبريتِ وتَتَصادَمُ بَعضها بَعضاً ورَأيتُهُـم وهُم يَتَقاطَرُونَ مِـنَ السُّحُبِ الدَّاكِنَةِ بِثِيابِهِمُ البَيـضَاءِ يَحمِلُونَ أَسِنَّةَ البُرُوقِ ويُقطِّعُونَ بِها الأشرِعَةَ والـصَّوارِي ويَجُرُّونَ النَّاسَ مِنَ المراكِبِ ويُلقُونَ بِهِم في البَحرِ رَأيـتُ البَشَرَ يَتَناثَرُونَ وتَطفُو أجسادُ المئاتِ مِنهُم على سَطحِ البَحرِ ودِماؤُهُم ضَرَّجَتْ الأَمـواجَ الرِّياحُ كانَت تَهُـبُّ بِعُنفٍ وهي تَدُورُ في سُرعَةٍ رَهِيبَـةٍ تَقتَلِعُ السُّفُنَ وتُكَسِّرُ صَوارِيها وتُمَزِّقُ أشرِعَتَها وأصواتُ الاستِغاثاتِ تَعلُو ثمَّ تَهزِمُها الرُّعُودُ انظُر .. انظُر إلى يَدي ألا تَرى ما فِيها مِنَ السَّوادِ..؟

نَظَرَ عيسى إلى يَدِ أخيهِ وقال :

– يا إلهي.. ما هذا..؟ هَل كُنتَ تَجُرُّ شيئاً ..؟

– كُنتُ أطيرُ بِعُنفِ الرّياحِ فأمسَكتُ بقُوّةٍ بِخَشبَةِ الصّارِي و ...

صَمَتَ مُحَمَّدٌ عَن الكَلامِ وقَبلَ أن يَستَطرِدَ قالَ عيسى يُواسيهِ :

– كَفى، كَفى يا أخي.

ثمّ التَفَتَ إلى مرزوق :

– ماذا حَدَثَ لَهُ يا مَرزوق..؟

– لا أدري يــا عمّي كانَ نائماً وكُنا نتَحدَّثُ بِهمــسٍ خَوفَ أن نُوقِظَهُ ثُمَّ أصبَحَ نومُهُ مضطَرِباً وفجأةً أمسكَ بِخَشبَةِ الدَّفةِ بِقوة وبَدأ ينتَفِض فأجلَسناهُ ولحَّفناهُ وسقيناهُ الماءَ فشربَ ثمَّ أخذَ يقرأُ القرآن فرَفَعتُ لكم النّوف.

– هدئ من رَوعِكَ يا أخي سَنَعمل إلى الظُّهر ثم نتحرك إلى البندر.

– لا .. يجب أن نتحرَّكَ الآن إلى البندَر.

– كما تُحِب سنتَحَرَّكُ الآن.. يا علي ابقَ مَعَهُ واتبَعُونا.

انتقَلَ عيسى إلى سَفينتِهِ وهبّ علي واقِفاً ونادى مرزوق :

– يا مَرزُوق.

– نعَم يا عمّي.

– هيَّا ارفَعُوا الشِّراعَ واتبَعُوا مَركبَ عيسى.

تَحَرَّكَ المركَبانِ وتَتابَعا.

في الطَّريقِ كانَ عِيسى يُفَكِّرُ في رُؤيا مُحَمَّد فلَقَد أخبرَهُ عِدَّةَ مراتٍ بأحلامٍ يَكتَشِفُ أنَّهــا تَتَحَقَّقُ في كَثيرٍ مِنَ الأحيانِ إنَّ لَدَيهِ حَـدساً عَجِيباً بِمُجرَياتِ الأمورِ رُبَّما لكَثرَةِ اطلاعاتِهِ وقِراءاتِهِ ورُبَّما لوَرَعِهِ وتَقَرُّبِهِ إلى الله.

كانَ سَطحُ البَحرِ هادِئاً كَصَحراءَ مُمتَدةٍ على مَدِّ البَصَرِ وكانَ الشِّراعُ يَحتَضِنُ الهَواءَ ويَمِيــلُ بالسَّفِينَةِ قَلِيلاً وهــي تَمخرُ عُبابَ البَحرِ والدَّلافِينُ حَولَهــا تَقفزُ مِنَ الماءِ ثُمَّ تَغُوصُ فِيهِ وكأنَّها فَرِحَةٌ بِسِباقِها مَعَ المركبِ والنَّوارِسُ تُحَلِّقُ فَوقَهُم يَحُطُّ بَعضُها على الصَّارِي ثُمَّ يَطِيرُ فَيَعتَمِــلُ صَدرُ عَلي بِالحَنِينِ وبالشِّعرِ فتَنسابُ على شَفَتَيهِ الحُرُوفُ والمواوِيــلُ فَينشِدها بِصوتٍ عالٍ لا يِسمعُهُ حتّى هُو بِسبــبِ مسِيرِ السَّفينَة وبِسَبَبِ الهَواءِ المتَدَفِّقِ على وجهِهِ أثناءَ سَيرِها.

وَصَلَت السَّفِينَتانِ إلى البَندَرِ وألقَتا المراسِي وأنزَلَ الرِّجالُ الأشرِعَةَ والتَفَتَ عَلي إلى مُحَمّد وقالَ :

– لا تُوجَدُ سُفُنٌ بالبَندَرِ الكُلُّ في عَمَلِهِ الغَواصُونَ والطَّواشُونَ والصَّيادُونَ والطَّقسُ يَدعُو للعَمَلِ.

– لا تَعجَل يا علي إنَّ ما رَأيتُهُ لَيسَ بالأمرِ الهَيّنِ.

جاءَهُــم عِيسى وجَلَسُوا بَعدَ أداءِ صَلاةِ الظُّهرِ في الجُزءِ الخَلفِي مِنَ سَفِينَةِ مَحَمَّد أما سَفِينَةُ عِيسى فَقَد أرساها البَحَّارَةُ في مَكانٍ قَرِيبٍ وكانَ البَندَرُ خليجاً صغيراً يُحيطُ

بــهِ البَرُّ من ثلاثةِ جَوانِب جَلَسَ الإخوَةُ يَتناولُونَ التّمـرَ ويَشرَبونَ القَهوَةَ بانتِظارِ وَجبَةِ الغَـداءِ والبَحارَةُ تَوَزَّعـوا على السَّفينَتَينِ ومَرَّ الوَقتُ بانتِظـارٍ وتَرَقُّبٍ لأمرٍ يَجهَلُونَه ثُمَّ صَلّوا العَصرَ وانتَظَرُوا ثمَّ انغَمَسَ قُرصُ الشَّمسِ في الأُفُقِ الغَربِيِّ فصَلّوا المغرِب وظَلَّ الجَوُّ صافِياً بَهِيّاً وزادَ بَهاءَهُ ضِياءُ القَمَرِ بَعد غُرُوبِ الشَّمسِ فاتِناً سابِحاً شَيئاً فشَيئاً نَحوَ الغَربِ وكأنَّهُ يَتبَعُها ويُداعِبُ بأشِعَتِهِ صَفحَةَ البَحرِ التي تَتَراقَصُ عَليها الأمواجُ الهادِئَةُ.

ثُــمَّ أُقيمَت صَلاةُ العِشاءِ وأمَّهُم مُحمّد وقَــرأَ سُورَةَ (يس) وفي الرّكعَةِ الثّانِيَةِ وهوَ يَقرَأُ ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ بَكى وأجهَشَ بالبُكاءِ وهذا لَيسَ بالأمرِ الغَريبِ على مُحمَّد فَهُوَ إمامُ النّاسِ في القَريَةِ وخَطِيبُ الجُمعَةِ فيها وكَثِيــراً ما سَمِعَهُ يَبكِي وهوَ يؤُمُّ النَّاسَ يَقرأُ بِخُشُوعٍ ويَغُصُّ بالعَبراتِ فَيصمُتُ ويَبكي ثُمَّ يُتابِع القِراءَةَ وبَعدَ الصَّلاةِ وهُم يَستَعِــدُّونَ لِلعَشاءِ بَدَأت أنسامُ الهَواءِ تَزدَادُ سُرعَةً وبَــدَأت الأَمواجُ تَضطَـرِبُ وقِطَعُ السَّحابِ التِي كانَ القَمَــرُ يَبدُو ويَخفَى مِن خِلالِها أخَــذَت تَتَراكَمُ وتُحِيلُ الفَراغَ إلى ظَلامٍ دامِسٍ والبُــرُوقُ تَتَخاطَفُ مِن بَعيدٍ وتَقتَرِبُ اشتَــدَّت الرِّيحُ وبَدَأت الرُّعُودُ تُزمجِـرُ وتَهُزُّ أركانَ الفَضاءِ وانهَمــرَ المطَرُ غَزيراً غَزيراً وراحَت الأمواجُ تَعلُو وتَسفُلُ وتَتَلاعَــبُ بِسَفِينَتِهِم فكانَت تَرتَفِعُ عالِياً ثُمّ تَهبطُ حتّى تَكادُ تَرتَطِمُ بِقاعِ البَحرِ والبَحَّارَةُ يَنزِلُ بَعضُهم إلى الخُنِّ ويَغرِفُ الماءَ فيَتَسَلَّمُهُ الرِّجالُ مِنــهُ واحِداً تِلوَ الآخرِ إلى أن يَصلَ لِمَن يُعيدُهُ إلــى البَحرِ حتى لا تَغرَقَ السَّفينَةُ أمَّا السُّفُــنُ التي في عَــرضِ البَحرِ فكانَت تَصلُ إليهِم مِنهــا أصواتُ الرِّجالِ وصَرخاتُ الألَمِ والتَّضرُّعِ إلى اللهِ سُبحانَهُ وتَعالى بِأن يُنجِيهِم مِنَ الغَرَقِ والموتِ.

يَستَعِيدُ عَلي تِلــكَ الذِّكرَياتِ ذِكرَياتِ سَنَةِ الطّبعَةِ (الغرق) التي فُقِدَ فيها آلافُ البَــشَرِ يَذكُرُ أنَّهُ بَعدَ هُدُوءِ العاصِفَةِ في الصَّباحِ اكتَشَفَ هوَ وإخوَتُهُ أنَّ صُندُوقِ اللّؤلؤِ

(البيشتختــة) سَقَطَ في البَحرِ فغــاصَ بَحثاً عَنهُ وساعَدَهُ في العُثُــورِ عَلَيهِ أنَّ مرسَاةَ السَّفينَةِ كانَت ثابِتَةً في الصّخُورِ رغمَ اشتِدادِ الرّيحِ والأمواجِ.

ذَهَــبَ ضَحِيَّةَ تلكَ الحادِثَةِ مئاتُ البَشَرِ مِن كُلِّ الدُّوَلِ المطِلَّةِ على الخَليجِ وكَتَبَها التَّارِيخُ في صَفَحاتِه وسُمِّيَت بِسَنَةِ الطَّبعَة.

ذِكرى تِلكَ الفاجِعَةِ الأليمَةِ أيقَظَت عَلي مِن سِنَتِهِ فَتَحَ عَينَيهِ ورَفَعَ رَأسَهُ في كَسَلٍ فإذا بِأمــواجُ المدِّ تَقتَرِبُ مِنَ الشَّاطِئِ وتَتَكسّرُ بِرِقَّةٍ على رِمالِهِ المتَغَلغِلَةِ بَينَ الصُّخُورِ الصَّغِيــرَةِ والشَّمسُ تَمِيلُ أكثَرَ للغُرُوبِ وتُكسِبُ الأُفُــقَ لَوناً ذَهَبياً يَمِيلُ إلى الحُمرَةِ وقارِبُهُ مُستَلقٍ على الشَّاطئِ كأَنَّهُ يستمِعُ إلى خَواطِرِهِ والأَنسَامُ العلِيلَةُ تَبعَثُ في نَفسِهِ الشُّعُــورَ بالاستِرخاءِ والذِّكرَياتُ تُلحُّ عَليهِ أن يَدفِنَ رِأسَهُ بَينَ رُكبَتَيهِ ويُطلِقَ لَها العَنانَ قَبلَ أذانِ المغرِبِ.



٤ ـ

إنَّ ذِكرى أُمِّ أحمَد تَتَسَرَّبُ بِكُلِّ سُفُورِها إلى خاطِرِه كما تَتَسَرَّبُ رائحَةُ الزُّهورِ في نَسائمِ الصَّباحِ تَمُرُّ بَعضُها بِكامِلِ نَصاعَتِها تَتَجَسَّدُ فِيها الأمكِنَةُ وزواياها وألوانُ الثِّيابِ وروائحُ العُطُورِ وتَعبيراتُ الوُجُوهِ ولُغاتُ العُيُونِ وهَمَساتُ المساءِ.

(إيهِ يــا أُمَّ أحمَد يا نَورَسَتيَ النّائِيَةَ، كَم أبعَدَتنِي عَنكِ الأَسفارُ وكَم ألهَبَ الشَّوقُ إليــكِ ضُلُوعِي وأنا أجُوبُ المجاهِــلَ والبِحارَ كالسِّندِبادِ يَحمِلُنــي بِساطُ الرِّيحِ إلى المرافِــئِ النائيَةِ المكتَظَّةِ بالمراكِبِ والبَشَرِ إلا أنَّها خاويةٌ خالِيةٌ أحِسُّ فيها أنّي وَحِيدٌ أتَجَرَّعُ الغُربَةَ وأطارِدُ الأخيلَةَ والأطيافَ كَم أمطَرَ الحَنِينُ إليكِ علَيَّ الحُرُوفَ فَنَظَمتُ فِيكِ القَصائدَ والأشعارَ أنثُرُها بينَ النَّسمــاتِ لَعَلَّها تَحمِلُها إليكِ فَتعُودُ إليَّ بأَخبارِكِ وتُخبِرُني كَيفَ أنتِ..).

الشُّجُــونُ تَعتَمِلُ في صَدرِ علي تَدعُوهُ أن يَقُــولَ بَيتَينِ مِنَ الشِّعرِ لَقد أُولِعَ بالشِّعرِ مُنــذُ أن كانَ يافعاً وَجَدَ فِيهِ مُتَنفَّساً وتَعبِيراً عَن مَشاعِرِه خاصَّةً بَعدَ أن رَثا أخاهُ عيسى بقَصيــدةٍ حَزينةٍ كانت تُبكِي كُلَّ مَن سَمِعَها إذا تَلاها وخَنَقتهُ العَبرَةُ وهوَ يُنشِدُ أبياتَها رغــمَ أنَّهُ كانَ حَدِيثَ عَهدٍ بالشِّعرِ لقَد كانَ لوفــاةِ عِيسى أثَرٌ كَبيرٌ في نَفسِهِ ووَقعٌ مؤلِمٌ على نَفسِيَّتِهِ تَطُوفُ بِهِ ذِكرَياتُهُ كُلَّ حِينٍ كانَ مَحبُوباً مِنَ الجَمِيعِ وخاصَّةً من عَمِّهِ هزيم الــذي كانَ لَهُ اصطبــلٌ للخَيلِ وإن أرادَ عَسفَ خَيلٍ لَم تُعــسَف أوكَلَ أمرَها لِعيسى كانَ شُجاعــاً وذا قَلبٍ جَسورٍ ولكنَّهُ طَيبٌ وحَنُون وفَجَّرَت وفاتُهُ قَرِيحَتَهُ فقالَ فيهِ مَرثِيَّةً

مُحزنَــةً ثُمّ رَثا أخاهُ مُحَمَّــد ورثا أباهُ ولكن بَعدَ مُدَّةٍ طَويلَةٍ مِن وفاتِه بَعد أن أتقَنَ الشِّعرَ يَذكُرُ أنّهُ تَأثَّرَ بِعِدَّةِ شُعَراءَ مِمَّن سبَقُوهُ وقَرأَ لَهُم واستَمعَ إلى قَصائدَ مِنَ المقَرَّبينَ مِنهم على مُستوى الخَليج قَرأَ لابن لُعبون وفهد العسكر وسعيد البديد وصاحَبَهُ وتَبادَلَ مَعُه القَصائِدَ ولمحمّد ابنِ عبدِ الوَهابِ الفَيحاني الذي التَقاهُ في صِباهُ أيامَ الغُوص وسَمعَ مِنــهُ أشعارَهُ المليئةَ بالحُــبِّ والشَّوقِ والمعاناةِ وأسمَعَهُ شِعــرَهُ وزارَهُ في المستَشفى عِندَمــا أصابَهُ المرَضُ الذي أدى إلى وفاتِهِ بالإضافة إلى أنَّ إبراهِيمَ ابنَ أخِيهِ عِيسَى كَثيراً ما قَرَأَ عَلَيهِ قَصائِدَ شُعَراءِ الفُصحَى.

إبراهِيم .. يا لذلِكَ الولَد المتَفَلِّتِ مِن يَدِهِ لَقَد حَاوَلَ كَثِيراً أَن يَضُمَّهُ إليهِ بَعدَ وفاةِ أبيهِ لِيَسُدَّ جُزءاً مِن فَراغِ الوَلَدِ الذي افتَقَدَهُ.

علي : إبراهِيم، أينَ أنتَ ..؟

إبراهِيــم : في دارِ عَمّتِــي أم عبدالله، أقرَأ لَهــا رِوايةً، مُنذُ أن عَميَــت وأنا أقرَأُ لَها الرِّواياتِ وكُتُبَ الأدَبِ.

– وماذا تَقرَأ لَها الآن..؟

– أقرأ لَها رِوايَةً مُترجَمَةً عَنَ الأدَبِ الهِندي.

– هكَذا أَنتَ مُنذُ وَفاةِ أبيكَ وأنتَ في الثَّامِنَةِ مِن عُمرِكَ تُحِبُّ القِراءَةَ.

– بالطّبــعِ يا عَمّي القِراءَةُ تَهَبُ الإنسانَ الحِكمَةَ وتُهــذِبُ رُوحَهُ وأخلاقَهُ وتُكسِبُهُ التّجرِبَــةَ والخبــرَةَ دُونَ أن يَخُوضَها القِراءَةُ مُتعَةُ العُقُولِ الرَّاقِيَــةِ وغِذاءُ الرُّوحِ وسَميرٌ لا يُمَل ما أعذَبَ أن تَغُوصَ في بِحارِ الكُتُبِ وتَستَخرِجَ مِنها الكُنُوزَ والدُّرَرَ وتعيشَ معَ شُخوصٍ رَحَلَت في الزَّمَنِ البَعِيدِ تَستَمِعُ إليها وهي تُحَدِّثُكَ كأنَّها حاضِرَةٌ بينَ يديكَ.

– أتذكُــرُ يا إبراهِيم يَــومَ أن كُنتَ تَقرَأُ لِي المعَلَّقاتِ وأشعــارَ العَربِ لقَد أُعجِبتُ وتَأَثَّــرتُ بِتِلكَ القَصائدِ والحَكايا خاصَّةً المعَلَّقــاتِ وقَصائِدَ المتَنبّي والبُحتري وأبي تَمام. أخبِرنِي هَل قَرَأتَ دِيواني الشِّعري..؟

– نعَم يا عَمّــي قَرَأتُهُ وأعجَبَني فيهِ تَنَــوُّعُ الأغراضِ الشِّعرِيَّةِ فَفِيــهِ المدحُ والرِّثاءُ والــوَصفُ والفَخــرُ والحِكمَةُ والغَزَلُ ولكِــن يا عَمّي لِمَ لا تُحــاول أن تكتُبَ أشعاراً بالفُصحَى..؟

– يا إبراهيم الشِّعرُ العامِّيُّ هُو المطلُوبُ في هذا المجتَمَع.

– سَمِعتُــكَ تَقُولُها عِندَما كُنــتُ أُشاهِدُ لِقاءً لَكَ في التلفزيــونِ معَ الشاعر حَمَد مِحــسن النّعيمي قُل لي يا عَمِّي ما الذي تَنويهِ بعدَ هذا الدّيوان..؟ هَل تَنوِي إصدارَ دِيوانٍ آخَرَ.

– لا أعتَقِــدُ يا إبراهيم ما الشِّعرُ بالنِّسبةِ لي إلّا هِوايةً أُرَفِّهُ بِها عَن نَفسِي في أوقاتِ فَراغِي الشِّعــرُ كَلامٌ نَظَرِيٌّ مُرَتَّبٌ صَحِيــحٌ أنّهُ يَحمِلُ الحِكمَةَ ويَزخَــرُ بِجَمالِ اللّفظِ والمعنى ويُصَوّرُ عَواطفَ الشّاعِرِ وتَجارِبَهُ ويَستَفِيدُ مِنها قُرّاؤهُ ومُتابِعُوهُ لكنَّهُ يَظَلُّ نَظَرِياً إذا كانَ حَبِيــسَ الأوراقِ ولَــم يُطبَّق عَمَلِياً البَحرُ يا إبراهِيم البَحــرُ هُوَ هِوايَتيَ العَمَلِيَّةُ الأولى والمفَضَّلَةُ إنَّهُ الرِّزقُ والمغامَرَةُ والمتعَةُ كم هُو جَمِيلٌ أن تَكُونَ في قارِبٍ يَمخرُ بِكَ عُبابَ البَحرِ وأنتَ تَجلِسُ على إحدى حافّتَيهِ وتُدَلِّي رِجلَكَ خارِجَ القارِبِ والهَواءُ المنعِشُ يَتدَفَّقُ على وَجهِكَ ويُبَعثِرُ شَعرَكَ والأسماكُ يَنُطُّ بَعضُها مِنَ الماءِ لِيَطِيرَ عِدّةَ أمتارٍ قُربَكَ وكأنَّها مَعكَ في سِباقٍ وبِساطُ البَحرِ الأزرقُ يَمتَدُّ أمامَكَ تَلُوحُ لكَ فيهِ مِن

بَعيد أشرِعَةٌ صَغِيــرَةٌ لبُعدِها كأنّها أمنِياتٌ بِيضٌ تَدعُوكَ إلى تَحقِيقِها أو كأنّها أيقُوناتٌ تُخبرُ بِما تَحتَها مِن كُنُوزِ اللُّؤلؤِ والصّيدِ الثّمِين.

– لا شَكّ أنّ لَكَ مَعَ البَحرِ حِكاياتٍ مُمتِعَةً يا عمّي.

– كَثِيرَةٌ هيَ حِكاياتي مَعَ البَحرِ ولكِن وقَبلَ أن أحكي لَكَ بَعضَها قُل لِي أنتَ عَن حَياتِكَ بَعدَ أن تَزَوّجتَ ابنَةَ عَمِّكَ محمّد الصَّغِيرَةَ.

– صَدَقتَ يا عَمّــي تَزَوّجتُها صَغِيرَةً إلى دَرَجَةِ أنّها كانَــت تَترُكُني وتَذهَبُ للَّعِبِ مَــعَ الفَتَياتِ لُعبَةَ نَطِّ الحَبلِ أو لُعبَةَ العَرائِسِ وكانَت هيَ عَرُوسِيَ الجَمِيلَةَ أمّا أنا فَكانَ لا بُدَّ لي أن أجِدَ وَظِيفَةً تُعِينُني على تَحَمُّلِ أعباءَ الأُسرَةِ فتَعَلَّمتُ الإنجليزيّةَ وأجَدتُها وعَمِلتُ في قسمِ التّرجَمَةِ بدارِ الحُكُومَةِ وتَيَسَّرَت أُموري والحمدُ للهِ بَعدَ أن امتَلَكتُ مَنزِلاً وأنجَبَت لِي أُمُّ مُحَمَّد ثَلاثَةَ أولادٍ وثلاثَ بَناتٍ.

– الحَمدُ للهِ.

– والآنَ قُل لي يا عَمّي قِصَصَ البَحرِ وحِكاياتِهِ.

– عِندَمــا تُوفّــيَ أبُوكَ عِيسى وبَعدَهُ عَمُّــكَ محمّد وَجَدتُ أنّنــي أمتَلِكُ سَفِينَتيَ الخــاصَّةَ فَعَمِلتُ طَوّاشاً أتاجِرُ في اللّؤلُؤِ أبِيعُ وأشتَري ثُمَّ قَرّرتُ أن أتوجّهَ إلى الغَوص بِما لدَيَّ مِن مالٍ حتى أجلِبَ أنــا اللُّؤلُؤَ لا أن أشتَرِيهِ وأبِيعَهُ وتَحضيراً للمَوسِمِ بَدأتُ أجمعُ الرّجالَ وأهيِّءُ لَهم زادَ السّفَرِ وأُعطِيهِم التِّسقامَ.

– وما التِّسقامُ يا عَمّي..؟

– التّسقامُ هُو السُّلفَةُ التي يُعطِيها النُّوخذة للبَحارَةِ قبلَ دُخولِ الغُوص ثمَّ يَستَرِدُّها

بَعــدَهُ وكانَ مَرزوقُ عَضُدِي فــي كُلّ ذلكَ إن أرسَلتُهُ إلى مهمَّةٍ قامَ بأدائِها على أكمَلِ وَجه ومَرزُوقُ كانَ مَملُوكاً عندَ والِدِي إلّا أنهُ حُرٌّ.

– مَملُوكٌ وحُر كَيفَ ذلكَ..؟

– لقَــد كانَت هنــاكَ حَملَةٌ قَويّــةٌ مِن حُكوماتِ الخَليــجِ لِتَحريرِ الرَّقيــقِ يَشتَرونَ المستَعبَدِيــنَ ويُحَرّرونَهــم إلّا أنَّ مَرزُوق بَعــدَ تَحريرِهِ عادَ إلينا وفَــضَّلَ العَيشَ مَعَنا ومُساعَدَتَنا لأنَّ أباهُ كانَ مملُــوكاً لِوالِدي وعاشَ مَعَنا مُنذُ ولادَتِهِ هُوَ وأُختُهُ كانَ رَجلاً شَهمــاً وقَد دَخلَ مَعي في موسمِ الغُوصِ وكانَ يَديَ اليُمنى فَجَعَلتُهُ (مجَدّمي) أو ما يُسَمَّى رَئيسَ البحَّارَةِ في تلكَ الرّحلَة.

– لا شَكَّ أنَّها كانَت رِحلَةً مُربِحَةً..!.

– كانت مربِحَةً ولكنَّها كانَت رِحلَةً مُتعِبَةً ومُحزِنَةً أيضاً.

– وكيف ذلك..؟

– قَبلَ السّفَرِ إلى الغُوصِ بعِــدةِ أيامِ داخَلَني إحساسٌ بالانقِباضِ وراوَدَتني أفكارٌ مَشؤُومَةٌ ناهِيكَ عَن بُكاءِ أمِّ أحمَد مُنذُ عِلمِها بأنّي سَأذهَبُ إلى الغُوصِ وأنِّي سَأترُكُها لعــدَّةِ أشهر مَعَ طِفلَتِنــا الصّغيرةِ الأولى والتي لَم تُكمِل الثَّــلاثَ سَنواتٍ مِن عُمرِها كانَــت أمُّ أحمد تَبكِي بِحُرقَةٍ مُنــذُ أن عَرَفَت حَتى يَومِ السّفرِ وكِدتُ أن ألغِي بِسَبَبِها الرّحلَــةَ بأكمَلِها في تِلكَ الأيامِ لَم يكُن نَومِي مُريحاً وكانت الأفكارُ والهَواجِسُ تَلعَبُ بي خاصَّةً وأنَّها المرَّةُ الأولى لي في مجال الغوص.

أمــا يَومُ الدّشّةِ وهكذا كُنّــا نَسمّي أوَّلَ يَومٍ من أيام الغــوصِ فَقَد كانَ يَوماً حافِلاً تَصاعَــدَت فيهِ الأهازيجُ فَرَحاً وانهَمَــرَت فِيهِ الدُّمُوعُ حُزناً بَينَ مُستبــشرٍ بالمستَقبَلِ الجَميلِ ونائحٍ على ما سَيَلقى في البُعدِ الطّويلِ نَعم إنَّهُ بُعدٌ طَويل إنّهُ رِحلَةٌ إلى مَجاهِلَ بَعيــدَةٍ لأربَعَةِ أشهرٍ لا تَرى فيها إلّا اللُّجَجَ الداكِنَةَ ولا تَملِكُ فيها أيةَ وسيلَةٍ للاتصالِ بالأهلِ والأحبَّة.

في الصَباحِ الباكِرِ مِن ذلكَ اليومِ تَجَمهَرَ النّاسُ عِندَ الشاطئِ النّساءُ كُنّ يتَجمَّعنَ عِنــدَ جِدارِ أقرَبِ بَيتٍ للمَركبِ الذي سَيَحمِلُ أزواجَهُنَّ أو أقرباءَهُنَّ ويُراقِبنَ الرّجالَ وهُم في حرَكَةٍ دَؤوبٍ بَينَ السُّفُنِ والشَّاطئِ والفَتياتُ الصَّغيراتُ قُربَهُنّ يَلبَسنَ البَخانِقَ ويَلعَبــنَ لُعبةَ دَسِّ الخَرَزاتِ في الرَّملِ أو يَقُمــنَ بالاصطِفافِ صُفُوفاً يَحدِينَ بالرَّقصةِ الشَّعبيةِ (المــراداةِ) لاهِياتٍ عمّا تُخَبئهُ لَهُنَّ يَدُ الزَّمــن والصِّبيَةُ يَجرُونَ ويَتسابَقونَ علــى الشّاطِئ وبَعضُهُم يَخوضُ في البَحرِ مُستَمتِعــاً بتحريكِ رِجلَيهِ في الماءِ يَعبَثُونَ بأطرافِ ذلكَ المارِدِ العَظيم ومويجاتِهِ الصَّغيرةِ على الشَّاطِئِ غائبةٌ عَنهُم أمهاتُها التي كالجبالِ في أعالي البِحارِ أما الرّجالُ فكانُوا في شُغلٍ شاغِلٍ بِتَجهيزِ مَراكِبِهِم يَتَعاوَنُونَ في نَقلِ أمتِعَتِهِم إلى السّفُــنِ وبَعضُهُم فوقَ تِلكَ المراكِبِ يُرتبُونَها ويُهيّئونَها للإبحارِ يَتأكدّونَ مِن حِبالِها وأشرِعَتِها ومَؤونَتِها ويَستَلِمُونَ مِنَ البَحارَةِ الأمتِعَةَ أمَّا رَبابنَةُ السُّفُنِ (النّواخذة) فمُجتَمِعُونَ في بَراحَةٍ قُربَ الشَّاطــئِ يتناولُونَ القَهوَةَ والشَّايَ ويُشرِفونَ علــى ما يَقُومُ بهِ بَحّارتُهُم مِن تَجهِيــزٍ للسُّفُنِ وينتَظِرونَ إعلانَ بَــدءِ الموسِمِ مِن قِبَلِ (السّردالِ).

إبراهيم : ومَن هُو السّردالُ يا عمّي..؟

- السّردالُ هُوَ أقــدَمُ النَّواخِذَةِ أو هُو الرّبانُ الأكثرُ خِبرَةً بالبَحرِ والعارِفُ بالمناطِقِ التي يَكثُرُ فيها المحارُ والمناطِقِ القاحِلَةِ مِنهُ والمناطِقِ الخَطِرَةِ أي هو قائدُهُم ودَليلُهُم حَيثُ أنَّهُ إذا انتَقَلَ مِن مَنطِقَةٍ في البَحرِ إلى أُخرَى انتَقَلَت كُلُّ السُّفُنِ وَراءَهُ ولا تَتَقَدَّمُهُ أيَّةُ سَفِينَةٍ ويَتِمُّ تعيينُهُ مِن قِبَلِ الحُكومَةِ لِيَقُودَ مَوسِمَ الغُوصِ.

- وما دَخلُ الحُكُومَةِ في ذلكَ يا عَمي..؟

- الحكُومَةُ تَقُــومُ بِحِمايَةِ سُفُنِ الغَوصِ التَّابعَةِ لِمُواطِنِيهــا وتُخَصِّصُ سُفُناً مُؤهلَةً لِذلــكَ مهمَّتُها الطّوافُ علــى المراكِبِ حِمايَةً لَهُم مِنَ القَراصِنَــةِ واللّصُوصِ وحتّى لا تَنشَأ حَــزازاتٌ وضَغينَةٌ بينَ النّواخذَةِ فَقَد تُرِكَ لَهُــمُ الأمرُ في تَرشِيحِ (السِّرْدالِ) إرضاءً لَهم ثُمَّ تُعَيِّنُهُ الحُكومَةُ أميراً لِمَوسِمِ الغُوصِ وقائِداً (للسِّنيارِ) وهوَ قافِلَةُ السُّفُنِ ولا تَقتَــصِرُ مهَمَّــةُ السِّردالِ على إعلانِ مَــوسِمِ الغَوصِ وقيادَةِ السِّنيــارِ بَل إنَّهُ يَقُومُ بِفَضِّ المنازَعاتِ التي تَحدُثُ وأكثَرُها تَحدُثُ بَينَ أصحابِ مَراكِبِ الغَوصِ ومَراكِبِ الطَّواشِينَ ومُعظَمُها مُشكِلاتٌ بَسِيطَةٌ وكانَ السِّردالُ يَخرُجُ مع سُفنِ الغوص في يومِ الدَّشّة ولكنهُ يعُودُ بعدَها بِيــومٍ أو يومين إلى القريةِ ويبعَثُ مناديبَهُ بينَ الفينَةِ والفَينَةِ إلى أربابِ سفُنِ الغوص للاطلاعِ على أحوالِهم أو إبلاغِهم بأي أمر فَهو يملكُ العديدَ من السُّفنِ والقَوارب.

كانَ الطَّقسُ جَميلاً في ذلِكَ اليَومِ ونَسَمــاتُ نِهايَةِ نيسانَ الآذِنَةُ بِدُخُولِ الصَّيفِ تَهُــبُّ بِلُطفٍ وتُحرِّكُ فــي دَعَةٍ الأعــلامَ والأشرعَةَ والثّيابَ، وخَواطِــرُ الغِياب تَعبَثُ بالقُلُــوبِ والألبابِ وبَعضُ النَّهامِيــنَ بَدَأوا يُطلِقُــونَ نَغَماتِ الهُولُو لِتَحفيــزِ البَحّارَةِ وتَوحِيــدِ حَرَكَتِهِم لِجَرِّ حِبالِ الأشرِعَةِ ورَفعِهــا إيذاناً بالإبحارِ ونَغَماتُهُم تَحملُ مَشاعِرَ

الــوَداعِ وكلماتِ الألَمِ والأمَلِ تَرحَلُ بِها هَبّاتُ النَّسيمِ وتُرَدِّدُها مَوجاتُ البَحرِ الهادِئةُ المتكَــسِّرَةُ على الشّاطِئِ وتُبَعثِرُها في الفَضاءِ الفَسِيحِ وطُيُورُ البَحرِ تَحُومُ جَذلى عَلى ذلكَ المشهَدِ البَديعِ.

– وهَل وُجُودُ النَّهامِ على السَّفِينَةِ أمرٌ ضَرُوريٌ..؟

– بالطّبــعِ إنَّ النَّهامَ عُنصُرٌ هامٌ مِن عناصِرِ طاقمِ الغــوصِ فهُوَ يُوَحِّدُ حرَكَةَ البَحارَةِ بأنغامِ (الهُولو) في رَفعِ الأشرِعَةِ وبأنغامِ (اليامال) عِندَ جَرِّ المجادِيفِ ورَفعِ المرساةِ كَما أنَّهُ يُرَفِّهُ عَنهُم بأناشِيدِهِ الشّجِيَّةِ وإيقاعاتِهِ بِأنواعِ الفُنونِ الفُولكلوريةِ مثل (لفجري) وغيــرِهِ منَ الفنون الغنائيــةِ الشَّعبِيَّةِ في أوقــاتِ فَراغِهِم، والتَّعاقدُ مــعَ النَّهامِ يشمَلُ الأشخــاصَ الذيــنَ يَجلِبُهُم مَعَهُ لِلمُحافَظَــةِ على الإيقاعاتِ وعادَةً مــا يَكُونُونَ ثَلاثَةً أو أربَعَةً ورُبَّما أكثَر في السُّفُنِ الكَبيرَةِ كما أنَّ البحارَةَ كثيراً ما يُشارِكونَ بالضَّربِ على آلاتِ الإيقاعِ والرَّدِّ في الأغاني.

إبراهيم : وكَيفَ كانَت الرّحلَةُ..؟

– قَبــلَ الإبحارِ وَقَفتُ أمَامَها والتَقَت نَظَراتُنا نَظرَةَ الــوَداعِ كانَت عَيناها مُغرَورِقَتانِ بالدُّمُــوعِ تَنظُرُ إليَّ بِنَظرَةٍ لَم أعهَدها مِنها فعلــى الرَّغمِ مِن ارتيادي البَحرَ كثيراً عِندَما كُنــتُ أعملُ في الطّــواشة إلّا أنَّ مجالَ الغُوص يَختَلفُ في أبعــادِهِ الزَّمَنِيَّة فرحلاتُ الطَّواشِ مُتَعَدِّدَةٌ بينَ البحرِ والقَريَةِ لإعادَةِ تَموينِ مَركَبِهِ والعَودَةِ إلى البَحر يعُودُ لأهلِهِ وأحِبَّتِــهِ فَيُطفِئُ لَهيبَ الشَّوقِ قَبلَ أن يتحــولَ جَمراً يَكوي الجفونَ بالدُّموعِ حتّى إذا اطمأنَّت نُفُوسُهم وأفئِدتُهم عادَ إلى البَحرِ وخَيراتِهِ.

والغَــوصُ إضافَــةً إلى ما فيهِ مِــن بُعدٍ زَمَنيٍّ طَويــلٍ فإنَّ فيهِ المواجَهــةَ المباشِرَة والــشَّرِسَةَ معَ البَحرِ وأعماقِهِ وأمواجِهِ، كانَــت نَظرَاتُها تُفصِحُ بأنَّها تَعلَمُ ذلكَ وتَعلَمُ أنَّ هذهِ المرَّةَ سَتَزدادُ مساحَةُ البُعدِ الزمَنيَّةِ وسيزدادُ مَعها الحَنينُ والأرَقُ والانتِظار كانَت نَظراتُها تَبُوحُ بِكلِّ ما يَعتَلجُ في خاطِرِها مِن شُعُورٍ بالخَوفِ مِنَ المجهول قالَت بِصَوتٍ مُتَهَدِّج :

– لا تَرحَل .. وإن رَحلتَ عُد سالِماً ودَّعتُكَ اللهَ الذي لا تَضِيعُ ودائِعُهُ.

مَسَحتُ دُمُوعَها وقُلتُ لَها :

– لا تَحزَني يا أُمَّ أحمَــد الفَرْحُ قادِمٌ إن شَاءَ اللهُ سأحاولُ أن أعودَ خلالَ المَوسِم، اعتَني بِنَفسِكِ وبابنَتِنا الصَّغِيرَةِ.

وَدَّعتُها عِندَمــا سَمِعتُ صَوتَ السِّردالِ يَعلُو آذِناً بالإبحــارِ وأصواتَ الرِّجالِ وهُم يُنادُونَني :

– هيّا يا سَيِّد علي.

وبِــصَوتِ السِّردالِ أمِيرِ البَحرِ بَــدَأَت الأشرِعَةُ تَرتَفِعُ شَيئــاً فَشَيئاً على الصَّوارِي وتَنتَشِرُ في الهَواءِ مَشطُونَةً بالحِبالِ بأيدِي البَحارَةِ وهُم يَسحَبُونَها تَتَوَحَدُ حَرَكَةُ أيدِيهِم على إيقاعاتِ أهازيجِ النَّهامِينَ وعلــى أُغنياتِهِمُ التي تَتَشبَّعُ بِها هَبّاتُ النَّسِيم وتُذِيبُها فــي الفَضاءِ البَعِيدِ ورائِحَةُ البَحرِ عَجِيبَةٌ إنّها رائحَةٌ مُمَيَّزَةٌ عِندَ استِنشاقِها تَبعَثُ شُعُوراً بالامتِــلاءِ تَبعَثُ إحــساساً بِسَعَةِ البَحــرِ المترامِيَةِ الأطرافِ التي تَنــامُ خَلفَها الجزُرُ المهجُورَةُ والمرافِئُ البَعِيدَةُ وتَبعَثُ الإحــساسَ بِعُمقِ البَحرِ وظُلُماتِ لُجَجِهِ الدّاكِنَةِ

وما في قِيعانِها مِن دُرَرٍ ولآلئَ وتَعُودُ تَمزِجُ تِلكَ الأحاسِيسَ بِشُعُورِ الرَّهبَةِ والخَوفِ مِن ثَورَتِهِ وبَطشِ رِياحِهِ وأمواجِهِ وما يَجُوبُ أعماقَهَ مِن كواسِرَ مُتَعَطِّشَةٍ للَّحمِ والدَّمِ.

أبحَــرَ السِّنيارُ مَعَ تَلويحاتِ الوَداعِ كانَــت المراكِبُ الخَشَبيَّةُ تَتَمايَلُ على الأمواجِ الهادئةِ يَميناً وشِمالاً وكَأنَّها ثَملَةٌ تَترَنَّحُ والأشرِعَةُ يَملؤها الهَواءُ كأنَّها رِئاتٌ لا تَعرِفُ إلّا الشَّهيقَ والنّهّامُ يَصدَحُ بِصَوتٍ شَجِيٍّ وحَولَهُ البَحارَةُ يُصَفِّقُونَ بإيقاعٍ مُتقَنٍ كُلَّما أنهى فَقرَةً مِن غنائِهِ والشَّاطِئُ يَبتَعِدُ وتَخبُو مَلامِحُهُ شَيئاً فَشَيئاً.

كانَت سَفِينَتِي كَباقِــي السُّفُنِ تعُجُّ بالحرَكَة وكانَ عَددُنا في السَّفِينَةِ قَلِيلاً بالنِّسبَةِ لسَفينَــةٍ كسَفينَتي أنا وثَلاثُونَ بَحَّاراً عَشرَةُ غاصَةٍ وعَــشرَةُ سُيُوبٍ ومجَدّمي وهو قائدُ البَحّارةِ ومساعِدُ النُّوخذة وسكُونِي وهو الذي يتسَلمُ دَفَّةَ السَّفينةِ ويَتلقى التَّوجيهاتِ مِــنَ النُّوخذة وطبّــاخُ ونهّامٌ معَهُ ثلاثة واحِــدٌ للطَّبلِ وواحِدٌ للطَّــارِ وواحِدٌ للمِرواسِ (طبلٌ صَغيرٌ) ومشرفانِ للحِبالِ والأشرِعَةِ والمرساةِ وشَعبانُ القَلّافُ، كانَ مَكاني في (الفَنّــة) وهو الجانِبُ الخَلفِيُّ مِنَ السَّفينةِ والمكانُ المخصَّصُ لِلنُّوخذَة فهوَ الأوسَعُ وفي مُنتَصَفِهِ توجَدُ (الكانة) وهي المقوَدُ الذي يُوجِّهُ السَّفِينَةَ ويَجلسُ قُربَهُ السّكُونيُّ الذي يَتَحَكَّمُ بالدَّفَّةِ.

فــي الطَّريقِ إلى المغاصاتِ أردتُ أن أجلسَ مَعَ البحــارَةِ كُلاً على حِدَةٍ لأتَعَرَّفَ علــى شَخصِيّاتِهم ولأقتَرِبَ مِنهُم أكثَرَ وبَدأتُ بِمَــرزوق رغمَ أنَّهُ يَعِيشُ مَعَنا هوَ وأختُهُ أمُّ سالِــم وأراهُما كُلَّ يومٍ تَقرِيباً ولكــن لا أعلَمُ عَن مرزوق إن كانَ يُحسِنُ الغَوصَ أم لا فناديتُهُ :

– يا بُو سالمين.

إبراهِيم : هل هذا اسمُ جَدِيدٌ لِمَرزُوق..؟

– لا، كانَ أبُــو مرزُوق اسمُهُ سالِم وسالمين هـوَ اسمُ المجامَلَةِ لِسالِم، ومَرزُوقُ لَم يُنجب فَهوَ يُكنى باسمِ أبيهِ.

مرزوق : نَعَم يا عمّي.

– هل دَخَلتَ الغُوصَ مِن قَبل..؟

– لا يا عمِّي..وأنتَ تَعلَم أنّي خَدَمتُ والدَكَ وأخَوَيكَ مُحَمّد وعيسَى يرحمهمُ اللهُ ولكِن في الطَّواشَةِ ولَيسَ في الغَوصِ وأنا على استِعدادٍ لأن أغُوصَ إنْ أمرتَني.

– نَحــنُ فِعلاً نَحتاجُ إلى غيص فطاقَــمُ الغَواصِينَ لَدَينا قَلِيــلٌ ولكِن الأفضَل أن تَجلِسَ مَعَ فَرَج لِيَشرحَ لكَ الطَّرِيقَةَ الصَّحِيحَةَ لـ (التَّبّة).

إبراهِيم : وما هي التَّبَّةُ يا عَمّي..؟

– التَّبَّةُ هِي المرَّةُ الواحِدَةُ مِنَ الغَطسِ.

– ثُمَّ ماذا..؟

بَعدَ مَــرزُوق جَلَستُ مَعَ البَحَّارَةِ واحداً واحِداً أسألُهُم عَــن إلمامِهِم بالعَمَلِ وأقرَأُ شَخصِيّاتِهم مِن خِلالِ الحِوارِ مَعَهُم وأناقِشُ معَ بعضِهِم جَوانِبَ مِن حَياتِهِم الشَّخصِيَّةِ مُحاوِلاً مُعالجَةَ مُشكِلاتِ بَعضِهِم وتَقدِيمَ النّصائح لَهُم في العَمَلِ وفي الحَياةِ خاصَّةً الشَّبــابَ مِنهُــم، إنَّ إدارَةَ مَجمُوعَةٍ مُكَوَّنَةٍ مِن ثَلاثِينَ شَخــصاً سَيَعِيشُونَ أشهُراً على ظَهرِ سَفِينَةٍ بالكادِ تَسَعُهُم أمرٌ يَتَطَلَّبُ الحِكمَةَ والحَزمَ وحُسنَ التَّصَرُّفِ وأيضاً يَتَطَلَّبُ

التّمــازُجَ النَّفسيَّ بينَ أفرادِها والغَوصَ أكثَرَ فــي نَفسياتِهم ومعرِفةَ أمزِجَتِهم ليسَ مِن قِبَلِي كقائدٍ لِهم فَحسب بَل أيضاً بينَ بعضِهم البَعض إنَّ العَملَ المشترَكَ بينَهم كَفيلٌ بِذلك وخاصَّةً بينَ الغاصةِ والسُّيوبِ الذين يعملَونَ طوالَ النَّهارِ معَ بَعضِهم في تَناغُمٍ لا يَخلُو مِنَ المزاحِ والجدالِ والعِتابِ ومعَ البَحارَةِ الآخرينَ في أكلِهم وشُربِهم ونَومِهم واستِراحَتِهم فتِلــكَ الحِواراتُ والتَّصرّفــاتُ تُطلِعُهم أكثرَ علــى شَخصياتِ بَعضِهم البَعــضَ وتُقَرِّبُ بَينَهم إلّا أنَّ الحَديثَ مَعَهم بِــذاتِ الهَدَفِ يُعطِي تَفاصيلَ أكثرَ عن شَخصياتِهم ونَفسياتِهم.

مِن بَيــنِ الذِينَ تَحدَّثتُ مَعَهُم اثنانِ قالا كَلاماً مُؤثِّراً هُما السَّيبُ سالِم والسُّكُونِيُّ حامِد أما سالِمُ فسَألتُهُ :

- كَم مَضى عليكَ وأنتَ في هذهِ المهنَةِ..؟

- ثَلاثُ سِنينَ.

- وماذا كنتَ تَعمَلُ قَبلها..؟

- كانَ أبي يَعمَلُ سَيباً مَعَ نوخذا يُدعى مبارَك الأعرج.

- أعرِفُه.. لَقَد تَرَكَ الغَوصَ مُنذُ مُدَّةٍ طَويلَةٍ.

- نَعم يا عَمِّ علي عِندَما كُنتُ في السابِعَةِ مِن عُمري كانَ أبي يأخُذُني مَعَهُ لأَعمَلَ رَضِيفاً (رَدِيفاً) أساعِدُ البَحّــارَةَ وأصبُّ الشّايَ والقَهوَةَ مُقابِلَ مَبلَغٍ مِنَ المالِ فَكُنتُ أقضِي الوَقتَ في السَّفِينَةِ قُربَ أبِي أتَعَلَّمُ مُنهُ صَنعَتَهُ.

- مهنَةُ السَّيبِ مِهنَةٌ شاقَّةٌ تَتَطلبُ التَّركِيزَ والانتِباهَ.

– نعــم، لقَــد تَعلَّمتُ أنَّ السّيبَ يَجــبُ أن يكُونَ دَقِيقَ الملاحَظَــةِ سَرِيعَ البَديهَةِ قَويَّ البُنيَةِ فَهــوَ مَسؤولٌ عَن حَياةِ الغيصِ فالغيصُ في قاعِ البَحرِ قَد يَبتَعِدُ وهوَ يَجمَعُ المحَّارَ فإذا انتَهَت قُدرَتُهُ على كَتــمِ نَفَسِهِ جَرَّ الحَبلَ إشارَةً للسَّيبِ أن يَسحَبَهُ لِذلكَ يَجِــبُ على السَّيبِ أن يُقَدِّرَ العُمقَ وطُولَ الحَبلِ وأن يَكُونَ الحَبلُ مَشدُوداً بَينَهُ وبَينَ الغَيصِ فإذا كانَ الحَبلُ مُرتَخِيــاً أَو لَم يَسحَبِ السَّيبُ الغَيصَ بالسُّرعَةِ المطلُوبَةِ فقَد تَتَعَرَّضُ حَياةُ الغَيصِ للخَطَرِ.

– ما شاءَ اللهُ عَليكَ.. وهَل عَمِلتَ سَيباً مَعَ مُبارَك الأعرَج..؟

– نَعَم، ثَــلاثَ سنِين في السَّنَةِ الأولى عَملتُ مَعهُ أنــا وأبي وقد كُنتُ صَغيراً في الخامِسَةَ عشرَةَ مِن عُمري وقبلَ مَوسِمِ الغُوصِ في السَّنَةِ التي تَليها تُوفّيَ أبي يَرحمهُ اللهُ بالطاعُونِ في سَنَةَ الرَّحمَة.

– فِعلاً يا سالِم في سَنَةُ الرَّحمَةِ أهلَكَ الطَّاعُونُ فيها خَلقاً كَثيراً.

إبراهيــم : نَعَم يا عمّي علي لَقَد سَمِعتُكُم تَتَحدَّثــونَ عَنها فقَرَأتُ عَنها في الكُتُبِ فَوَجَدتُ أنَّ سَنَةَ الرَّحمَــةِ حَدَثَت عامَ ١٩١٨م عندَما انتهَت الحَربُ العالَمِيَّةُ الأولى أي قَبلَ ولادَتِي بعَشرِ سِنين وكانَ طاعُونُها يُسَمّى الحُمّى الأسبانِيَّةَ.

– بالفِعــلِ، فَفي تِلكَ السَّنَةِ أُغلِقَت بُيوتٌ بأكمَلِها لِمَوتِ كُلِّ مَن فِيها بِسَبَبِ ذلكَ الطَّاعُونِ.

قالَ سالم :

– تُوُفِّــيَ أبي مُلقِياً عليَّ عِبءَ إعالَةِ والِدَتِي المرِيضَةِ وأُختَينِ الكُبرى مِنهُما مُعوَّقَةٌ

وأخٍ فــي الخامِسَةِ مِن عُمرِهِ كانَت في الدّارِ زاوِيَةٌ صَغِيرَةٌ لأبي فيها حَصِيرٌ عَليهِ مَرتَبَةٌ مِــنَ القُطنِ ومسنَــدٌ بالقُربِ مِنهُ وفي الزاوِيَــةِ تَماماً صُندوقٌ خَشَبِــيٌّ فَوقَهُ مُصحَفٌ وسجّــادَةُ صَلاةٍ بَعــدَ وفاتِهِ فتَحنا الصُّنــدُوقَ فَوَجَدنا فيهِ مَبلَغاً مِنَ المــالِ وعَدَداً مِنَ الخَواتِــمِ الرِّجاليَّةِ ودَفتَراً دَوَّنَ فيهِ مَديُونياتِهِ حَزنَت أمّي كَثيراً على فَقدِ أبي وطلَبَت أن نَأخُذَ المالَ فَقَط ونَترُكَ كُلَّ شَيءٍ في مَكانِهِ.

تَــرَكَ أبي أيضاً قارِباً خَشَبِياً صَغيراً بَــدَأتُ بِهِ رِحلَتي في البَحثِ عَن مَصدَرٍ للرِّزقِ لإعــاشةِ عائلَتِي فكُنتُ أُبحِرُ فيهِ لصَيدِ السَّمَكِ وبَيعِــهِ في غَيرِ مواسِمِ الغُوصِ إلّا أنَّ مِهنَتِي ومهنَةَ والِدِي كانَت تَشُدُّني فعَمِلتُ سَيباً في سفِينَة مبارَك الأعرَج الذي تَوَقَّفَ عَــن دُخُولِ الغَوصِ وأوكَلَ المهمَّةَ لابنِهِ زَيــد وبَعدَ خَمسِ سَنواتٍ تَوَقَّفَ زيدٌ فعُدتُ لصَيــدِ السَّمَكِ وبيعِهِ إلى أن التَقَيــتُ بِمَرزُوق وها أنا ذا يا عمّــي علي أعمَلُ تَحتَ إمرَتِكُم.

- هل أنتَ مُتَزَوِّج..؟

- لا يا عمّي، لقَد فاتَحَتنــي والِدَتي عِدَّةَ مراتٍ في موضوعِ الزَّواجِ إلّا أنّني أؤَجّلُ مــوضُوعَ الزَّواجِ حتّى يكبُرَ أخي ويكونَ مُعيناً لي على القِيــامِ بأعباءِ والِدَتي وأُختَيَّ خاصَّةً المعَوَّقةَ وأظنُّ أنّهُ أصبَحَ كذلك الآنَ وأنَّ والِدتي تُخبئُ لي مُفاجأةَ الزَّواجِ بعدَ انتِهاءِ هذا المَوسِمِ.

إبراهِيم : ياللهُ مِن رَجُلٍ مُكافحٍ.

- يا إبراهِيم، هكذا كانَ مُعظَمُ الشَّبابِ في ذلكَ الوقتِ لَدَيهم إحساسٌ بالمسؤوليَّةِ يُعِينُونَ آباءَهُم على أعباءِ الحَياةِ ويَمتَثِلُونَ لأوامِرِهم وتَوجِيهاتِهِم.

– وماذا عَن الرَّجُلِ الثَّاني السُّكُونيّ..؟

– حامِــد، نَعَم تَحَدَّثتُ مَعَهُ حيثُ كانَ مقعَــدُهُ بِقُربي فمقودُ السَّفينَةِ بيدِه ولكنَّني أمَرتُ مرزوق أن يستَلِمَ قِيادَةَ السَّفينَةِ مِنهُ لِيَتَفَرَّغَ للحَديثِ مَعي فسَألتُهُ عَن خِبرَتِهِ في مَجالِ تَوجيهِ السُّفُنِ فقالَ :

– مُنــذُ خَمــسِ سَنَواتٍ وأنــا أعملُ (سُكُونــي) أميراً على الدَّفَّــةِ والتَّوجيهِ في سُفُنِ الغَوصِ.

– وكَيفَ تَعَلَّمتَ ذلك..؟

– أحبَبــتُ البَحرَ مُنذُ نُعُومَةِ أظفارِي فَفي الخامِسَةِ مِن عُمري أدخَلَني أبي الكُتّابَ وحَفِظــتُ القُرآنَ وتَعلَّمتُ القِراءَةَ والكِتابَةَ وعَمِلتُ فَترَةً لدى الشَّيخِ صاحِبِ الكُتّابِ الــذي تَعلَّمتُ فيهِ أن أخُطَّ نُسَخَ القُــرآنِ الكَريمِ التي يطلُبُها مِنهُ زبائنُه بَعدَها كانَ أبي يأخُذُنــي مَعَهُ في رَحلاتِهِ البَحرِيَّةِ فَقَــد كانَ أبي طَوّاشاً ولَدَيهِ بانُوشٌ (نوعٌ مِنَ السُّفُنِ الخَشبيــةِ) وتَعَلَّمتُ مِنهُ الكثِيرَ مِن عُلومِ البَحرِ في بَحــرِ الخَليجِ وبَحرِ عُمان وعَرَفتُ المسالِكَ البَحرِيَّةَ والمغاصاتِ حَيثُ كُنَّا نَقــصِدُ سُفُنَ الغَوّاصِينَ نَنقُلُ لَهُمُ البَضائِعَ والماءَ والزّادَ ونَشتَري ونَبيعُ مِنهُم ولَهُــم اللُّؤلُؤَ وعَرَفتُ المرافِئَ والجُزُرَ والبَنادِرَ حَتّى أنَّ أبي كانَ يَعتَمِدُ عَليَّ في بَعضِ المرَّاتِ ويُرسِلُني نُوخذَة ومَعي بَعضُ البَحَّارَةِ وجَمَعَ أبي بِفَضلِ اللهِ مالاً وَفيراً مِن وراءِ هذهِ المهنَةِ وعندَما كُنتُ في الثَّامِنَةَ عَشرَةَ تُوفِّيَ أبي فَــسارَعَ خالِي إلى أمّي يطلُبُ مِنها أن تَبيعَهُ البانُوشَ مُتَعَلِّلاً بأنّي صَغيرٌ وقَد أخسَرُ في عَمَلياتِ بَيعِ وشِراءِ اللّؤلُؤِ فرَفَضَت.

كانَ منــزِلُ خالِي مُلاصِقاً لِمَنزِلِنا بَل كانَ هُناكَ مَدخَلٌ مَفتُوحٌ بَينَ فِنائَي المنزِلَينِ فكُنَّا طَوَّافِينَ على بَعضِنا كعائلَةٍ واحِدَةٍ وكانَ لَدى خالي ولَدانِ بَينَهُما بِنتٌ وبَعدَ وفاةِ أَبِي فاتَحَتني أمّي بِمَوضوعِ الزَّواجِ مِن ابنَةِ خالي فقُلتُ لَها:

– أترَينَ يا أمّي أنَّها الزَّوجَةُ الصَّالِحَةُ لِي..؟

– ولِمَ لا يا وَلَدي !؟ فأنا أراها الزَّوجَةَ الصالحَةَ بَل والمناسِبَةَ لَكَ.

قَبَّلتُ رَأسَها وقُلتُ لَها :

– أمّي.. ما رَفَضتُ قَطُّ لَكِ أمراً ولكن أمهِلِينِي حَتّى أعودَ مِن سَفَرِي.

– ومَتى هُو..؟

– غَداً.

– ما قُلتَ لِي..!.

– كُنتُ آتٍ إليكِ لأخبِرَكِ ولكنَّكِ فاجأتِني.

– هَل أنتَ مُوافِقٌ أم لا..؟

– أمهِلِينــي أمّــي.. إنَّ رَأسِي مَلِيءٌ بِمُــشكلاتِ سَفَرِ الغَد فَقَــد أعدَدتُ الرِّجالَ والمؤونَةَ.

– حسَناً، سأنتَظِرُ رَدَّكَ عندَ عَودَتِكَ.

فــي الصَّباحِ قبَّلتُ رأسَها ويَدَها ووَدَّعتُهــا حامِلاً مَعِيَ هَمّاً آخرَ ألا وهوَ التَّفكِير في الزَّواجِ قَلَّبتُ أمري فأمِّي سَتَكُونُ وَحِيدَةً أثناءَ أسفارِي وابنَةُ خالي سَتَكُونُ خَيرَ مُعِينٍ

ومُؤنِــسٍ لَها فَهيَ كابنَتِها ناهِيكَ عَــن أنَّ الفَتاةَ جَميلَةٌ خَلُوقَــةٌ خَجُولَةٌ وحَقِيقَةً كُنتُ أثناءَ الرِّحلَةِ أتَخَيَّلُ نَفسِي زَوجــاً لَها وأباً لأبنائِها كُنتُ أتخَيلُ كَيفَ سَنتَناقَشُ وكيفَ سَنَتَحَــدَّثُ بَعدَ أن كانَ حَديثُنا طُفُولِيّاً حَمَلتُها مَعــي على صَهوةِ حُلمِيَ وَحِيدَينِ في البانُــوشِ وقُلتُ لَها شِعــراً كانَت أصداءُ النَّهامِينَ وأنا أُبحِرُ قُــربَ مَراكِبِهِم تُشعِلُ بِيَ الــشَّوقَ لأعُودَ وأقُولَ لِأمي: نَعَم أنا مُوافِــقٌ. إلّا أنَّني عِندَما عُدتُ عَلِمتُ مِن أُمّي أنَّ خالِي رَفَضَ قائلاً: هِيَ لابنِ عَمِّها. فغَضَضتُ طَرفِي عَنِ الموضُوعِ ولكِنَّ أُمّي كانَ لَها سَعيٌ آخَرُ مَعَ أَخَوَيها وصارَحَتني بِما يَدُورُ في خَلَدِها قالت لي : ...

قَطَعتُ كلامَ حامد وقُلتُ لَهُ :

– أَرجِئ كلامَكَ يا حامِد واستَلِم قِيادَةَ السَّفِينَةِ مِن مَرزُوق.

– حاضِر يا عَمّي.

إبراهِيم : ولِمَ قاطَعتَهُ يا عَمّي..؟ كانَ حَدِيثُهُ مُمتِعاً.

– فِعلاً كانَ حَدِيثُهُ مُمتِعاً وقَد قاطَعتُهُ لأنَّ اتِّجاهَ الرِّيحِ قَد تَغَيَّرَ والشَّمسُ قَد اقتَرَبَت مِنَ المغِيبِ ولَمَحتُ مِن بَعيد إشارَةَ سفينَةِ السِّردال بأن نتَوَقَّفَ في مكانٍ قريب ولأنَّ لمــرزوق عَمَلاً آخرَ بِتَوجِهاتِهِ لإيقافِ السَّفِينَــةِ والبَحّارَةُ تَحَلَّقُوا حَولَ خَمِيس طالِبِينَ مِنهُ أن يُعلِي صَوتَهُ بلفجِــري البَحرِي قَبلَ المغرِبِ فأطلَقَ صَوتَهُ الرَّخيمَ الذِي لَو قُدِّرَ للرِّيــحِ أن تُخَلِّدَ الأصواتَ لَخَلَّدَتــهُ فَنَهَمَ وأبدَعَ وإيقاعاتُ التَّصفِيــقِ مِنَ البَحّارَةِ تَرُدُّ كُلَّما انتَهى على الرُّوند، وقَبلَ أن يَنغَمِسَ قُرصُ الشَّمسِ في الأُفُقِ الغربي رَفَعَ مَرزُوقُ صَوتَهُ :

– اطرَحْ.. اطرَحْ، أنزِلُوا الشِّراعَ وأَلقُوا المرساةَ فَقَد وَصَلنا.

٥ ـ

عنَدمــا ثَبَتَت السَّفِينَةُ وغابَــت الشَّمسُ ارتَفَعَ أذانُ المغــرِبِ مِن حُنجُرَةِ خَميس فَأخرَجتُ ساعَةَ جَيبي وأدَرتُ مِفتاحَها وثَبَّتُّها على الثَّانِيَةَ عَشرَةَ.

إبراهيــم : وكَيفَ تَعرِفُونَ الوَقتَ يا عمّي ما دُمتُم أنتُمُ الذيَنَ تتَحَكَّمُونَ في عَقارِبِ السَّاعَةِ..؟

– كُنَّا نَعتَمِدُ التَّوقِيتَ العَرَبِيَّ.

– وَهَل هُناكَ تَوقِيتُ عَرَبيٌّ وآخَرُ غَيرُ عربيّ..؟

– نَعم، وغيرُ العَرَبيِّ نُسَمِّيهِ التَّوقِيتَ الإفرَنجِيّ.

– ولِمــاذا لا تَعتَمِدُونَ التَّوقيــتَ الإفرنجِي..؟ أليسَ الإفرنجُ هُــم الذِينَ يَصنَعونَ السَّاعاتِ..؟

– الحَاجَةُ أمُّ الاختراعِ حِساباتُهم مُعَقَّدَةٌ بالنِّسبَةِ لَنا.

– ولكنَّ الساعَةَ واحِدَةٌ.

– دَعني أولاً أشرَحُ لَكَ عَمــلَ السَّاعةِ القَديمَةِ التي سَبَقَت السَّاعَةَ الحَدِيثَةَ التي تَعمَلُ بالبَطَّارِيَّةِ، كانَت السَّاعاتُ في وَقتِنــا تَعمَلُ بـ (الزُّنبَرك) وَهُوَ شَرِيطٌ مِن صَفِيح داخِــلَ السّاعَةِ مَلفُوفٌ على نَفسِهِ يُطوى بِلفِّ مِفتــاحِ السَّاعَةِ عدَّةَ مراتٍ ولكنَّهُ يَفتَلُّ بَطيئــاً وقَد يَستغرِقُ ذلكَ يَوماً أو يومَينِ أو أكثَــرَ قَليلاً ومَعَ انفِلالِهِ البَطِيءِ يُديرُ تُرُوسَ

العَقارب لِــكُلِّ ترسٍ حَجمُهُ وعَــدَدُ أسنانه لاحتسابِ السّاعــاتِ والدَّقائقِ والثَّواني فيظَلُّ الوَقتُ دَقيقاً لأربَعٍ وعِشرينَ ساعَــةً أو أكثرَ قَليلاً بَعدَها يَبدأُ الزُّنبرك في التَّباطُؤ وتَبــدَأُ السَّاعَةُ في تَأخيرِ الوَقتِ إلــى أن تَقِفَ عَقارِبُها عَن الدَّورانِ مــا لَم نَقُم بِمَلئِها بلَــفِّ المفتاحِ عِدَّةَ لَفَّاتٍ لإعادَةِ طَيِّ الزُّنبرك وحتَّى نَضمَنَ دِقَّةَ الوَقتِ نَقومُ عِندَ أذانِ المغرِبِ بتَثبيتِ عَقارِبِ السَّاعَةِ على الثَّانِيَةَ عَشرَةَ تَماماً.

– وكيفَ يَعرِفُ المؤذِّنُ دِقَّةَ الوَقتِ..؟

– أذانُ المغربِ لا يَعتَمِدُ على السَّاعَــةِ بَل على غُروبِ الشَّمسِ وانغِماسِ قُرصِها تَماماً في الأُفُقِ.

– وماذا إذا غُمَّ عَليهِ..؟

– هُنا يَعتَمِدُ على السَّاعَةِ في تَوقِيت أذانِ اليَومِ الذي قَبلَهُ بَتَقديم دَقيقَةٍ أو تأخِيرِها حَسبَ خِبرَتِهِ ومَهارَتِهِ وفَرقُ الدَّقِيقَةِ قَلِيلٌ ولكِنَّ المؤذِّنَ في هذِهِ الحالَةِ غالِباً ما يكُون على صَوابٍ.

– إذا كانَ أذانُ المغــرِبِ عِندَ الثانيةَ عَشرةَ فــإنَّ مُنتَصَفَ اللَّيلِ يكُونُ عِندَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ تَقرِيباً.

– هوَ كذلكَ فاليَومُ يَبدَأُ بالمغرِبِ ويَنتَهِي عِندَهُ وهو التَّوقِيتُ العَرَبي.

– وماذا حَدَثَ بَعدَ ذلكَ..؟

– عِندَما وَصَلنا وأنزَلَ البَحَّارَةُ الشِّراعَ وألقَوا المرساةَ وأذَّنَ خَمِيسُ بالمغرِبِ صَلّينا وجَلَس البَحارَةُ يَتَحادَثونَ انتِظاراً للعَشاءِ.

كُنتُ كَباقِي النَّواخذة قَد جَلَبتُ مَعَنا خَرُوفاً لِقِرى البَحَّارةِ وذبحُهُ لا يَكونُ إلا بَعدَ

أيامٍ مــن الغَوصِ إذا حَصَلوا على اللُّؤلُــؤ أمَّا عَشاؤنا في اليَــومِ الأوَّلِ فَقَد كانَ الأرُزَّ الأبيَضَ والسَّمَكَ المشويَّ كُلَّما قَلَّــبَ جُمعَةُ السَّمَكَ على الصَّاجِ انطَلَقَت الأدخِنَةُ وانتَــشَرَت رائحَةُ الشِّواءِ في أرجــاءِ المكان ثارَت غَرِيزَةُ الجُــوعِ كانَ على جُمعَةَ أَن يَشوِي الكَثيرَ مِــنَ السَّمَكِ لثَلاثِينَ شَخصاً وعِندَما عاوَنَــهُ البَحَّارَةُ في تَوزيعِ صَوانِي الأرُزِّ كانَ يَــشوِي ويُوزِّعُ السَّمَكَ على البَحَّارةِ فيَتَناقَلونَهُ بينَهُم كانَ العَشاءُ هُوَ الوَجبَةُ الرَّئيسيَّةُ أمَّا الفُطُورُ والغَداءُ فالتَّمرُ والقَهوَةُ والماءُ.

بَعدَ العَشاءِ تَعاوَنَ البَحَّارَةُ على غَسلِ وتَنظِيفِ الأوانِي وتَرتِيبِ الأشياءِ على سَطحِ المحمَلِ وجاءَني خَمِيــسُ يَستأذِنُني بالإنشادِ رَيثَما يَستَعدُّ البَحَّــارَةُ للنَّوم فأذِنتُ لَهُ فأنشَدَ وأبدَعَ كانَت فِرَقُ النَّهامِيــن في مَواسِمِ الغوص تضُمُّ سِتَّةَ رِجالٍ أو أكثَر ولكنَّ جَوقَةَ خَمِيس كانَت مُكَوَّنَةً مِن ثَلاثَةِ رِجالٍ فَقَط لِحفظِ الإيقاعِ بالطَّبلِ والطّارِ والمرواس والجَحلةِ (قارورة خَزفية) والتــي كانَ صَوتُ الدَّقِّ على فُوَّهَتِها وجَوانِبِها يُعطِي صَوتاً بَديعــاً كذلكَ فالنَّهامُ قد يجلِبُ آلاتٍ إضافيةً يقومُ بعــضُ البحَّارَة بالمشارَكَةِ بها في العَــزفِ والغِنــاء، بَعدَها تَوزَّعَ البَحَّــارَةُ على مَضاجِعِهِم وكانَ مَرقَــدِي في آخرِ الجُزءِ الخَلفِيِّ مِنَ السفينَةِ وكانَ مرتَفِعاً قَليلاً أُشرِفُ مِنهُ على البَحَّارةِ.

هَجَعَ الجَمِيعُ بَعــدَ يَومٍ حافِلٍ كانَت بِدايَتُهُ تَودِيعَ الأحبَّــةِ والإبحارَ إلى المجهُولِ وأوسَطُهُ تَعارُفاً وتَلاحُماً بَيــنَ مَجمُوعَةٍ سَتَتَعايَشُ لِعدَّةِ أشهُرٍ عَلى ظَهرِ مَركبٍ مَساحَةُ التَّحَرُّكِ فِيهِ عِدَّةُ أمتارٍ وآخِرُهُ هُدُوءاً وسَكِينَةً وأخذَ قِسطٍ مِنَ الرَّاحَةِ انتِظاراً لِفَجرٍ جَديدٍ يَحمِلُ التَّوَكُّلَ على اللهِ والأمَلَ في رِزقِهِ وعطائهِ إلّا أنَّ ذلكَ الهُدُوءَ لَم يَخلُ في بِدايَتِهِ مِن حِواراتٍ وهَمَساتٍ ومُداعَباتٍ بالكلامِ بينَ البَحَّارَةِ فثَلاثُونَ رَجُلاً تَختَلِفُ هُمُومُهُم

ومُشكِلاتُهُــم تَختَلِفُ شَخصِيَّاتُهُم ونَفسِيَّاتُهُم فَمِنهُــمُ الكَثيرُ الكلامِ الذي أعطاهُ اللهُ القُدرَةَ على الانتقالِ مِن مَوضُوعٍ إلى آخرَ دُونَ تَوَقُّفٍ ومِنهُمُ المرِحُ الذي يُطلِقُ النُّكاتِ والقِصَصَ المضحِكَةَ والرِّوايــاتِ التي سَمِعَها مِن هُنا وهُناكَ ومِنهُمُ المشاكِسُ الذي يُثيرُ زُملاءَهُ بالهَمزِ واللَّمــزِ مختَلِفُونَ باختِلافِ ألوانِهم وسَحَناتِ وجوهِهِم وبَصماتِهِم، استَمَرَّت الهَمَساتُ فقُلتُ بِصَوتٍ مُرتَفِعٍ :

– خَلاص يا جَماعَة نامُوا بكرة وراكم شغل.

فخَفَتَــت الأَصواتُ كانَ مَرقَدُ حامِد بالقُربِ مِنّي فَكُنتُ أَوَدُّ أن يُكمِلَ لي حِكايَتَهُ عَن ابنــةِ خالِهِ وهَل تزَوَّجها أم لا ؟ وعَن أمِّهِ وأخَوَيها، وكَيــفَ تَحوَّل مِن طَوّاشٍ يأمُرُ ويَنهــى إلى سُكُونــيٍّ يُوَجِّهُ دَفَّةَ السَّفِينَةِ حَيــثُ يأمُرُهُ رُبّانُها، وكَيــفَ دارَت بِهِ الأيامُ ليَعمَلَ لَدى الغَيرِ؟ إلّا أنَّني عَدَلتُ عَن ذلكَ خَشيَةَ الإطالَةِ والسَّهرِ وأرجَأتُهُ إلى وَقتٍ آخَــرَ كانَ الهِلالُ قَد غابَ وامتَلأت قُبَّةُ السَّماءِ بالنُّجُــوم، سَكَنَ اللَّيلُ وسَكَنَت مَعَهُ الأصواتُ سِوى صَريرِ ألواحِ الفُلكِ وهي تَمِيلُ بِهُدُوءٍ يَميناً وشِمالاً وأصواتِ الأمواجِ الخافِتَةِ وهي تَصطَدِمُ بِجِسمِ السَّفِينةِ تُداعِبُها الأنسامُ العَلِيلَةُ.

قَبلَ الفَجرِ كانَت هُناكَ حَركاتٌ للبَحّارَةِ بِصَمتٍ أو بِهَمسٍ إلى أَن رَفَعَ خَميسُ أذانَ الفَجرِ وبَعدَ الــصَّلاةِ بَدأَ نُورُ الفَجرِ يَزحَفُ شَيئاً فَشَيئاً لِيَزيــدَ الأُفُقَ ضِياءً وبَهاءً كُلَّما رَأيتُــهُ تَذَكَّرتُ الآيَةَ الكَريمَةَ، ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ﴾ (البقرة:١٨٧)، وبالفِعلِ فإنَّكَ تَستَطيعُ رُؤيَةَ الحَدِّ الفاصِلِ بَينَ اللَّيلِ والنَّهارِ في تِلــكَ الظُّلمَةِ المطبِقَةِ التي لا يَكادُ المرءُ أن يَرى فِيها راحَةَ يَدِهِ خاصةً إذا خَيَّمَ اللَّيلُ وغابَ القَمَرُ وتَطابَقَت سُدَفُ اللَّيل فإنَّكَ تَستَطِيعُ أن تُمَيِّزَ أولَ خَيطٍ لبُزوغِ الفَجر.

تَمَّ توزِيعُ التَّمــرِ على الجَمِيعِ فأكَلُوا وشَربُوا وقامُوا بِتَجهِيــزِ أنفُسِهم للعَمَلِ انتِظاراً للشَّمسِ أن تَرتَفِعَ قَليلاً حتّى تَتَّضِحَ الرُّؤيَةُ في الأعماقِ.

تَرَدَّدتُ كثيراً في جعلِ مرزوق يغُوص فنادَيتُهُ :

– مرزُوق.

– نَعَم عَمّي.

– هَل أنتَ مستَعِد..؟

– نَعَم مستَعِد يا عَمّي.

– مَن سَيبُك..؟

– اللي تأمر به عمّي.

– يا عيال نريد شَهماً يسوب على مرزُوق.

سعيد – هي والله يا عمّي أنا حاضر.

– كفو.

إبراهيم : ومَن هُوَ سَعيد يا عَمّي..؟

– سَعيد هُوَ مَــسؤُولُ الأشرِعَةِ وحِبالِها ويُشرِفُ على البَحّــارَةِ في نَصبِ الصّاري وإخــراجِ الشِّراعِ مِنَ الخُنِّ وفَلِّهِ ورَفعِهِ وكذلكَ عَــن إنزالِهِ وطَيِّهِ فسَفينَتي لَها صاريانِ وشِراعــان ونَستَخدِمُ شِراعاً واحِداً في حالَةِ الرياحِ النَّشِطَةِ إما إذا كانَت الرِّياحُ خَفيفَةً ومُتَقَلِّبَةَ الاتِّجــاهِ نَستَخدِمُ الشِراعَين الكَبيرَ والصَغير. وسَعيــدُ أيضاً لَديهِ الخِبرَةُ في مِهنَةِ السَّيبِ وأعرِفُ عَنهُ ذلكَ وبما أنَّ عَدَدَ السُّيوبِ مُتَساوٍ مَعَ عَدَدِ الغاصَةِ كانَ لابُدَّ أن نَجِدَ سَيباً ولَهُ خِبرَةٌ خاصَّةً وأنَّ مَرزُوقَ سَيَغُوصُ مُتَدَرِّباً لأوَّلِ مَرَّةٍ.

ـ ٦

كانَ الهَـواءُ ساكِناً والبَحـرُ هادِئاً وكأنَّ ماءَهُ مُزِجَ بالدُّهنِ ولُجَّتُـهُ صافِيةً تَكادُ تَبدُو مِنها الصُّخُورُ في قاعِهِ بِرَهبَةٍ تُوحِي بأنَّ العُمقَ يَزيدُ عَلى الأمتارِ العَشرَةِ استعدَّ مَرزُوقُ للغَوصِ فوَضَعَ الخَبْطَ (جِلدٌ يُلبَسُ فـي الأصابِعِ) في أصابِعِ يَدِهِ اليُسرى والسِّكِينَ فـي يدِهِ اليُمنى وعَلَّـقَ الدِّيِّينَ (سلة لوضع المحار فيها) علـى رَقَبَتِهِ وأغلَقَ مِنخرَيهِ بالفِطـامِ (سدَّادٌ خَشَبيٌّ للأنـفِ) ثُمَّ قَفَزَ برَشاقَةٍ إلى البَحرِ وعـادَ سَريعاً إلى سَطحِهِ تَتبَعُـهُ آلافُ فُقّاعاتِ الهَـواءِ إلى السَّطحِ وكأنّها لا تُريدُهُ أن يَخـرُجَ مِنَ الماءِ ويَدَعَها تَغرقُ أمسَكَ بأحدِ الحَبلَينِ اللَّذَينِ دَلاهُما لَهُ سَعيدٌ وهوَ الحَبلُ الذي بَهِ الحَجَرُ ولَبِسَ ربقَتَـهُ في رِجلِهِ اليُمنى وربَـطَ حَبلَ السَّيب في وَسَطِهِ أزاحَ الفِطـامَ عَن أنفِهِ وتَنَفَّسَ تنَفُّسَيـنِ طَبيعِيينِ شَهيقاً وزَفيراً ثمَّ أخَذَ شَهيقاً عَميقـاً مَلأَ رِئتَيهِ بِهِ وسَدَّ أنفَهُ بالفِطامِ وأمسَكَ الحَبـلَ الآخَرَ المربُوطَ بالدِّيِّينِ بِيُسراهُ وغَطَـسَ بَينَما أرخى السَّيبُ سَعيد الحَبلَيـنِ لِيغُوصَ مَرزُوقُ إلى القاعِ وعِندَمـا أحَسَّ أنَّ مرزوق وَصلَ إلى القاعِ سَحَبَ حَبلَ الحَجرِ وتَرَكَ الحَبلَ الآخَرَ إلى أن يَشُدَّهُ مَرزُوقُ فيَسحبُهُ.

إبراهيم : وهَل قامَ مرزُوقُ بِمهمَّتِهِ يا عمي ؟

– نعم، لكنَّني كُنتُ قَلِقاً قَليلاً لأنَّها المرَّةُ الأولى لمرزُوق في الغَوصِ وكُنتُ أراقِبُ حبلَ سَعيد انتِظاراً لِمَرزُوق أَن يَشُدَّهُ وبالفِعلِ شَدَّ مَرزُوقُ الحَبلَ وعادَ جالِباً مَعَهُ كَمِّيَّةً مِن المحَّارِ فاطمأنَنتُ لذلكَ فَلَوَّحتُ لَهُ تَشجِيعاً فواصَلَ عَمَلَه وأثناءَ ما كانَ الغَوّاصُونَ

والسّيــوبُ مُنهَمِكِينَ في شُغلِهِم كانَ النَّهامُ خَمِيس يُعلي صَوتَهُ بالمواويلِ والأناشِيدِ التي تَضِجُّ بكَلمــاتِ الحُزنِ وألمِ الفِراقِ وتُلهِبُ الحَنينَ والــشَّوقَ في قُلُوبِ سامِعِيه كانَ صَوتُــهُ جَمِيلاً بتَمَيُّزِه يُطلِقُهُ رَخيماً وهوَ جالــسٌ أَو وَهوَ يتنقَّلُ في المحمَلِ هكذا بلا إيقاعاتٍ ولا تَصفيقٍ يُطلِقُهُ صَوتاً مُنفرِداً عَذباً تَطرَبُ لَهُ النّسَماتُ فتحمِلُهُ في مدَى الأفقِ إلى أمواجٍ بَعِيدَةٍ تُراقِصُ نَغَماتِهِ أما شَعبانُ وجُمعَةُ طبَّاخُ الرَّحلَةِ فَكانا يَصطادانِ السَّمكَ.

إبراهيم : أليسَ شَعبانُ هُو القلاّفُ الذي أصلَحَ سَفِينَةَ جَدّي أحمَد..؟

– بلى هُوَ.

– وما دَخلُ القَلاّفِ في رِحلَةِ الغَوصِ..؟

– يا إبراهيم، كانَــت قَريَتُنا صَغِيرَةً وأهلُها مُتحابِّينَ مُتَعاونِيــنَ وشَعبانُ رَجُلٌ طَيبٌ مُكافِــحٌ ونَصُوحٌ أخَذتُهُ مَعَنــا مُقابِلَ أجرٍ لإعانَتِهِ وتَحَسُّباً لِما قَــد يَحدُثُ للسَّفِينَةِ مِن طــارِئٍ فالمراكبُ الخَشَبِيَّةُ قَد تتَضَرَّرُ بالصُخــورِ وحَتّى الأمواجُ العاتِيَةُ قَد تُحدِثُ في ألواحِهــا ثُقُوباً رُبَّما تكونُ صَغيرَةً ولكنَّها تُــسَرِّبُ الماءَ ببُطءٍ ووُجودُ القَلافِ في تِلكَ المواقِفِ لا شَكَّ أنَّهُ يُنجِي مِنَ الهَلاكِ.

استَمَــرَّ العَمَلُ في اليَومِ الأوَّلِ على ما يُرامُ وفي مَسائِهِ تَمَّ جَمعُ المحارِ في أكياسِ خَيشٍ وأنزَلَهُ البَحَّارَةُ بإشرافِ مَرزُوق إلى الخُنِّ.

– ألا تَفلِقونَ المحَّارَ وتَستَخرِجونَ مِنهُ اللُّؤلُؤَ..؟

– لا يُفلَــقُ المحارُ إلا بَعدَ مَوتِ الرَّخَوياتِ التي بداخِلِهِ فإذا كانَ الحَيوانُ الرَّخَويُّ

حَيَّــاً تكُونُ المحَّارَةُ مُحكَمَــةَ الغَلقِ صَعبَةَ الفَلقِ فإذا ماتَ سَهُــلَ فَتحُها وقَد أعطيتُ تَعليمــاتٍ للبَحَّارةِ أن يكــونَ الفَلقُ بَعدَ كُلِّ ثَلاثةٍ أو أربَعَةِ أيّــامٍ بَعدَها يَومٌ للفَلقِ وفيهِ أو في اليومِ الذي يَليهِ وَجبَةُ غداءٍ دُونَ غيرِه.

– ألا تَتَغدُّونَ كُلَّ يومٍ.

– لا، ليــسَت هُناكَ وَجبَةُ غَداءٍ أما وَجبَةُ العَشاءِ فيَومِيَّةٌ، الأكلُ في النَّهارِ هوَ التَّمرُ والماءُ في الفَجرِ بَعدَ الصَّلاةِ وأثناءَ الاستراحَةِ مِن الغوص وفي بَعض السُّفُنِ الكبيرَةِ يقُومُونَ بطَبخِ وجبَةِ غداءٍ يَومياً للنُّوخذة والنَّهامين والبَحارَةِ ما عدا الغاصَةَ والسُّيوب. أما أنا فَمَنَعتُ ذلكَ حتى عليَّ فأكلي أثناءَ النَّهارِ مِثلهُم وهو التَّمرُ والماءُ.

– ولماذا يوضَعُ المحَّارُ في الخُن..؟

– حتّى لا يُزعِجَ البحَّارةَ في نَومِهم سَواء بالحَيِّزِ الذي يأخُذُهُ مِنَ السَّطحِ أو برائحَتِهِ الكَريهَــةِ وفي يَومِ الفَلقِ يَعمَلُ الرِّجالُ مِنَ الفَجرِ حتّى صَلاةِ الظُّهرِ ثمّ يُوضَعُ ما جُمِعَ في ذلكَ اليَومِ ويُعزَلُ فــي الخُنِّ ثُمَّ يُوضَعُ الغَداءُ وبعدَهُ نَستَخرِجُ المحَّارَ الذي جُمِعَ فــي اليَومَينِ السَّابِقَيــنِ وتَبدأُ عَمَليَّةُ الفَلقِ بإشرافِ مَــرزُوق وخَميس وسَعِيد كذلكَ يقُومُونَ باستِخراجِ الرَّخوياتِ وجَمعِها.

– لأكلِها..؟

– طبعاً فهيَ لَذِيذَةٌ ولَها طَعمٌ مُمَيَّز.

كانَ الجَميعُ مُتعاوِنينَ يَقومُونَ بأيِّ عَمَلٍ أوكِلهُ لَهُم وأنا بِدَوري كُنتُ أُكرِمُهُم مُؤمِناً بأنَّ الــرِّزقَ مِن عِندِ اللهِ سُبحانَهُ وتَعالى وأنَّ العَطاءَ والبَــذلَ يَجلِبُ الرِّزقَ وقَد حَدَثَ

فِفي اليَــومِ العاشِرِ مِنَ الرِّحلَةِ وكانَ يَوماً لِفَلقِ المحَّارِ رَفَــعَ بَحَّارٌ واسمُهُ فَرحَان صَوتَهُ قائِلاً :

- عِندِي، عِندي.

مرزُوق : ابعَدي.. (تُقالُ للتَّشجِيع)

فَرحَان : دانة يا عَمّي علي، دانَة.

- ابعَدي.. هاتِها يا مَرزُوق.

نظَرتُ إليها فإذا هيَ لُؤلؤةٌ مُستَدِيرَةٌ برَّاقَةٌ ولكنَّها متوسِّطَةُ الحَجمِ بَيضاءُ بِها احمِرارٌ طَفيــفٌ جِداً في جانبٍ منها ولكنَّه لا يُقَلِّلُ مِن قِيمَتِها بَــل يزيدُها، وكانَ تَقدِيري لَها أنَّها تُساوي في حدودِ الثَّمانيةَ عَشَرَ أو العِشرِينَ ألفَ رُوبيَّةٍ فحَمَدتُ الله كثيراً ورفعتُ صَوتي لِيَسمَعَهُ الجَمِيعُ :

- يا فَرحَان لكَ مائةُ رُوبيَّة ولكلِّ واحِدٍ عِشرُونَ رُوبيَّة وبُكرَة الغدا خَرُوف.

تَصاعَدَت هُتافاتُهُم :

- جَزاكَ اللهُ خير يا عمّي.. جزاكَ الله خير.. الله يغنِيك.

لَم تَكُن تِلــكَ اللُّؤلُؤةُ اللُّؤلُؤةَ الوَحِيدَةَ بَل كانَت أكبَرَها أما حصِيلَةُ ذلكَ اليَوم مِنَ اللآلِئِ فَقَد كانَت جَيِّدَةً وأثناءَ فَلقِ اللُّؤلُؤِ لَم يَكُن شَعبانُ وجُمعَةُ مَعنا في السَّفينَةِ بَل ذَهبا في القارِبِ الصَّغيــرِ مُبتَعِدَينَ قَليلاً يَصطادانِ السَّمَكَ بالشِّباكِ وبالخَيطِ وعِندَما عادا أحضَرا معَهُما سَمكاً كَثيراً.

انتهــى الفَلقُ قَبلَ المغــرِبِ فكانَت السَّفِينَــةُ كَخَلِيَّةِ نَحلٍ فالبَحَّــارَةُ أزالُوا جَمِيعَ أصدافِ المحَّارِ وغَسَلوا سَطحَ المركبِ بماءِ البَحرِ يُلقُونَ بِدِلائِهم التي هي عِبارَة عَن صَفائِحِ السَّمنِ الفارِغَةِ المربوطَــةِ بالحِبالِ يُلقُونَها في البَحرِ ويَسحبُونَها مَملُوءَةً بالماءِ فَيَسكُبُونَــهُ على سَطحِ السَّفِينَةِ يُعاوِنُهُم آخَرُونَ يمسَحُونَ بِمقَشَّاتِ الخُوصِ آثارَ لُزُوجَةِ بقايــا المحَّارِ، وجُمعَةُ يُقَلِّبُ السَّمَكَ المشوِيَّ على الصَّاجِ، وأنا وحامِدُ نَفرزُ اللُّؤلؤَ في البِيشتَختِــه، كانَ لَدَيَّ مِنظارُ عَينٍ مُكَبِّرٌ، وساعَدَتني خِبرَتِيَ السَّابقَةُ في الطُّواشَةِ على مَعرفَةِ مَثاقِيلِ اللُّؤلؤِ الذي لا يُقاسُ فَقط بالوَزنِ بَل بالوَزنِ والحَجمِ واللَّونِ والاستدارَةِ، وكانَ بَينَ يَدَي حامِد دَفتَرٌ وقَلَمٌ أحسِبُ وأُملي عَليهِ فَيكتُبُ ومَعَ آخرِ حَبَّةِ لُؤلُؤٍ حَسَبتُها قُلتُ لَه :

– حامد.

– نَعَم يا عمّي.

– أكمِل قِصَّتكَ معَ أمِّكَ وابنَةِ خالكَ.

– حبّاً وكَرامَة.

صَمَتَ حامِدُ قَليلاً ثُمَّ قالَ :

– بَعدَ أن رَفضَ خالي حَمَد طَلَبَ أمّي بتَزويجي ابنَتَهُ، قالَت لِي :

– أعتَقِــدُ أنَّ خالَكَ رَفَضَ طَلَبي لأنَّني رَفَــضتُ طَلَبَهُ بِبَيعِهِ البانُوشَ بَعدَ وفاةِ أبيك لأنَّني أعلَمُ أنَّهُ لا يَملِكُ ثَمَنَهُ أما الآنَ فَقَد قَرَّرتُ أن أُعطِيهِ البانُوشَ لَيسَ مُقابِلَ المالِ ولكن مهراً لابنَتِهِ.

- لا يا أمّي عِندَمــا رَفضَ خالي مَوضُوعَ الزَّواجِ غَـضَضتُ الطَّرْفَ عَن المَوضُوعِ بِرُمَّتِهِ والبانُوشُ يُمَثِّلُ لِي كُلَّ شَيءٍ في حياتِي بَعدَ رَبِّي وبَعدَكِ.

- يا وَلَدي البانُوشُ غَيرُهُ بانُوشٌ أمّا ابنَةُ خالِكَ فهيَ ابنَتِي كَم كانَت تُؤنِسُنِي وتَنامُ عِندِي في غِيابِــكَ وتَطبُخُ لي طَعامِي وتُهرِعُ إليَّ بالدَّواءِ في مَرَضِي إنَّها فَتاةٌ لَيِّنَةٌ هَيِّنَةٌ رَقِيقَةُ القَلبِ وجَمِيلَةٌ أتُحِبُّ أن تَتَزَوَّجَ امرأةً أخرى غَرِيبَةً عَلَيَّ..؟

لَم أُطِلِ التَّفكِيرَ فَقَد كانَت صادِقَةً وأقنَعَتني فقُلتُ لَها :

- تَمَّ يا أُمِّي مُوافِق ولكن ماذا عَن قَولِ خالي هيَ لابنِ عَمِّها..؟

- لا عَلَيــكَ هُوَ لا يَعنِيها أتَعتَقِدُ أنَّهُ سَيُــزَوّجُ ابنَتَهُ لرَجُلٍ يقارِبُ سِنُّهُ سِنَّ أبِيها إنَّما رَفَضَ طَلَبي لِرَفضِي طَلبَهُ.

وبالفِعلِ يا عَمِّي تَمَّ الزَّواجُ وصَفَت القُلُوبُ وتَمَّ تَسجِيلُ البانُوشِ باسمِ خالي حَمَد الذي قالَ لي بَعدَ مُدَّةٍ :

- يا وَلدِي ما طَلبتُ البانُوشَ مِن أُمِّكَ طَمَعاً ولا حَسَداً ولكن طَلَبتُهُ لِتَعدِيلِ وضعِي وظَنّاً مِنّي أنّي سَأستَعيدُ أمجادِي في البَحرِ، وأُعلِّمُ أبنائي يُوسفَ وبَدر عُلومَ البَحرِ فَهُما كَمــا تَعلَم يَعمَلانِ عُمّالَ بناءٍ ولا يَجنِيــانِ سِوى الإهاناتِ والمالِ القَلِيلِ أمّا الآنَ وقَد كبُرتُ ودَبَّ فِيَّ الوَهَنُ وأنتَ ابنُ أختي وصِهرِي فأنا أعرِضُ عَلَيكَ العَمَلَ في البانُوشِ والرِّبحُ قِسمَةٌ بَينِي وبَينَكَ.

وعــادَ إليَّ البانُوشُ بَل عُدتُ أنا إليهِ فعِندَمــا رَكبتُ فيهِ بَعدَ كَلِماتِ خالي شَعرتُ بأنَّ كُلَّ خَشَبَةٍ فيهِ تُرَحِّبُ بِي وتَكادُ تَحتَضِنُني عُدتُ إلى زاوِيَتي فِيهِ التي فيها مَرقَدِي

ومِسنَدِي وصُندُوقِيَ الخَشَبِيُّ وفيها مُصحَفِي ودَفتَرُ حساباتي ودَفتَرُ أشعارِي وريشَتِي ومِحبَرَتِي نعَــم يا عمّي علي كُنتُ أحمِلُ مَعِي بَعضَ دَواوينِ الشُّعراءِ وقُلتُ الشِّعرَ أمَّا زَوجَتِــي فقَد كانَت هِي الغَيمَةُ التي تُمطِرُ عَلَيَّ قَصائــدي هيَ الحُرُوفُ التي تَتراقَصُ علــى أوراقِي وتَتَشَرَّبُها محبرَتي ورِيشَتي وقَد أنجَبَت لــي ولَداً سَمَّيتُهُ (عُمَير) كُنتُ سَعِيــداً بِعائلَتِي وبِبانُوشِي أسيرُ البَحرَ وأمواجَهُ والزَّمَــنَ وساعاتِه رَحَلتُ فيهِ إلى بلادٍ بعَيدَة عَرفتُ مَوانِئها وتَعرَّفتُ على رجالاتِها عرَفتُ لُغاتِهِم وتحَدَّثتُ مَعهم بِها كالهندية والأورديــةِ والسّواحِيلِيةِ، واستضافَني كثيــرٌ مِنَ التُّجارِ واستَضفــتُ الكثيرينَ مِنهم فعرَفــتُ عاداتِهم وتقاليدَهم عَرَفــتُ قُلُوباً تَزخَرُ بالحُبِّ والتَّفانــي والصِّدقِ في الوعدِ إن عُــدتَ إليها بَعد غِيابٍ وجدتَ امتِلاءها بِك لَم يتَغَيَّر وعَرفتُ قُلُوباً قاسِيَةً لا تَعرِفُ الرَّحمَةَ ولا الوفاءَ ولا تَحمِلُ في جَوفِها غيرَ الأنا البَغيضَةِ أغيبُ في مجاهِلِ البحارِ ثُمَّ أعــودُ حامِلاً بَضائعَ كَثِيرَةً ثَقِيلَةً كُلَّما وضعتُها فــي البانُوشِ قالَ هَل مِن مَزيد وأحمِلُ أثقَلَ مِنها شَوقاً لأمّي وزَوجَتــي وابني فأنثرُ أبياتِ الشعرِ المليئةَ بالحَنِينِ في نَسَماتِ الريــحِ فيمتَلئُ بِها شِراعي وتُغَنِّيها النَّــوارِسُ وتَحمِلُها إلَيهم ولكنَّ نابَ الزَّمانِ عَضَّني وأصابَتنِي مُصيبَةٌ ولكِن وللهِ الحمــدُ فالمصيبَةُ كانَت في الجَمادِ لا في الأرواحِ فبَعدَ سَنَتَينِ مِن زَواجِي فَقَدتُ بانُوشي.

– وكيف..؟

– في يَومِ الطَّبعَةِ كنّا بالقُربِ مِن مِنطَقَةٍ فِيها صُخورٌ تحتَ البَحرِ كَبيرَةٌ جِدّاً ومُتَقارِبَةٌ وبَينَها فَجَواتٌ عَميقَةٌ، في مُنتَصَفِ تلكَ اللَّيلَةِ المعتِمَةِ تَماماً لَم يَكُن أحدُنا يَرى راحَةَ يَــدِهِ مِن شِدَّةِ العَتمَةِ كانَــت الأَمواج كالجِبالِ تَرفَعُ المركبَ عاليــاً ثُمَّ تَهوِي بِهِ على

الصُّخُــورِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ وأصواتُ صَيحاتِ الفَزَعِ والألمِ تَعلُــو مِنَ الرِّجالِ وهُم يَتَناثرُونَ فــي البَحرِ وأنا مَعَهُم فأدرَكتُ أنّي هالِكٌ لا مَحالَةَ فأحــسَستُ أنّي أَطِيرُ في الهَواءِ ثُمَّ أهــوي وأرتَطِمُ بِصَخرَةٍ كَبيرَةٍ ثُمَّ أُغمِيَ عَليَّ وعِندَمــا فَتَحتُ عَينِي وَجَدتُ نَفسي في سَفِينَةٍ كَبِيرَةٍ طاقَمُها يَلبسُونَ زيّاً عَسكَريّاً ويَتَحَدَّثُونَ لُغَةً لا أفهَمُها، لَم يكُن عليَّ سِوى سِروالٍ وكانَ أحَدُهُم يُضَمِّدُ جِراحِي فَسَألتُهُ :

- أينَ أنا..؟

- لا تَخَــف يا أخِي أنتَ في أمــانٍ الحَمدُ للهِ الذي أنجاكَ مِــنَ الموتِ أنا اسمي (يعقُــوب) أعمَلُ مُتَرجمــاً في هذهِ السَّفينَــةِ الحَربِيَّةِ التَّابِعَةِ للحامِيَــةِ العُثمانيَّةِ في الخَليجِ.. لَقَد بَدَأنا مُباشَرَةً بَعــدَ العاصِفَةِ في البَحثِ عَن ناجِينَ فَانتَشَلناكَ مَعَ الكثيرِ مِن النَّاسِ.

كانَــت بِجِسمِــي رُضُوضٌ وخدُوشٌ مُتَفَرِّقَة ولَم أقوَ على الوقُــوفِ إلّا بَعدَ ساعاتٍ قَدَّمــوا لي فِيها الماءَ والطَّعامَ وسَجَّلوا بَياناتِي كانَــت سفينَتُهُم كبيرةً وبِها غُرَفٌ كثيرةٌ وعَلِمتُ مِن يَعقُوب أنَّ هُناكَ رِجالاً أخَرينَ مِمن انتَشَلوهُم في غُرَفٍ أُخرى في السَّفِينَةِ فعَجِبــتُ كيفَ وصلوا إليَّ بِهــذه السَّفينَةِ الكَبِيرَةِ فسألتُ يعقــوب كيفَ وَصَلوا إليَّ فقال :

- لَدينا قَوارِبُ أصغَرُ تبحثُ عن المفقُودينَ وتَنتَشِلهُم وتُحضِرُهُم إلينا وهناكَ سَفينَةٌ أخرى معنــا في الدَّوريةِ كانَت العاصِفَــةُ شَدِيدةً، لقَد كانَ إعــصاراً قَوياً مِن أعاصيرِ المحيطِ الهِندي التي غالِباً ما تَمُرُّ بِبَحرِ العربِ، وتتضَرَّرُ مِنها عُمانُ وجَنوبُ فارس إلّا أنَّها نادِراً ما تَجنَحُ إلى الخَليج حتّى سُفُنُنا الكَبيرَةُ هذهِ كادَت أن تَغرَق. وبَعدَ العاصِفَةِ

كُنا نجُوبُ البَحرَ بالقَوارِبِ بَحثاً عن النّاجِينَ وكُنتَ أنتَ مِن بينِهم وأنتَ الآن في غرفَةٍ مِن غُرَفِ العلاجِ في السَّفينَةِ.

قَدَّموا لــي ملابِسَ وسَلَّمُوني لأحــدِ الطَّواشِينَ الذي بِدَورِه أعادَنــي إلى القَريَةِ، عُــدتُ والحمدُ للهِ إلى قَريَتي وبيتِي وأهلي عُدتُ ولَم يَعُد مَعيَ البانُوشُ ولا صُندُوقيَ الخَشَبــيُّ الذي ابتَلَعَهُ البَحرُ وابتَلَعَ مَعَهُ ثَروَتِي مِــنَ اللُّؤلؤِ ودَفتَرَ أشعارِي وسَألتُ عَن مَن كانَ مَعي مِنَ البَحّارَةِ فعَلِمتُ أنَّهُم فُقِدُوا وعُدتُ أبحَثُ عَن عَملٍ فبَحثتُ فقابَلتُ مَرزوق وها أنا ذا أعمَلُ بينَ يَدَيكَ يا عَمّي..

إبراهيم : يا الله، كَم هيَ مُحزِنَةٌ قِصَّةُ حامِد.

– نعَم يا إبراهيم ومِثلُها آلافُ القِصَصِ لِمَن ابتَلَعَ البَحرُ أقارِبَهُم ومراكِبَهُم وثرواتِهم كثِيــرونَ هُمُ الذِينَ تَــضَرَّروا مِن العاصِفةِ ليسَ في البحرِ فقط بــل وحتى في البَرِّ، يا حامِد :

– يا أبا عُمَير، هيَ المقاديرُ التي قَدَّرها اللهُ سُبحانَهُ وتعالى لَنا والحَمدُ للهِ أنَّكَ على قَيدِ الحياةِ تَعمَلُ وتُعيلُ أُسرَتَك يا حامد..

خَــلْ الــمِقاديرْ تَجــرِي بَامــر والَيها	واطــرَحْ هْمُومــكْ وثِــقْ بــالله تَسلِيها
وآمِــن بْحُكــم القَــضا لله سِبحانــه	الــمِسعِد نْفُوسِنــا بَامــرَهْ ومِشقِيهــا
ومْبايِــن الخَلْــق فــي أَنــواعْ سِيرَتْهم	وبْحِكمِتِــهْ مانِــع الأَشيــا ومِعطِيهــا
والنَّــاسْ أجنــاسْ فِيهُمْ طَيِّــبٍ زاكي	ذِكْــرِهْ جَميــلْ، وأهدافِــهْ مَعاليهــا

- هَل هذا مِن شِعرِكَ يا عَمّي..؟

- نعَم.

- ما شَاءَ اللهُ جميل باللهِ عَليكَ أنْ تَطلُبَ مِن خَمِيس أنْ يَنهَمَها بَعدَ الصَّلاةِ.

وبالفِعلِ بعــدَ الصَّلاةِ قامَ خَمِيسُ بإطــلاقِ صَوتِهِ الجَميلِ بتِلــكَ الأبياتِ فأبدَعَ وأطــرَبَ ثُــمَّ وُضِعَ العَشاءُ وما هــيَ إلّا ساعَة حتّى هَــدَأَت الأصواتُ وأَوَى كُلٌّ إلى مَخدَعِهِ فإذا بِصَوتٍ الغِيص مُحسِن يَقولُ مُداعِباً :

- عَمّي علي.

فعَلِمتُ أنَّهُ سَيُلقِي بِدعابَةٍ فَمُحسِن رَجُلٌ مَرِح فأجبتُهُ :

- نَعَم..؟

- بكرة من سيأكل لسان الخروف أنت ولّا حامد..؟

فتعالَت بَعضُ الضّحكاتِ فقالَ حامد :

- اللِّسان أكيد للشاعِر عمّي علي.

نَهرتُ مُحسن وقلتُ لَه :

- محسن.. تَعوَّذ من ابليس ونام.

- حاضر عمّي.

سادَ الهُدُوءُ والصَّمتُ إذا بزايد يَضحك مُحاولاً كَتمَ ضحكَتِهِ.

ابراهيم : ومَن هوَ زايد..؟

– زايد هُوَ السّيبُ الذي يَسوبُ على مُحسِن ويَنامُ قُربَهُ فقُلتُ لهُ مُنتَهراً إياهُ:

– زايد بلا ضحك دَعُونا ننام.

فقال وهو يضحَك :

– يا عمّي اليوم محسن لا يتكلم إلّا عن الخروف.

– يا محسن ستسكت ولا أربطك مع الخروف.

ضَجَّ البَحَّارَةُ بالضَّحكِ فقالَ مُحسن:

– بالله عليك يا عمي تسمع هذي القصَّة.

– قول ولا تكثّر.

وقَبلَ أن يَبدَأ مُحسِن قِصَّتَهُ لَـم يَتَمالَك زايد من كَتمِ مَوجَةِ الضَّحِكِ التي انتابَتهُ فنَهرتُهُ فقال :

محسن : هذا لا يتركنا نتكلم..؟

– خلاص يا زايد خلنا نسمع القصة.

– إن شاء الله.

قالَ محسن :

– في مرةٍ من المرات دَخَلتُ الغوص مع أجاويد مثلكم وشرواكم وعندهم خروف مثلكم.

– خروف مثلك يا التّعبان وحدة ثانية أربطك مع الخروف كمّل.

تَعالَت ضَحكاتُ البَحَّارَةِ..

– وكان معانــا ولد شاب أول مرة يدخــل الغُوص وخجول اسمه حفَيظ، في الليل والناس نايمــة راح صوب الخروف يقضي حاجَة ففزع منه الخروف وطاح بحر، خاف الولــد ورمى نَفسه ورا الخروف واحضنه وصاروا يلفون في البحر كلّن يبي يتنفس مرة نسمع مااِاء ومرة نسمع الحقوا علي وطبينا بَحَر وشلناهم.

تعالت ضحكات البحَّارة..

– خلاص نام وإذا سمعت صوتك مرّة ثانية رميتك في البحر مثل الخروف.

ضَحِكَ البَحَّارَة..

– إن شا الله، حاضر عمّي.

كانَتْ لَدَى مُحــسِن رُوحُ الدّعابَةِ فَهوَ يُلقِي النُّكاتِ والتَّعليقــاتِ اللَّطيفَةَ المرِحَةَ أحياناً والمزعِجَةَ أحياناً أخرى وقَد أوقَعَتهُ في المتاعِبِ فِعلاً.





فِي اليَومِ التَّالي دَبَّت الحَيــاةُ والحَرَكَةُ في السَّفِينَةِ عِندَما رَفَعَ خَمِيسُ أذانَ الفَجرِ وبَعدَ الصَّلاةِ قُمتُ بِذَبحِ الخَرُوفِ وطَلَبتُ مِن سُوَيد سَلخَهُ وتَقطِيعَهُ وعُدتُ إلى مَكانِي ومــا كِدتُ أن أصلَ إذا بالهَرَجِ والمــرَجِ خَلفِي وأصواتُ البَحَّــارَةِ تَرتَفِعُ فالتَفَتُّ فإذا سُوَيدُ يَلكُمُ مُحسِن فأمسَكَ بِهِما البَحارَةُ فُهرِعتُ إلَيهِم وصَرَختُ فِيهِم :

– بَس.

فسَكَتَ الجَمِيعُ والحَمدُ للهِ أنَّ عَمَلِيَّةَ الغُوصِ لَم تَبدَأ..

– يا مَرزُوق اربِطُوهُما في الصَّاري، يا جُمعَة، يا بخيت.

– نَعَم عَمّي.

– شُوفوا شغلكم مَعَ الخرُوف.

– إن شاء الله عمّي.

قامَ الرِّجالُ بِرَبطِ سُويد في الصَّاري فقالَ مرزُوق :

– ليسَ هناك مَكانٌ لِرَبطِ اثنينِ معاً في الصَّارِي يا عَمّي.

– إذن كتِّفُوهُ وضَعُوهُ قُربَ الصَّارِي.

فَربَطوا يَدَي مُحسِن ورِجلَيهِ ووَضَعُوهُ قُربَ الصَّاري..

إبراهيم : ومَن سُوَيدُ ومَن بَخيتُ يا عَمّي..؟

– سُويد وبَخيت مِن فرقةِ النَّهام خَمِيس أحدُهما للطَّبلِ والآخَرُ للطَّارِ. رُبِطَ محسن وسويد فقُلتُ :

– مَرزُوق.. أعطِني العَصا الخَيزران.. وارفَعُوا النُّوف.

– إن شاء الله عَمّي.

قالَ مُحسن :

– أنا لَم أضربِهُ هوَ الذي ضَرَبَنِي يا عَمّي.

فقالَ سويد :

– سبّني يا عمّي وأنا أسلخُ الخَروف وقالَ لي يا خَروف.

فرفَعتُ صوتي :

– بَس.

صَمَتَ كُلُّ مَن على السَّفِينَةِ فقلت :

– أهذا يَحدُثُ على سَفِينَتي..؟

ضَربتُ مُحسِن ضَربَةً بالعصا على فَخِذِهِ ضَربَةً قَوِيَّةً تَألَّمَ مِنها وصاح :

– آه، توبَة يا عمِّي.

ثُمَّ ضَرَبتُ سُوَيد بِقُوَّةٍ على فَخِذِهِ الأيسَرَ فكَتَمَ ألَمَهُ فضَرَبتُهُ أخرى قَوية على فَخِذِهِ الأيمَنِ فصاح :

– آه، توبَة يا عَمّي.

وجَّهتُ كلامِي لمحسِن :

– أنتَ يا مَلسُون لِسانُكَ هذا سَيُلقِيكَ في التَّهلكة.

ثم لِسُويد :

– وأنــتَ.. يَقُولُ كَلاماً بِلِسانِهِ فَتَرفَعُ يَدَكَ عَليهِ أتَــضرِبُ غَيصاً أتَضرِبُ مَن يُحضِرُ اللآلئَ ويَجلِبُ رِزقَكَ يا طَبّال أتَعرِفُ لَو عَوَّقتَهُ لَرَمَيتُكَ للأَسماكِ في البَحرِ اسمَعا بَعدَ قَلِيلٍ سَيأتِي مَبعُوثُ السِّردالِ ويَأخُذُكُما والحُكُومَةُ تَتَولى أمرَكُما.

قالَ سويد :

– توبَة يا عَمّي سامِحني.

فَضرَبتُهُ ضَربَةً قَويَّةً على فَخِذِه وقُلتُ لَهُ :

– خُذ هذهِ بَدلَ اللّكمَةِ التي لَكَمتَهُ إيّاها.

ثم قالَ محسن :

– توبَة يا عَمّي لا تُرسِلني للسِّردالِ.

وأردَف سويد :

– وأنا يا عَمّي أرجُوكَ لا تُرسِلنِي للسِّردالِ.

فَرَفَعتُ صَوتِي للبَحَّارَةِ :

– ما قَولكُم يارِجال..؟

فتَردَّدَت كَلِماتُ البَحارَةِ :

– سامِحهُما يا عمّي.

سَكَــتُّ انتِظاراً لأن يَسكُتَ الجَميع فبَــدأت الأصواتُ تَخفُتُ شَيئاً فشيئاً إلى أن سادَ صمتٌ مُطبِقٌ فأطلتُ الصَّمتَ وأجَلتُ نَظراتي بِحَزمٍ في الوُجُوهِ والعُيونِ لَم يَنبِس

أحدٌ بِشَفَةٍ وشَخَـصَت إليَّ الأبصارُ انتِظاراً للقَرارِ استَــدَرتُ للخَلفِ وخطَوتُ خُطوَةً واحِدَةً نَحوَ مكاني ثُم استَدرتُ نَحوَهم وقُلت لمحسن وسويد :

– حَسَناً.. سَأسامِحكُما على أن يُقَبِّلَ كُلُّ مِنكُما رَأسَ الآخَرِ وتَعِدانِني أن لا تَعُودا لمِثلِ هذا.

– وعَد يا عَمّي.

– وعَد يا عَمّي.

– فُكُّوا وثاقَهُما.

فَكَّ البَحَّارَةُ وثاقَهُما وقَبَّلَ كُلُّ مِنهُما رَأسَ الآخرِ وقَبَّلا رَأسي..

إبراهِيم : كُنتَ حازِماً جِدّاً مَعَهُما يا عَمّي.

– لابُدَّ مِن ذلكَ يا إبراهيم إنَّ قِيادَةَ مَجمُوعَةٍ قوامُها ثَلاثُونَ رَجُلاً تَتَطَلَّبُ الحَزمَ وإلّا عَمَّت الفَوضَى، وكانَ حُدُوثُ ذلكَ الموقِفِ في صالِحِي حَيثُ أعطى الجَمِيعَ صُورَةً لِعَدَمِ التَّهــاوُنِ ووجُوبِ العمَلِ بإخلاصٍ والتَّعامِلِ مَــعَ الآخَرينَ باحترامٍ وإلّا جُوزِيَ بالطَّــردِ مِنَ المجمُوعَةِ، وأنَّهُ فــي حالِ التَّمادِي في الوقاحَــةِ والاعتداءِ على حُرِّياتِ الآخرينَ فسَيكُونُ هناكَ عِقابٌ مِن القائِدِ، وإذا وصَلَ الأمرُ بالمستَهتِرِ إلى حَدِّ الجَرِيمَةِ فإنَّــهُ سَيُحالُ إلى الحُكُومَةِ والقَضاءِ لِيَنالَ جَزاءَهُ. لقَد أحسَستُ أنَّ ذلكَ الموقِفَ زادَ مِنَ التَّرابُطِ بَينَ البَحارَةِ وأنَّهُم جَمِيعاً شَعرُوا بِذلكَ خاصَّةً بَعدَ أن عَفوتُ عَن الرَّجُلَينِ، عادَ الرِّجالُ كُلٌّ إلى عَمَلِهِ وعُدتُ إلى مَكانِي فجاءَني مَرزُوقُ وناوَلني المنظارَ قائلاً :

– انظُر يا عَمّي هناكَ سَفينَةٌ مُقبِلَةٌ.

أخذتُ مِنهُ المنظارَ ورأيتُها فقُلتُ لَهُ :

– فِعلاً ولكِنَّها بَعيدَةٌ جِدّاً.

– هَل أُنزِلُ النُّوف..؟

– لا بِبُعدِهــا هذا قَد تَستَغرِقُ ساعَةً أو أكثَرَ وهــذا الوَقتُ يكفِي لأن يكُونَ الغَداءُ جاهِــزاً فَنُغَدِّيهــم ونكسَبُ فيهم أجراً. قُــل لِجُمعَةَ أن يَزِيدَ كَمِّيَّةَ الــرُّزِّ، وأنزِلُوا قَفَصَ السَّمكِ الكَبيرَ فقَد يكُونُ لَدَينا ضُيُوفٌ على الغَداءِ ونُقَدِّمُ لَهُمُ اللَّحمَ والسَّمَكَ.

فقالَ حامد :

– وأنا يا عَمّي أستأذِنُك في المساهَمةِ في الصَّيدِ.

– لا، مَرزُوقُ سَيتَصَرَّفُ فَلَديهِ رِجالٌ بارِعُونَ في الصَّيدِ أمَّا أنتَ يا أبا عُمَير فستَبقى مَعي هُنا وتَكتُبُ ما تَذكُرُهُ مِن أشعارِكَ التِي ابتَلَعَها البَحرُ.

– شورك وهداية الله يا عَمّي.

كانَ الرِّجالُ يَغوصُونَ وجُمعَةُ يَطبُــخُ يُساعِدُهُ بَخِيتُ وخَمِيسُ يُنشِدُ وسُويدُ يُطَبِّلُ ومَعَهُما صَقر وسَعيد وشَعبان.

إبراهيم : ومَن صَقر يا عمّي..؟

– صقــر هُوَ المساعِدُ لِسَعيد مَسؤولِ الأشرعَةِ والــصَّواري والحِبالِ والمرساةِ. أمّا مَــرزُوقُ فكانَ كالنَّحلَةِ في السَّفِينَةِ يَتَفَقَّدُ كُلَّ شَيء، فَبَعــدَ أن ألقى هُوَ وسُويدُ قَفَصَ السَّمَكِ بالقُربِ مِنّا ودَلَّوهُ بِحَبلٍ ربَطُوهُ بأحدِ الجَوانِبِ في مؤخرَةِ السَّفِينَةِ، أخذ يطُوفُ على الغَواصينَ والسَّيُوبِ ويَجلسُ قَلِيلاً قُــربَ جُمعَة يُحدِّثُهُ ثُمَّ يرقُصُ ويَقفزُ بالقُربِ مِن خَمِيس وجَماعَتِهِ ثُمَّ يأتي إلينا أنا وحامِد ويَستَمِعُ إلى الشِّعرِ.

مَــرَّت ساعَــةٌ تَقريباً فإذا بِمَرزُوق يَقفِــزُ فَجأةً إلى البَحرِ مِن الجِهَــةِ التي بِها قَفَصُ السَّمَكِ ثُمَّ خَرَجَ ورَفعَ صَوتَهُ وهُوَ في البَحرِ :

– يا سُويد، يا صَقر.

ذهَبَ إليهِ سُويدُ وصَقر وأخرَجُوا مَعَهُ قَفَصَ السَّمَكِ فإذا بِهِ سَمَكٌ كَثِيرٌ فَسألتُهُ :

– أبِهذهِ السُّرعَةِ، ما الذِي وضَعتُمُوهُ في القَفَصِ، ماذا كانَ طُعمُكُم..؟!

– مُخلَّفاتُ الخَروفِ.

اقتَرَبَــت السَّفِينَةُ البَعِيدَةُ مِنّــا فَطَلبتُ مِن مَرزُوق إيقافَ الغَــوصِ فتَوقَّفَ الرِّجالُ عَن العَمَــلِ وخَرَجَ الغَوَّاصُونَ مِنَ البَحرِ وبَدَأوا في تَجفِيفِ أنفُسِهم وتَبديلِ مَلابِسِهم استِعداداً للغَداءِ اقتَرَبَت السَّفِينَةُ أكثَرَ والتَصَقَت بِسَفينَتِنا كانَ بِها سِتَّةُ رِجالٍ لَم يَنزِل أحدٌ مِنهُم بَل تَقدَّمَ أحدُهُم وقالَ بصَوتٍ مُرتَفعٍ مَسمُوعٍ :

– السَّلامُ عَليكُم.

مازَجَ صَوتي أصَواتَ البَحَّارَةِ :

– عَليكُمُ السَّلام.

– أنا يوسف مَندُوبُ السِّردالِ.

فأشَرتُ إليهِ أن يَنزِلَ ويأتِي إليَّ :

– تَعال، حيَّاك أنتَ ومَن مَعَك.

نَزَلَ هُوَ واثنانِ آخَران بَدا عَلَيهِما أنَّهُما غَيرُ عَرَبِيَّين.

– حيّاكُم أنا النُّوخذة علي بن أحمَد وهذا حامِد تَفضَّلوا اجلسُوا.

قَدَّمنا لَهُم التَّمرَ واستَعَدَّ حامِد لأن يَسقِيهم القَهوَةَ..

– تفَضَّلوا.. مَن هؤلاءِ يا يُوسف..؟

– هــذا جون وهذا ديفد، باحِثانِ بريطانِيَّانِ مَبعُوثانِ مِنَ الحُكُومَةِ لِعَملِ إحصائيَّاتٍ عَن الخَليج.

– أهلاً ومرحباً رأينا سَفِينَتَكُم مِن بَعيدٍ ولكنَّكُم تَأخَّرتُم كَثيراً.

– نعَم يا سَيّد عَلي مَرَرنا على سَفِينَةٍ أخرى.

دارَ بَينَنــا حِوارٌ حَولَ أشياءَ كَثيــرَةٍ مُتَعَلِّقَةٍ بالغُوصِ والهيــراتِ وجُغرافيَّةِ المنطَقَةِ ومناخِها هُما يَسألانِ وأنا أُجِيبُ و يوسف يُتَرجِمُ ثُمَّ يُدَوِّنانِ ما أقولُ، سَألتُ يُوسف :

– هَل هُما يُؤلِّفانِ كِتاباً..؟

دارَ بَينَهُم حِوارٌ بالإنجليزيةِ ثُمَّ قالَ يوسف :

– يَقــولانِ إنَّها مَوسُوعَةٌ ولَيسَت كِتاباً واحِداً بِعُنــوان (دَلِيلُ الخَلِيج)، وهيَ ذاتُ شِقَّيــنِ تاريخِيٍّ وجُغرافِيٍّ ومَعَ أنَّ مُؤلِفَها ماتَ منذُ أكثَرَ مِــن خَمسةَ عَشَرَ عاماً إلّا أنَّ الحُكُومَةَ البِريطانِيَّةَ لَم تَسمَح بِنَشرِها للتَّداوُلِ حَتَّى الآن.

– ولِماذا لَم تُنشَر..؟

مَرةً أخرى دارَ حِوارٌ بَينَ يوسف وبينَهُما ثمَّ قال :

– يَقُــولانِ إنَّهُما ضِمنَ فَريقِ عَمَلٍ كَبيــرٍ لاستِيفاءِ بَعضِ المعلوماتِ لإضافَتِها إلى تِلــكَ الموسُوعَةِ فالمؤلِّــفُ جُون لوريمَر بَذَلَ جُهداً كَبيراً وسَنَــواتٍ عَدِيدَةً في جَمعِ المعلومــاتِ والتَّأليفِ لكِنَّهُ مــاتَ وقَد بَقِيَ جُزءٌ يَسِيرٌ جِدّاً لــم يستكمله. وهُما الآن

يقُومانِ بِإحصاءِ سُفُنِ الغَوصِ والطُّواشَةِ وأَعدادِ الرِّجالِ العامِلِينَ فِيها ومَحصُولِ اللُّؤلُؤِ فـي الموسِمِ وهُناكَ مَعلُوماتٌ أُخرى يُسَجِّلانِها كالقُـرى والموانئِ والجُزرِ في الخَلِيجِ وحَركَةِ التِّجارَةِ والقَرصَنَةِ وتِجارَةِ الرَّقِيقِ وإرسالِها لِلمُختَصِّينَ.

- نَحنُ حاضِرُونَ لأيِّ مَعلُوماتٍ يُرِيدانِها ولكن بِشَرط.

- وما هُوَ..؟

- أن تتَغَدّوا مَعَنا بَعدَ أن يَنتَهِيا مِن جَمعِ مَعلُوماتِهما.

تَحدَّثَ مَعَهُما يوسف وتَحَدَّثا مَعَهُ ثُمَّ قالَ :

- لا داعِي يا سَيّد علي ففي سَفِينَتِنا طَعامٌ أعدَّهُ البَحّارَةُ ولَدينا عَمَلٌ كَثِيرٌ .

- لا ضَيرَ دَعُوا ما عِندَكُم لِعشائِكُم وتَغَدوا مَعَنا.

وافَقُـوا على الغَـداءِ مَعَنا ثُمَّ أكمَلا تَدويـنَ أسئِلَتِهما وأجوبَتِـي واطَّلَعا على دَفتَرِ الحِساباتِ وحَصِيلَـةِ اللُّؤلُؤِ وسَألا بَعضَ البَحّارَةِ عَـن أعمالِهم في السَّفِينةِ وعَن قاعِ البَحر وما يُواجِهُونَهُ مِن مَخاطِرَ وسألُوا النَّهامَ وفِرقَتَهُ كيفَ يتَناغَمونَ مَعَ البَحارَةِ في رفعِ الشِّراعِ والمرساةِ والتّجديفِ ثمَّ طَلَبُوا بَحّاراً آخَرَ فنادَيتُ مُحسن :

- يا محسن.

- نعم يا عمّي .

- هؤلاء إنجليز سيسألونك عَن عَملك.

- أنا إيش عَرّفني إنجليزي يا عمّي.

- لا تخف، يوسف سيترجم كلامهم لك وكلامك لهم.

– حاضر.

– بس ها.. لا تقول لهم قصة الخروف.

فضحــكَ البحّارةُ فــسأل يُوسف وضيفاهُ عَن سَبب الضّحِــك.. فضَحِكتُ وقلتُ لمحسن :

– شفت.. ورطتنا معاهم.

– أنا إيش ذنبي..؟ إنت اللي قلت يا عمي.

– خلاص قول ليوسف وهو سيترجم.

وبَعدَ أن انتهَوا مِن مُحسن سَألَني جون عَن طَريقِ يُوسف :

– يقُولُ لكَ جُون ما سِرُّ هذهِ العَزيمَةِ التي تَجعلُكُم تَسبِرُونَ لُجَجَ البِحارِ وتُواجِهُونَ الأخطارَ بَحثاً عَن رِزقٍ قَد تَجِدُونَهُ وقَد لا تَجِدُونَهُ.

– قُل لَــهُ إنَّ الرِّزقَ بيَدِ اللهِ سُبحانَهُ وتَعالى خالِقِ الأكــوانِ ومُقَسِّمِ الأرزاقِ الحَيِّ الذي لا يَموتُ لا تأخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَــومٌ الواحِدِ الأَحَدِ الفَردِ الصَّمَدِ الذي لَم يَلِد ولَم يُولَــد.. هوَ الذي أمرَنا بالكَدِّ والعَمَلِ لِيَرزقَنا وهُوَ مُسَبِّبُ الأسبابَ وجَاعِلُ لِكُلِّ شَيءٍ سَبَبــا وعَمَلُنا رغمَ قَساوتِهِ وتَعَبِهِ هوَ سَبَبُ الرِّزقِ وهذا دَرسٌ للإنسانِ حَتى يَقتَصِدَ ولا يُبَذِّرَ ما يَحصُلُ عَلَيهِ مِنَ الرِّزقِ لأنهُ إن حصَلَ على المالِ بلا تَعبٍ بَعثَرهُ فيما لا يَنفعُهُ وإن حصلَ عليهِ بالمعاناةِ والكَدِّ حافَظَ عليهِ.

سادَ صَمتٌ فقُلتُ لِمَرزُوق :

– الغَداء يا مرزوق.

وُضِعَ الغَداءُ فَتَغَدَّوا ثُمَّ رَحَلُوا بَعدَ أن أبدوا سَعادَتَهُم بِزيارَتِنا.

٨ -

مَــرَّ اليَومُ عادِيًّاً إلــى المساءِ وعِندَما خَلَدَ الجَميعُ للنَّومِ لَــم يَترُك مُحسِن تَعلِيقاتِهِ ومُناكَفاتِــهِ قَبلَ النَّومِ ولكنَّهُ أبدى ملاحَظَةً مُهِمَّةً مِن واقِــعِ خِبرَتِهِ بقاعِ البَحرِ كغِيص فقال :

- عَمّي علي.

- نَعَم.

- الهير عود (كبير) وأنا أشوف بعد رايك عمّي نغَيّر مكانّا فيه.

فارتَفعَ أكثَرُ مِن صَوتٍ مُؤيِّدٍ خاصَّةً الغاصَة.

إبراهِيم : لماذا وكَيفَ يَتِم الانتِقالُ مِن وإلى نَفسِ الهير..؟

- الهِير (منطقــة الغوص) هُو مِنطَقَةٌ تَحتَ سَطحِ البَحرِ مُرتَفِعَةٌ عَن ما حَولَها وهي كبيرَةٌ قَد تَصِلُ مساحَةُ بَعضِ الهيراتِ إلى عِدَّةِ كيلُومِتراتٍ والتَّنَقُّلُ فِيها عَمَليَّةٌ مُعَقَّدَةٌ تتَطَلَّــبُ تَضافرَ خِبرَاتِ البَحّارةِ فالغاصَةُ يَعرفونَ قــاعَ البَحرِ وحَجمَ المنطقَةِ الصَّخرِيَّةِ ويَتَوقَّعُونَ حَجمَ وكَثافَةَ وجُــودِ المحارِ ومَسؤولُ الشِّراعِ يَعرِفُ اتِّجاهَ الرِّيحِ ويَتَوقَّعُ إلى أيِّ اتّجــاهٍ سَتَتَغَيَّرُ ويُفتَرَضُ أن يكُــونَ النُّوخذة على دِرايَةٍ بكُلِّ ذلكَ وبما أنَّ السَّفِينَةَ لا تَتَحَرَّكُ بالمحرِّكِ بَل بالشِّراعِ أو المجــدافِ فإنَّ العَمَليَّةَ تَبدأُ مِن أولِ الوُصُولِ إلى المــكانِ فَتُلقى المرساةُ التي يكونُ حَبلُها طَوِيلاً جِداً قَد يَصِلُ إلى ثَلاثِمائةِ مِترٍ ورُبَّما

أكثَــرَ، فإذا ثَبَتَت مُدَّ الحَبلُ لِمسافَةٍ مُعَيَّنَةٍ تَتَحَــرَّكُ فيها السَّفينَةُ بِفعلِ الرِّيحِ في قَوسِ دائــرَةٍ مركَزها المرساةُ، وتَكُــونُ السَّفِينَةُ مَشدُودَةً باتِّجاهٍ واحِدٍ فيَغُــوصُونَ، فإذا تَغَيَّرَ اتِّجاهُ الرِّيحِ تَغَيَّرَ مَكانُ السَّفِينَةِ فإذا أحسَّ الغاصَةُ أنَّهُم قَد مَسَحُوا المنطقَةَ مُدَّ الحَبلُ مَسافَةً أُخــرى وازدادَت مَساحَةُ قَوسِ الدَّائرَةِ وهكذا حَتّى يَشعُــرَ الغاصَةُ أنَّهُم جَنَوا مُعظَــمَ المحارِ في المنطقَةِ يُساعِدُهُم أيضاً طُولُ الحِبالِ بينَ الغيصِ والسَّيبِ. أمَّا إذا انتَهــى مَدى (الخراب) وهوَ حَبلُ المــرساةِ وأحَسُّوا أنَّ مَنطقَةَ الهيــر كَبيرَةٌ وأنَّ بِها مَحّــاراً لا يَصِلُونَ إليهِ فإنَّهُــم يُغَيِّرُونَ مَكانَ المرساةِ ويَأخُذُونَها إلــى مكانٍ أبعَدَ لسَبرِ مِنطَقَةٍ أخرى لِنَفسِ الهير، وتَغييرُ مَــكانِ المرساةِ يتَطَلَّبُ جُهداً كَبيراً مِنَ البَحّارَةِ ولَهُ طُقُــوسٌ خاصَّةٌ تُسمَّى (البريخة) وهوَ فَنٌّ يُصاحِبُ العَمَليةَ ويُساهِمُ فيهِ النَّهامُ وفِرقَتُهُ بتَوحِيدِ حَرَكَةِ البحَّارَةِ لِسَحبِ حَبلِ المرساةِ، وتَستَغرِقُ تِلكَ العَمَليَّةُ مُدَّةً طَويلَةً نَتيجَةً لِثِقَلِ السَّفينَةِ بِما عَليها مِنَ الرِّجالِ والمــؤَنِ وطُولِ الحَبلِ، وقَد تُستَخدَمُ المجادِيفُ لِمساعَدَةِ البحّارَةِ السَّاحِبينَ للحَبلِ لِجَرِّ السَّفِينَةِ نَحوَ المرساةِ ثُمَّ يَغُوصُ اثنانِ أو ثلاثةٌ لِتَحريرِ المرساةِ مِنَ الصُّخُورِ ورفعِها.

– إنّها مهمّةٌ صعبةٌ ومُرهِقَة لماذا لَم تَستخدموا السُّفُنَ التي تعمل بالديزل.؟

– السُّفُنُ التي تَعمل بالديزل (اللَّنشات) كانَت موجُودةً ولكِن مُعظَمَ سُفنِ الخليجِ كانَــت شِراعِيةً فمُنذُ اختــراعِ الآلاتِ بَدأ الإقبالُ على شِرائهــا وبدأت مصانِعُ العالمِ تكثُرُ شيئاً فشيئاً وتصنــعُ الآلاتِ بأحجامها المختَلِفَةِ للسُّفُــنِ والقِطاراتِ والمصانِعِ ولكنَّ سُفُنَ الغوص ظلَّت مُحتَفِظَةً بطابِعِها الشِّراعي خاصَّةً عِندما عارَضَت الحكومَةُ البريطانيــةُ استخدامَ سفــن الديزل في أمورِ الطّواشة والتِّجــارَةِ باللؤلؤ وقَد مُنِعَ عَمّي هَزيم من استخدامِها.

– وما دَخلُ عمِّكَ هزيم يا عمّي ..؟

– كانَ لــدى عمّي هَزيم عِدَّةُ سُفُن مِن بينِها (لنــش) وهي سَفينَةٌ تَعملُ بمُحَرِّك الدّيــزل أهداها إياهُ صَديــقٌ لَهُ مِن تُجّارِ الهِندِ فَخَشيَ تُجّــارُ اللُّؤلُؤِ أن يستَخدِمَها في الطّــواشة، فيَصلَ بِهــا إلى مراكِبِ الغــوص أسرَعَ مِنهم، ويستَحوذَ علــى الجَيِّدِ مِنَ اللُّؤلؤ، وفي قانُــونِ البَحر والغوص الذي حدَّدَتهُ الحكُومــةُ أنَّ الأولويةِ في المقايضَة بينَ الغواصيــنَ والطَّواشينَ تكُونُ لِمن يــصلُ أولاً لسفينةِ الغــوص حتى أنّ بَعضَ السُّفنِ كانَت تَنتَظِرُ إلى حينِ انتهاءِ التي قَبلَها، فشكوهُ للمَسؤُولينَ فَمَنَعَت الحُكُومَةُ تِلكَ السُّفُنَ التي تَعملُ بالدِّيزل مِــنَ الاستخدامِ في الطّواشة، وأرسلوا رِسالةً لعمّي هزيم بذلك.

في فَجر اليَومِ التّالي بَعدَ الصَّلاةِ دَبَّت الحَرَكَةُ على ظَهرِ السَّفِينَةِ ووُزّعَ التَّمرُ والماءُ على البَحّارَةِ ثُم تَأهبَ الجَميعُ لِسَحبِ المرساةِ رفَعَ مَرزَوقُ صَوتَهُ عالِياً :

– ميداف. (مجداف).

فتَــوَزَّعَ عَشرَةٌ مِنَ البَحّارَةِ على المجادِيــفِ بِحافَّتي السَّفِينَةِ خَمسَةٌ لِكُلِّ طَرَفٍ ثُمَّ رفَعَهُ أخرى :

– بريخة.

فاصطَفَّ ثَمانيةُ رِجالٍ آخَرُونَ طابُوراً واقِفِينَ مُمسكِينَ بحَبلِ المرساةِ سادَ الجَمِيعَ صَمــتٌ قَصيرٌ شَخَصَت فِيهِ عُيُــونُ البَعضِ إلى الجَوقَةِ التــي تَحَلَّقَتْ حَولَ خميس وفيهــا بخيت واضِعاً يَدَهُ اليُسرى علــى الطَّبلِ وفي يَدِهِ اليُمنى العَــصا، وسُويدُ وهُو

يُمسِكُ الطَّارَ، واثنانِ مِنَ البَحّارة أَمامَهُما جَحلَتانِ، وثالِثُ بيَدِهِ المرواسُ، وثَلاثَةٌ تَهَيَّأوا للتَّصفِيقِ، وأنا وحامِد على الفَنَّةِ (مؤخرة السَّفينةِ) نُراقِبُ ذلكَ المشهَدَ المهِيبَ.

هَوَت يَدُ بخيت بالعَصا مرَّتَين سَريعَتَينِ على الطَّبلِ ثُمَّ انطَلَقَت النَّغَماتُ والإيقاعاتُ في تَناغُمٍ عَجِيبٍ، وارتَفَعَ صَوتُ خَميــس شَجِيّاً يَنسابُ بَينَ الإقاعاتِ انسِياباً مُبهِراً، وفي نِهايَةِ كُلِّ جُملَةٍ موسيقِيَّةٍ يَضِجُّ كُلُّ مَن في السَّفِينَةِ بِصَوتٍ واحِدٍ :

– حِي.

يَضجُّونَ بصَرخةٍ واحدَةٍ تُوَحِّدُ حَركَتَهُم في سَحبِ المرساةِ وجَرِّ المجادِيفِ.

انتَقَلنا إلى مَكانٍ آخَرَ وكانَ اليَومُ الأوَلُ فيهِ يَوماً جَميلاً فالهَواءُ مُنعِشٌ وحَرارَةُ الجَوِّ أقَــلّ مِن سابِقِهِ والبَحرُ هادِئٌ وصافٍ، وجلَبَ الغَــاصَةُ حَصِيلَةً لا بأسَ بِها مِنَ المحارِ مَــعَ أنَّهُم غاصُوا نِصفَ الوَقتِ المقرَّرِ يَوميــاً فنِصفُ اليَوم قُضِيَ في تَحريكِ السَّفينَةِ. أمَّا اليَــومُ التالِي فَقد كانَ شَدِيدَ الحَرارةِ واكتَشَفتُ فِيــهِ أنَّ شَعبانَ إضافةً إلى مِهنَتِهِ كقَلّافٍ كانَ عارِفاً بالطِّبِّ الشَّعبِيِّ عارِفاً بالأدوِيَةِ والأعشابِ والأمراضِ وعِلاجِها وقَد عالجَ أحدَ الغاصَةِ واسمُهُ جَوهَر.

إبراهِيم : مَاذَا حَدَثَ لَهُ..؟

– في ذَلكَ اليَومِ القائِظِ الذي كانَــت حَرارَتُهُ لا تُطاقُ تتَصَبَّبُ مِنها أجسادُنا عَرقاً خَلَعــتُ ثَوبِي وقَفَزتُ إلى البَحــرِ أبتَرِدُ ثمَّ عُدتُ وعندَمــا أردتُ شُربَ الماءِ العَذبِ فــإذا بِخزّانِ الماءِ يَقتَرِبُ مِنَ النُّضُوبِ ارتَديتُ مَلابِسِي وجَلستُ في مكاني أتى إليَّ شَعبــانُ جَلَسَ واتَّكأَ على المسنَدِ قُربِي وأخذنا نَتَحَــدَّثُ ونأكُلُ التَّمرَ ونَشرَبُ القَهوةَ فَقُلتُ لَهُ :

– الماء الحلو اقترب أن يخلص يا شعبان.

– هــذا الموضوع الذي حبيت أكلمك فيه يا سيد علي اكتشفت أن الفنطاس فيه تسريب بسيط وأرى أن نطلب ماءً مِن الطَّواشين وبعد قَليل سأذهب لأصلح التسريب بما يساعدنا على الاحتفاظ بالماء إلى حين عَودتنا للبِلاد.

إبراهيم : هل الفنطاس هو خزان الماء ..؟

– نَعــم هو خــزان الماء وهو من الخشب وتُــسد الفَجَواتُ بينَ ألواحِــه كما تُسَدُّ الفَجوات بينَ ألواحِ السفينة.

وافَقتُ شَعبانَ على فِكرَتِهِ ثُمَّ قلتُ لَه :

– يــا شَعبان حدِّثني عَن السُّفُن وكَيفَ تَصنَعُونَها بِما يَجعلُها تَحمِلُ هذا الكَمَّ مِن الرِّجالِ لِعدَّةِ أشهرٍ وتُقاومُ أمواجَ البَحرِ وعَواصِفَهُ.

– يا سيد علي صناعَةُ السُّفــنِ قَدِيمةٌ قِدمَ الإنسان انظُر إلى الآياتِ الكريمة التي تَحدَّثــت عن سفِينةِ نُوح لَقــد ظَلَّ نُوح عليهِ السَّلام يَصنَــعُ سفينَتَه سِنينَ طَويلة وقَد قيــلَ إنَّ صناعَتها استغرَقَت ثمانينَ سنة لذلكَ مَدَّ اللهُ في عمرِ نُوح إلى ألف سنة إلا خَمسيــنَ وقِيلَ إنّهُ بَدأَ بزَرعِ الأشجارِ وجَمعِها مِــن الغابات القَريبة يساعدهُ في ذلك المؤمنونَ بــه ويَجمعون شحومَ الدَّوابِ التي يذبحونَها ويصنعونَ الفتائلَ والحبال مِن أليــاف النَّخل فكانَت سفينةً عملاقَةً حَمَلَت مِــن كُلٍّ زَوجَينِ اثنَين وقاوَمَت الطُّوفانَ حتى استوَت على الجودي، وتعاقَبَت خِبرةُ صناعَةِ السُّفن في الأجيالِ إلى أن صُنِعت السُّفنُ الحديديةُ التي تَحملُ آلافَ البَشر والبضائعَ وتَجُوبُ العالَم.

– صَحيــح ولكنني كَثيراً ما أفكِّرُ في الآيةِ الكريمــةِ ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ (سورة الشورى:٣٢)، فأبحَثُ عَن الإعجازِ والحِكمَةِ فيها فاللهُ سُبحانَهُ وتَعالى يُقسِم بأشياءَ عَظيمَةٍ وآياتٍ خَلَقها في الكَونِ كالشمسِ والقَمرِ والنُّجومِ واللَّيلِ والنَّهارِ والضُّحى والعَصرِ وهذهِ لَــم يَصنعها الإنسانُ فَهي فَوقَ طاقَتِهِ وقُدُراتِهِ أمّا السُّفُنُ فَهيَ مِن صِناعَةِ البَشَرِ فأينَ الحِكمَةَ والمعجِزَةَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ ..؟ وأَنتَ كَخبيرٍ في صناعَةِ السُّفُنِ فرُبَّما يكُونُ عِندَكَ جَوابٌ.

– المعجِــزَةُ يا سيِّد علي لَيــسَت في السُّفُنِ فإنَّكَ لَو وَضَعــتَ ماعوناً ووَضَعتَ بهِ بَعضَ الأحجارِ في البَحرِ لَطفا ولِذلــكَ استَمَدَّ البَشَرُ فِكرَةَ صِناعَةِ السُّفُنِ والمراكِبِ ولكــنَّ المعجِزَةَ في البَحرِ نَفسِهِ وما ذُكِرَتْ آيَةٌ عَن السُّفُــنِ أو الفُلْكِ إلا وذُكِرَ البَحرُ أو المــاءُ عُمُوماً مِثلَ الأنهارِ كالآيةِ التــي ذَكَرتَ وآياتٌ كَثيرَةٌ لا تَجدُ فيها ذِكرَ السُّفُنِ أو الفُلكِ ألا وذُكِرِ البَحرُ كقَولِهِ تعالى: ﴿ وَسَــخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَــخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰــرَ .. ﴾ (سورة إبراهيم:٣٢). إنَّ الآياتِ تَكمنُ فــي سَيرِ السُّفنِ في البَحرِ كالجِبالِ بأحجامِها وحُمُولاتِها فَهناكَ سُفُنٌ تَحمِلُ المئاتِ مِنَ الرِّجالِ والبَضائِعِ فتَــصَوَّر أن يَكُونَ ماءُ البِحارِ والأنهارِ كَثيفــاً ثَقيلاً كالعَسَلِ أو الزَّيتِ مَثَلاً فَهَل سَتَسِيرُ فيهِ السُّفُنُ وهَل سَيستَفيدُ البَشَرُ مما في أعماقِهِ أو تَخَيَّل أنَّ ماءَ البِحارِ والأنهارِ خَفِيف مُتَطايِر كَماءِ الطَّلِّ فَهَل سَتَطفُو عليهِ السُّفُنُ.

جاءَ مرزُوقُ وقَطَعَ حَدِيثَنا قائلاً :

– يا عَمِّ علي أستأذِنُكَ أن أعمَلَ بَدلاً عَن جَوهَر ويَسُوبُ عَليَّ سَيبُهُ سالم.

– لماذا..؟ ماذا حدثَ لَهُ..؟

– أصيبَ بِحُمَّى حَرارَتُهُ مُرتَفِعَةٌ ويَشعُرُ بالوَهَنِ ويَطلُبُ مِنكَ راحَةً حتّى يُشفى.

إبراهيم : أليسَ مَرزُوقُ غَيصاً بَعدَ أن تَعلَّمَ فلِماذا يَغُوصُ عَن جَوهَر..؟

– يُريــدُ أن يُغَطّي غِيابَ جَوهَر لِيتِمَّ احتِــسابُ المحارِ مِن ضِمنِ محارِ البَحّارَةِ ولا يُحتَسَبُ غِيابُ جَوهَر.

فَقُلتُ لِمَرزُوق :

– لا بأس.

فقالَ شعبان :

– اسمَح لي يا سَيّد علي أن أذهبَ وأراه.

– سأذهبُ مَعَكَ.

جَسَّ شَعبانُ جَبهَةَ جَوهَر وقال :

– حَرارَتُهُ مُرتَفِعَةٌ جدّاً.

– جوهر.. ما الذي أصابَك..؟

– لا أدري ياعمّــي، لَيلَــةَ البارِحَة وبعدَ صلاةِ العشاءِ حاولــتُ أن أنامَ فلَم أستَطع وعلى الرّغم مَن أنَّ حَرارةَ الجَو كانت مرتَفعةً لكنّني أحسست بالبُرودَةِ.

– يا شَعبان.. هَل هُناكَ مِن عِلاج..؟

– سَأحــاولُ تَخفيفَ حَرارَتهِ ولكن لا بُدَّ مِــن إعادَتِهِ إلى القَريةِ فهُنا قَد لا تَتَحسَّنُ حالُهُ ورُبَّما أعدى البَحّارَةَ، وفي القَريَةِ لَديَّ مِنَ الأدوِيَةِ والأعشابِ ما سَيشفِيهِ بإذنِ الله.

- مرزُوق ..ارفَعُوا النّوف.

- حاضر يا عمّي.

رُفِعَ عَلَمُ الطَوارِئِ وما لَبِثنا طَويلاً حتّى لاحَ لَنا مِن بَعيدٍ شِراعُ سَفِينَةٍ يَطفُو على سَطحِ البَحــرِ ثُمَّ يَغطِسُ فيهِ بسَبَبِ الأمواجِ إلى أن بَدا واضِحاً أنَّهُ يَقصِدُنا اقتربَ والتَصَقَت السَّفينَتانِ قَفَزَ إلى سَفِينَتِنا النّوخِذة خَلِيفَة وكانَ طَوّاشاً مَعرُوفاً عِندَ أهلِ البحرِ..

خليفة : السلامُ عَليكُم، كَيفَ حَالُكَ يا سَيّد عَلي..؟

- عَليكمُ السلامُ ورحمَةُ الله، الحَمدُ لله، حيّاكُم الله، القَهوَة يا مَرزُوق.

- خَيراً إن شاءَ الله..؟

- إن شاءَ اللهُ خيــراً.. يَنقُصنـــا الماءُ وبَعضُ الموادِّ التَّموينِيَّــةِ، ولدَينا مَريضٌ نُريدُ إعادَتَهُ إلى القَريَةِ.

- مَريض..؟ مَن هُو..؟ وما بهِ..؟

- غيص اسمُهُ جَوهَر.

- جَوهَر..؟ قد أعرِفُه.. أليسَ هوَ جارُ المؤذِنِ في قَريَتِكُم..؟

- نَعم هُو.

- وما بهِ..؟

- لَستُ طَبيباً هذا الطّبيبُ موجودٌ واسألهُ قُل لَهُ يا شعبان.

- حرارَتُهُ مُرتفِعةٌ وإذا اشتدَّ عليهِ المرضُ يَدخُلُ في حَالةٍ مِنَ الهَذَيانِ لذلَكَ أفَضِّلُ

أن نأخُـذَهُ إلى القَريَـةِ وهناكَ لَديّ بَعضُ الأدويةِ التي قَد تَشفِيـهِ بإذنِ اللهِ وقَد يكُونُ الكَيُّ آخِرَ سُبُلِ العِلاجِ.

قالَ خليفة :

– حَسَناً فأنا أيضاً أُريدُ العَودَةَ فقَد نَضَبَ ما عِندي مِنَ الزَّادِ والماءِ. قُل للرّجالِ أن يَنقلُوهُ إلى سَفِينَتي وسَأساعِدُكُم في الأجرِ، قُل لي يا سَيّد علي هَل لَدَيكُم لُؤلُؤٌ..؟

– نَعم ولكنّهُ قَلِيلٌ وبأحجامٍ صَغِيرَةٍ.

– لا ضَيرَ أرني ما عِندَكَ فَقَد آخُذُ بَعضَهُ وتَأخُذُونَ أنتُم ما تَحتاجُونَ إليهِ مِن الزادِ.

غَمَـزَ لي حامِدُ ففَهمتُ ما يقصِد وهوَ ما نَويتُه بِخُـصوصِ اللُّؤلُؤةِ الكَبيرَةَ وبالفِعلِ أَريـتُ خَليفَةَ اللُّؤلُؤَ الـذي استَخرَجناهُ، واحتَفَظـتُ باللُّؤلُؤةِ الكَبيـرةِ فابتاعَ بَعضَهُ، واشتَرَينا مِنهُ الماءَ والزادَ ثُمَّ رَكبَ سَفينَتَهُ وأبحَرَ وتَضاءَلَ شِراعُهُ شَيئاً فشَيئاً...



٩ -

لَقَــد أترَعَ النّوخذا خَليفة خَزّانَنا بالماءِ العَــذبِ ومَخزَنَنا في الخُنِّ بالطَّعامِ غَيرَ أنّ تَودِيــعَ اثنَينِ مِن طاقَمِ السَّفِينَةِ كانَ لَهُ وَقعٌ حَزينٌ علــى كُلِّ مَن عَلَيها خاصَّةً السّيبَ سالِمِ فقَــد ذَرَفَ الدُّموعَ على فَقدِ جَوهَر وعلى مَرَضِهِ افتَقَدَهُ بَعدَ أن كانَ يَسوبُ عَليهِ طَوالَ الأيــامِ الفائتَةِ مِنَ الرِّحلَةِ وكأنَّهُ في كُلِّ مَرَّةٍ يَسحَبُهُ فيهــا مِنَ البَحرِ يَنتَشِلُهُ مِن بَراثِــنِ الموتِ لِيُعِيــدَهُ إلى الحَياةِ إنَّ العَملَ قَد يُؤقلِم زَمِيلَيــن معَ بَعضِهِما خاصَّةً إذا كانــا يؤديانِ وَظيفَتَينِ مُتكامِلَتَين ناتِجُهما مَصلَحَةُ العَمَلِ فَجَوهَرُ يَغُوصُ وسالِمُ يَسحَبُهُ والقيــامُ بِهذهِ العَمَلِيَّةِ عِدَّةَ مرَّاتٍ فــي اليومِ على مدى أشهرٍ قد وَلَّدَت تَناغُماً وتَفاهُماً قَــد لا تُفصِحُ عَنهُ الكَلِماتُ ولكن تُفصِحُ عَنهُ القُلُوبُ وتُظهِرُهُ في التَّعامُلِ والتَّصرفاتِ يُلاحظُهُ القَريــبُ مِنهما في تَفضيلِ أَحَدِهما الآخَرَ على نَفــسِهِ في الطعامِ والشَّرابِ وغيرهــا مِن التَّعامُلاتِ. وعلى الرُّغمِ مِنَ الحُزنِ الذي خَيَّمَ عَلَينا جَميعاً بِغِيابِ جَوهر وشعبــان إلّا أنَّ العَمَــلَ كانَ دَؤوباً مُتَــواصِلاً الغاصَةُ يَغُــوصونَ والسُّيوبُ يَسحبُونَ، وجُمعَةُ الطّباخُ يَصطادُ السَّمَكَ، وخَمِيسُ النَّهامُ يُطلُقُ أَلحانَهُ الشَّجِيَّةَ الزّاخِرَةَ بالحُزنِ.

إبراهِيم : كما ذكرتَ يا عَمّي أنَّها رِحلةٌ مُحزِنَةٌ.

- لا يا إبراهِيم، لَم يَكُن فَقدُ جَوهَرَ وشَعبانَ أسوَأَ ما في الرِّحلَةِ.

- وكيف..؟

- بَعــدَ ذَهابِ جَوهرَ وشَعبــانَ استَمرّت الأمورُ على ما يُــرامُ وانتَقَلنا إلى أكثَر مِن

مَوقِعٍ في البَحرِ بَحثاً عَن أماكِنِ المحَّارِ وكانَت لَديَّ الخِبرَةُ مِن والِدي وإخوَتِي بِبَعضِ تِلــكَ المواقِعِ كما كُنــتُ أعرفُ شَيئاً مِن عِلمِ النُّجومِ وحرَكَــةِ القَمَرِ وقد كانت لَديّ (الدّيرة) وهــي بَوصَلةٌ كَبيرةٌ أستَخدِمُهــا لِمَعرِفَةِ الاتّجاهاتِ وبالتّالــي أُحَدِّدُ مَواقِعَ الهِيراتِ والبَنادِرِ والموانِىءِ والجُزُرِ فإذا كانَ المسرى لَيلاً حدَّدتُ الاتِّجاهاتِ بالدّيرةِ وبِمَواقِعِ النُّجومِ وأشهرُها (سهيل) وهــو نَجمٌ يُرى في أقصى الجَنُوبِ ولا يَرتَفِعُ إلى كبِــدِ السَّماءِ إنَّما يَدُورُ حَولَ نَفسِهِ لأنّهُ باتِّجاهِ القُطــبِ الجَنوبيِّ للأرضِ ولا يُرى في المــدُنِ كثيرَةِ الأنوارِ ولكَنّهُ في البَحرِ يَكُونُ واضِحاً جَميلاً إذا نَشَرَ اللَّيلُ رِداءَ الظَّلامِ علــى صَفحَةِ البَحرِ المتَرامِيةِ البُعدِ كالصَّحراءِ فهُناكَ تكُــونُ قُبَّةُ السَّماءِ كالثُّرَيّا التي عُلِّقَت فيها مَلايينُ المصابيح قُبَّــة لا تَرى فِيها فَراغاً بَينَ النُّجُومِ إلّا وفِيهِ نَجمَةٌ خافِتَةٌ أو نَجمَــةٌ بَرّاقَةٌ إلى دَرَجَةٍ تَصِلُ إلى القُدرَةِ على تَمييزِ الأشياءِ في الظَّلامِ الدَّامِسِ أمّا إذا احتَــلَّ القَمَــرُ صَدرَ السَّماءِ وتَمَّ بَدراً فإنَّ أضواءَهُ تُحيــلُ اللّيلَ إلى نَهارٍ وتتَراقَصُ أنوارُهُ على انكِسارات الأمــواجِ والإبحارُ عِندَها يَكُونُ مُمتِعاً ففي اللّيلِ بالإضافةِ إلى إضاءةِ القَمَــر للكَونِ فإنَّ دَرجَــةَ الحَرارَةِ تَنخَفِضُ، وسُفُنُ الغَــوصِ لا تُبحِرُ في اللّيلِ خَوفَ الاصطدامِ بأيِّ قطعَةٍ بحريةٍ ولكنَّها تُبحِرُ في اللّيالي المقمِرَةِ فالطَّريقُ فيها يَكُونُ واضِحاً.

فِــي لَيلَةٍ مُقمِرَةٍ وفي الهَزِيعِ الأخِيرِ مِنَ اللَّيلِ كانَ البَدرُ مُكتَمِلاً قَد انحَدَرَ من كَبِدِ السَّماءِ سابِحاً نَحوَ الأُفقِ الغَربيِّ آذِناً بِقُربِ فَجرٍ جَديدٍ كُنتُ أرَتّبُ على أشِعَتِهِ الفِضِّيَّةِ أشعــارِي والنَّسَماتُ العَليلَةُ تُداعِبُ أوراقِي والمرِكــبُ يَتَهادَى كالثَّمِلِ بأمواجِ البَحرِ الهادِئةِ.

– وكَيف تَكتُبُ يا عَمّي والمركِبُ يتأرجَح..؟

– لَقــد تَعوَّدنا يا إبراهِيم تَصَوَّر أنَّك تَعِيشُ شُهُوراً تتأرجَــحُ بِكَ الأمواجُ مَرَّةً بِشِدَّةٍ ومَرَّةً بِهُدُوءٍ لا بُدَّ للجِسمِ أن يَتَعَوّدَ نَعَم لَقَد تأقلَمنا وتأقلَمَت أجسادُنا في الحِفاظِ على توازُنِنا في تِلكَ الظُّروفِ حتَى أنَّنا إذا عُدنا إلى أوطانِنا ولامَسَت أرجُلُنا الأرضَ نَحتاجُ إلى وقتٍ لإعادَةِ تَوازُنِنا عَلَيها مَرَّةً أخرى.

في تِلكَ اللَّيلَةِ المقمِرَةِ وأنا أكتُبُ عَنَّ لِي أن أشرَبَ فِنجاناً مِن القَهوَةِ فقُلتُ بِصَوتٍ مَسمُوعٍ ولكنَّهُ لَيسَ بالعالِي خَوفاً مِن إيقاظِ النَّائمِينَ :

– مَرزُوق.

– نعَم يا عمِّي..؟

– أريدُ تَمراً وقَهوَةً.

– حاضر يا عَمِّي.

أحضَرَ مَرزُوقُ التَّمرَ وجلَسَ قُربي لِيَصُبَّ ليَ القَهوَةَ فسَألتُهُ :

– ما مَحصُولُ اليَوم مِنَ اللُّؤلُؤِ يا مرزُوق..؟

– سأحضِرُهُ لَكَ بَعدَ قِليــلٍ يا عمي، اثِنتانِ وثلاثُونَ لُؤلُؤةً، أربعٌ مِنها كَحَبَّةِ البازلّاءِ تَقرِيباً والباقي (سِحتِيتٌ) صِغارٌ.

– الحمدُلله.. قُل لِي يا مَرزُوق.. هَل تَعرِفُ شَيئاً عَن حرِكَةِ القَمَر..؟

– لا يا عمّي.

– انظُر إليهِ إنَّهُ قَمرٌ كامِلٌ كَبيرٌ يَمِيلُ إلى الغَربِ مُتَّجِّهاً إلى المغِيبِ، هَل تَعلَمُ مَتَى سَيُؤذِّنُ للفَجرِ..؟

– نعَم يا عَمّي، هذهِ أعرِفُها رُبَّما بعدَ دَقائقَ قَلِيلَةٍ سَيلُوحُ أوَّلُ خَيطٍ مِنَ الفَجرِ وسَيُؤذِّنُ خَمِيسُ لِصَلاةِ الفَجرِ.

– صَحِيحٌ، القمَرُ لا يكُونُ بَدراً إلّا عِندَما تَكونُ الشَّمسُ في الجِهةِ المقابِلَةِ لَه تَماماً فـإذا كانَ البَدرُ في الغَربِ كانَـت الشَّمسُ في الشَّرقِ وإذا غَرُبَـت أشرَقَ ولا يكونُ ذلكَ إلّا في مُنتَصَفِ الشَّهرِ الهِجرِيِّ، ونَحنُ الآنَ في مُنتَصَفِ شَهرِ ذِي القِعدَةِ، وبَعدَ أُسبُوعَينِ سَتَبــدَأُ العَشرُ الأَوائلُ مِن ذِي الحِجَّةِ ثامِنهُ يَـومُ التَّروِيَةِ وتاسعُهُ يَومُ الحَجِّ والوقُـوفِ بعَرَفة والعاشِرُ هوَ يَومُ عيدِ الأضحــى. وأنا يا مرزُوقُ أنوي إن شاءَ اللهُ تَعالى أن نَعُــودَ إلى البِلادِ في العَشرِ الأوائلِ وقَبلَ الحجِّ بِيَومٍ أو يَومَينِ ثُمَّ نَعُودُ إلى هُنا بَعدَ العِيدِ وسَنُبلِغُ السِّردالَ بِذلكَ.

إبراهيم : سَمِعتُ يا عَمّي أَنَّ رِحلَةَ الغُوصِ تَستَغرِقُ أربعَةَ أشهُرٍ.

– صَحِيــحٌ يا إبراهِيم، ولكنَّ بَعضَ سُفُنِ الغَوصِ تَعُودُ إذا استَدعى الأمرُ لِعدَّةِ أيامٍ ثُمَّ تَعُــود. والحقِيقَة أنّني اشتَقـتُ لأمِّ أحمَدَ ولابنَتِي كَما أنَّ للعِيــدِ الكَبِيرِ قُدسِيَّتَهُ عِندِي، فَأنا اعتَدتُ أن أُضَحِي وأذبَحَ أُضحِيَّتِي بِنَفسِي.

– إذا كانَ مَوسِمُ الغوص يُصادِفُ الحَجَّ فَهل يُصادِفُ رَمضانَ أيضاً..؟

– نَعم تأتي سَنواتٌ مُتتالِيَةٌ يَكُونُ فيها مَوسِمُ الغَوصِ في رَمضان فالفُصُولُ تتَعاقَبُ على أشهُرِ السَّنَةِ القَمَرِيَّةِ أما السَّنَــةُ الشَّمسِيَّةُ فتَكونُ الفُصولُ فِيها ثابِتةً تَقرِيباً بفارقٍ قليلٍ كُلَّ مائةِ عام.

– وهَل تُوقِفُونَ الغوصَ في شهرِ رَمضان..؟

– قَليلُونَ هُم الذينَ يتوقَّفُونَ عَن الغَوصِ في رَمضان، فالغوصُ مَصدَرُ رِزقِهِم.

– وهَل يَصُومُ أهلُ الغوصِ في رَمضان؟

– بَعضُهُم يَصومُ وبعضُهم يُفطِرُ ثمّ يَصومُه بَعد الموسم.

– وماذا حَدَثَ بَعد ذلكَ يا عمّي؟.

قُلتُ لِمرزُوق :

– قُل لِي يا بُو سَالمين ماذ قالَ لَكَ أبوكَ عَن البَحرِ..؟

فقال مرزوق :

– حَدَّثَني أبي عَن البَحرِ وقالَ :

– يا بُنَيَّ.. عِندَما كُنتُ صَغيراً لَم أَكُن أعرِفُ البَحرَ، كُنا نَعيشُ بَعِيداً عَنهُ، وكنّا في حالــةٍ مِنَ الفَقرِ والجُوعِ في إفريقيا وكُنّا نَعِيشُ عيــشَةً بِدائيَّةً في قَبائِلَ مُتناحِرَةٍ يَهجِمُ بَعضُها على بَعضٍ، ونَقتاتُ بِما نَصطادُ وبِما نُرَبّي مِن مواشيَ ودواجِن إلى أن جاءَ إلى قَريتِنا رِجــالٌ مِن جِلدَتِنا جَمَعُوا مِنّا تَحتَ تَهدِيدِ السّلاحِ عَشرَةً مِنَ الشَّبابِ كُنتُ أنا مِــن بَينِهم فأوثَقُوا أيدِينا وأرجُلَنا وأركَبونا فــي عَرَبتينِ كلُّ عرَبَةٍ يَجُرُّها حمارٌ وقالوا لَنا سَنأخُذُكُــم إلى الرَّئيسِ وسارُوا بِنا عِدَّةَ أيّامٍ وعِندَما وَصَلنا أدخَلُونا عَلى الرَّئيسِ فقالَ لَنا :

– أنتُــم شَبابٌ فاشِلُونَ لا تَشعُــرُونَ بِما يُعانيهِ أهلُكُم مِنَ الفَقــرِ والجُوعِ لا بُدَّ مِن تأديبِكُم.

أخرَجُونــا مِن عِندِهِ وربَطُونا في جُذُوعِ الأشجارِ وضَربُونا بالسِّياطِ ضَرباً مبَرِّحاً كانُوا يَفُكُّونَ أحدَنا بَعدَ ضَربِــهِ ويُبعِدُونَهُ قَليلاً ويَغُضُّونَ عَنهُ الطَّرفَ تَشجِيعاً لَهُ على الهَرَبِ فــإذا هَرَبَ ترَكُوهُ بَعضَ الوَقتِ لِيَطمَئنَّ لِهُروبِهِ حيثُ أنَّ ثكناتِهم كبيرَةٌ شاسِعَةٌ ولكنها مُــسَوَّرة ثُمَّ يقبِضونَ عليهِ ويأتُونَ بِهِ فيَربِطُونَهُ ويَضرِبُونَهُ أكثَرَ وأوجَعَ ويُعِيدُونَ مَعَهُ الكَرَّةَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ إلى أن يُقِرَّ بأن لا مَجالَ للهَرَبِ هكذا مَعَنا جَمِيعاً، بَعدَ عِدَّةِ أيامٍ كانُوا فِيها يُعطُونَنا الطَّعامَ والشَّرابَ ويُعيدُونَ مَن يَهرُبُ ويَضرِبُونَه أخَذُونا قَبلَ المغرِبِ إلى البَحرِ كان الرَّئيسُ هُناكَ قالَ لنا :

- سَنأخُذُكُم إلى أناسٍ أَغنياءَ تَعمَلُونَ لَدَيهِم وتَعيشُونَ حَياةً أفضَلَ.

أخذُونا في قــارِبٍ صَغِيرٍ على ثَلاثِ دُفعاتٍ إلى سَفينَةٍ خَشَبيةٍ شِراعِيَّةٍ تَبعُدُ قلِيلاً عَن الشَّاطِىءِ كانَ في القارِبِ رَجلانِ أحدُهُما مسَلَّحٌ والآخَرُ يُجَدِّفُ أما السَّفِينَةُ فكانَ بِها سِتَّةٌ مِنَ البَحَّارَةِ ثَلاثَةٌ مِنهُم مُسَلَّحُون.

عندَما رَكبَتْ آخرُ دُفعَةٍ مِنّا إلى السَّفينَةِ كانَت الشَّمسُ قَد غَرُبت وبَدا القَمَرُ كامِلَ الاستِــدارَةِ جَمِيلاً في الشَّرقِ، أبحَرت بنا السَّفينَةُ إلى جَزيــرَةٍ نائِيةٍ خالِيَةٍ مِنَ البَشَرِ سِوى سَفينَةٍ بَعِيدَةٍ رَاسِيَةٍ قُربَ الشَّاطىء قِيلَ لَنا إنَّها إحدَى جُزُرِ الخَلِيجِ ونَقَلُونا بسَفينَةٍ أخــرى إلى هُنــا، وهُنا اشترانِي العَمُّ أحمَــد فَكنتُ قَريباً مِنَ البَحــرِ كانَ العَمُّ أحمَدَ يُعامِلُني مُعاملَةً حَسَنَةً، وزَوَّجَني بأُمِّكَ أمَتِهِ أمِّ مَرزُوق فأنجَبَتكَ وأُختَكَ أمَّ سالِم التِي تَرَعرَعَــت وخَدَمَت ابنَتَهُ أمَّ عبدالله. كانَ السَّيد أحمَد رَجُلَ بِحارٍ بِكُلِّ مَعنَى الكَلِمَةِ، ورَحَلــتُ مَعَهُ في سَفراتهِ إلى أماكِنَ بَعِيدَةٍ وعَرَفتُ البَحرَ وخَبرتُ هُدُوءَهُ وثَورَتَهُ وكَرَمَهُ وشُحَّــهُ خَبَرتُ مَن يَعتَلــونَ أمواجَهُ مِن عابِرينَ خَيِّرينَ ومِــن قَراصِنَةٍ جَبّارِينَ. عَرَفتُ

كَيــفَ يَجِبُ أن نتَعامَلَ مَعَ البَحرِ في لَيلِهِ ونَهــارِهِ في سَطحِهِ وقاعِهِ في سُكُونِهِ وغَضَبِهِ عَرَفــتُ رَجالاً ابتَلَعَتهُم أمواجُهُ وكَواسِرُهُ. يا مَرزُوقُ إنَّ عَطاءَ البَحرِ كَثيرٌ وجَزِيلٌ وكُنُوزهُ وفِيــرَةٌ لكنَّ البَحرَ كالملُــوكِ والعُظَماءِ لَهُ نَصِيبٌ يَأخُذُهُ خاصَّةً مِــنَ الذِينَ لا يُتقِنُونَ التَّعامُلَ مَعَهُ يا مَرزُوقُ إنَّ للبَحرِ إتاوَةً.

– فِعلاً يا مَرزُوق إنَّ للبَحرِ إتاوةً.

– وما الإتاوَةُ يا عَمّي..؟

– الإتــاوَةُ هِي الجزيَةُ هيَ الضَّرِيبَةُ التي يأخُذُها الجَبابِرَةُ مِنَ المستَضعَفينَ، البَحرُ لَيــسَ مِنَ الطُّغاةِ ولا المستَكبِرينَ ولكنَّهُ كَبيرٌ وكَبيرٌ جِدّاً مَساحَتُهُ شاسِعَةٌ آفاقُهُ تُعانِقُ اللانِهايةَ كَبيرٌ في عُمقِهِ لُجَجُهُ الدَّاكِنَةُ سَحِيقَةٌ، فِيها ظُلُماتٌ بَعضُهَا فَوقَ بَعضٍ كَبيرٌ في كَرَمــهِ فعَطاؤُهُ لا يَنضَبُ ودُرَرُهُ لا تُقَدَّرُ بِثَمَــنٍ، وكَذلِكَ هُوَ كَبيرٌ في عُنفِهِ وغَضَبِهِ رِياحُ أعاصِيرِهِ هَوجاءُ وأمواجُه كالجِبالِ لا يَنجُو مِن بَطشِهِ إلّا مَن عَرَفَ طِباعَهُ ودَرَسَ مَناخَهُ وتَوقَّعَ رِياحَهُ وتَفادى مَخاطِرَهُ وخَبَرَ دُرُوبَهُ وبَنادِرَهُ ومَوانِيهِ.



-١٠-

ارتَفَـعَ صَوتُ خَميــس بــالأذانِ وشَقَّــت (اللهُ أكبَــرُ) صَدرَ الفَـضاءِ فاستَيقَظَ الغافونَ وتَمتَمت شِفاهُهُم بِذِكرِ اللهِ بادِئِينَ يَومَهُم بشَهادَةِ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وأنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ تَـوَضَّأ الجَميعُ وصَلَّينا الفَجرَ ثُمَّ قام البَحّــارَةُ يأكُلونَ التَّمرَ ويَشرَبُونَ القَهوَةَ ويَتَحادَثـونَ انتِظاراً لِشُرُوقِ الشَّمسِ التِي بَعَثَت حَرارَتَهــا قَبلَ طُلُوعِها فقَدَ كانَ ذلكَ اليَومُ حارّاً شَدِيدَ الرُّطُوبَةِ والهَواءُ فِيهِ ساكِناً وكأنَّهُ أمسَكَ بِهَبائِبِهِ حَتّى إشعارٍ آخَرَ.

أشرَقَت الشَّمسُ وارتَفَعَت وبَدَأَ العَمَلُ دَؤوباً في الغَوصِ وصَيدِ السَّمَكِ وجَلَستُ أنــا أرَتِّبُ دَفتَرَ أشعاري وأطلُبُ مِن خَميــس أن يَخفِضَ صَوتَهُ كُلَّما شَعرتُ أنَّهُ يُشَتِّتُ أفــكاري مَعَ أنَّ حامِد لم يَكُن بَعِيداً مِنّي يُدندِنُ بأشعارِهِ ولكن بِصوتٍ مُنخَفِضٍ جِداً، وبَينَما أنا كَذلكَ لاحَ لي مِن بَعِيدٍ قارِبٌ يُبحِرُ بلا شِراعٍ فَعَلِمتُ أنَّ بَحّارَتَهُ يَستَخدِمُونَ المجادِيــفَ لِسُكُونِ الهَــواءِ تَماماً وكانَ يَتَّجِهُ نَحوَنا ولَمَّا اقتَــرَبَ أكثَرَ لاحَ فِيهِ خَمسَةُ رِجالٍ اثنانِ يُجَدِّفانِ وثلاثَةٌ جالِسونَ فاقتَرَبَ أكثَرَ فَمَيَّزتُ الرَّجُلَ فإذا بِهِ صَديقي راشِد وهــوَ مِن قَريَتِنا ولي مَعَهُ قَرابَةٌ جاءَ بِقارِبِهِ من خَلفِ السَّفِينَةِ قُربَ الجانِبِ الذي أنا فيهِ وربَطَ رِجالُهُ القارِبَ في سَفِينَتِي وقالَ بِصَوتِهِ الأجَشِّ :

– السلامُ عَليكم كيفَ حالُكَ يا سَيِّد علي.

– الحَمدُ للهِ، كَيفَ حالُكَ يا راشِد تَفَضَّلْ حَياكَ، القَهوَةَ يا مَرزُوق.

أنزَلتُ لَــهُ السُلَّمَ الحَبلَ فصَعَدَ وجَلَسَ قُربي قَدَّمتُ لَــهُ التَّمرَ وأحضَرَ مرزُوقُ دَلَةَ القَهوَةِ فاستَلَمَها مِنهُ حامِد وجَلسَ قُربَنا قالَ راشِد :

– ما شاء الله يا سيد علي سفينَتُكَ عامِرة .

– الحمدُ لله.

– كُنتُ سأفعَلُ كَما فَعَلتَ بِتَركِكَ الطّواشة والعَمَل بالغوص.

– أنــا تَركت الطّواشة لأنَّ سفينَتي صغيرَة ولكن أنــت سفينَتُك ما شاء الله كبيرَة تَتــسع لخَزانات الماء وأكياس الرز والسكــر والتَّمر وعندك معها قارب تنتَقل فيه بين سُفُنِ الغُوص.

– صحيــح ولكنكَ تَعلم يا سيد علــي أنَّ العَمَلَ الكبيرَ يحتاج إلى جُهدٍ كَبير، في هــذا الموسم أحضرت ثلاثمائة كيس رُز وكان الطَّلبُ على الرُّز كثيراً جداً هذه السّنة وبعــتُ مِنهُ الكثيرَ وخاصةً أنَّ سفينةً من الكويــت مروا بي وطلبوا مني عشرينَ كيساً كانــت آخر عشرين كيسًا عِندي فاضطرِرت إلى الذَّهاب إلى بَندَر عَباس لأَخذ كَمية مِن الرُّز لباقي الموسم هذا لأبين لكَ الجُهدَ والمشقَّةَ في الطّواشة أما أنتم الغواصُون فتَظُّلــون في مكانِكم من أولِ المــوسم إلى آخِره ونَحنُ نتَنَقَّل هنــا وهُناك بين الهند وفارس وعمان ومن بندر إلى بندر.

وقال وهو يضحك :

– لنوفّرَ لكم مؤونَتكم.

فأجبتُهُ ضاحِكاً :

– ليسَ مجّاناً.

ضَحِكنا ثُمَّ قالَ :

– أينَ شَعبان أَلَم يَدخل مَعك هذا الموسم كأني رأيتهُ مع رجالِكَ يومَ الدَّشّة..؟

- بلى ولكن مَرضَ عِندَنا جوهر فاضطرَّ شعبان أن يَأخُذَهُ إلى القَريةِ ويُعالجَهُ هُناك.

- خير، ماذا أصابَ جَوهَر ..؟

- أصابَتــهُ سخُونة وأظنُّها بوصفار (الحمّى الصَّفــراء) فرَفعنا النّوف فَجاءَنا خَليفة وأخَذهما واشتَرى منّي لؤلُؤاً وأنا اشتَريتُ مِنهُ ماءً وزاداً لبَحَّارَتي.

- هَل عِندَكَ لُؤلُؤ..؟

- طَبعاً.

- أرِني.

فَتَحتُ البيشتخته وأخرَجتُ كِيسَ القِماشِ الذي بِهِ اللُؤلُؤُ وأريتُهُ إياهُ فقال :

- ما شاءَ اللهُ، ولكن ألَم تَحصُل إلا على دانَةٍ واحِدَةٍ..؟

- الحَمدُ للهِ الأيامُ مُقبِلَةٌ والرِّزقُ آتٍ إن شاءَ اللهُ.

- وكَم تَطلُبُ فيها.

- نَحنُ أقرباءُ وما عِندِي عِندَكَ أعطِها سِعراً وخُذها.

- جَزاكَ اللهُ ألفَ خَير أريدُ تَقيِيمَكَ أنتَ لِهذِهِ اللؤلُؤة.

- ثَمانِيَةَ عَشَرَ ألفَ روبّيَّةٍ ولكِن لكَ أنتَ فبِما تُعطيها مِن سِعر وما بَيننا خِلافٌ..!.

- أعلَــمُ موَدَّتَكَ وصداقَتَكَ لي يا سيد على فنَحــنُ أهلٌ وهذا ما جِئتُكَ مِن أجلِهِ هــذهِ الدَّانةُ قَد يكُونُ سِعرُها اليــومَ أحدَ عشَرَ أو عَشرةَ آلافٍ ولكن بَعدَ عِدَّةِ أشهُرٍ قَد تَكونُ بِثمانِيةٍ إذا لَم تَكُن بِخَمسةٍ سُوقُ اللُّؤلُؤِ يَنهارُ يا سَيِّد عَلي.

- هَل بِسَببِ الحَربِ ..؟

- لا .. لَيــسَ بِسَببِ الحَربِ ولكــنَّ اللُّؤلُؤَ الصِّناعيَّ اليَابانِيَّ اكتَــسَحَ السُّوقَ وأنا تَوجَّهتُ تَوجُّهاً آخرَ.

- وما هُو..؟

التَفتَ راشِدُ يَميناً وشِمالاً وقالَ :

- يُفَضَّلُ أن نتَحَدَّثَ على انفِرادٍ.

أحسَّ حامِد أنَّ راشدَ يَعنِيهِ فابتَعَدَ فقالَ راشِدُ بصَوتٍ مُنخَفِضٍ :

- تِجــارَةُ الرَّقِيقِ يا سَيد علــي هيَ التِّجارَةُ التي مَهما حَاوَلُــوا مَنعَها فَهِيَ مُستَمِرَّةٌ وباقِيَةٌ بَقاءَ البَــشَرِ ما دَامَ هُناكَ فَقرٌ ومَجاعَةٌ وجَهلٌ إنَّ سَواحَــلَ إفرِيقيا مَلِيئَةٌ بِثكناتِ بَيعِ البَشَرِ وفي ظِلِّ المنعِ وَصلَ الطَّلَبُ على الرَّأسِ الواحِدةِ عَشرَةَ آلافِ رُوبيَّةٍ والبَيعُ لا يَزِيدُ على الألفي روبِّيةٍ ولَكَ أن تَتَصَوَّرَ الفائدَةَ.

سَكَتَ راشِد قَليلاً ثُمَّ أردَفَ :

- سَيِّد عَلي إيشْ لِي مِنّكْ..؟

- كلي لك آمر وابشِر بِسعَدِكْ.

- أتَمَنّى أنَ نَشتَرِكَ في هذا الأمرِ في المطراشِ القادِمِ لأنَّ انهيارَ سُوقِ اللُّؤلُؤِ يَعنِي أنتهاءَ الغُوص ولن تَستَطيعَ أن تَتَحَمَّلَ أعباءَ خَسارَته.

- تَمام ولا يهمّك.

- أنــا الآنَ عِندي في سَفينَتي عِشرُونَ رَجُلاً مِــنَ الرَّقيقِ ثَمانيَةَ عَشَرَ مِنهُم لِثَلاثِ جِهاتٍ مُختَلِفَةٍ واثنانِ لِقَريَتِنا وهُما اللذانِ تَراهُما أحضرتُهُما في القارِبِ الصَّغيرِ ولأنَّني عَلِمــتُ مِن يُوسفَ مَندُوبِ السِّردالِ والــذي زارَكَ قَبلَ أيامٍ أنَّكَ تَنوي العَودَةَ لقَضاءِ العيدِ في القَريَةِ ثُمَّ الرُّجُوعِ إلى الغَوصِ رَأيتُ أن أترُكَهُما مَعكَ لِتأخُذَهُما إلى صاحِبِنا التّاجِــرِ بوهاشِم فَقَد تَأخرتُ عَليهِ كثيراً كَما أنَّ مِشوارِي الآنَ إلى الهِندِ وكما تَعلَمُ هوَ طَريقٌ بَعيدٌ فَما رَأيُك..؟

- تَمَّ يا أخي لا تَحمِل هَمّاً.

مدَّ راشِدُ يَدَهُ إلى جَيبِهِ وأخرَجَ كِيساً بِهِ نُقُودٌ وقال :

- وهذِهِ خَمسُمائةِ رُوبِيَّةٍ هي أُجرَتُكَ.

- وهل تَعتَقِدُ أنّي سآخذُ مُقابلاً لِمُساعَدَتِي لَكَ..؟

- طَبعاً فَهذا جُزءٌ مِن تَوصيلِهِما ضِمــنَ سِعرِهِما كما أنَّهُما سَيظلّانِ مَعَكَ يأكُلانِ ويَشربانِ.

- حَسناً لَن أرُدَّ يَدَكَ ولكِن تَغدَّ معي.

- طيِّب.

أعطاني المالَ ثُمَّ رَطَنَ على الرَّجُلَينِ فَركِبا في سَفِينَتي فقُلتُ لَه مُمازِحاً :

- ما هَذا..؟ مَتى تَعلَّمتَ لُغَتَهُم..؟

قالَ وهُوَ يَضحَكُ :

- يا رَجُل خَلها عَلى الله تعَلّمت كَلِمَتينِ مِن تُجّارِ الرَّقيقِ.

تَغدّى راشِد ورَكِبَ قارِبَهُ ورَحَلَ وتَرَكَ الرَّجُلَينِ معَنا.

لَـم يَتأقلَم الرَّجلانِ اللذانِ تَرَكَهُما راشِد معَ البَحّارَةِ بِسُرعَةٍ كانَ يبدُو عَليهِما أَنَّهُما يُحِـسّانِ بالغُربَةِ لا يَعرفانِ أيـنَ أُلقِيَ بِهِما تفضَحُهُما في ذلـكَ نَظَراتُهُما التي تُوحِي بالاغتِرابِ وعَدَمِ الاستِقرارِ تُوحِي بِما يَدُورُ في خَلَدِهِما مِن تَساؤلاتٍ حَولَ مَصِيرِهِما المجهُـولِ نَظَراتُ تَرَقُّبٍ لأيِّ كَلِمَةٍ قَد تَرسِمُ لَهُمـا مُستَقبَلاً غامِضاً يَحمِلُ إمّا سَعادَةً أو شقـاءً نَظَراتٌ تَفُوحُ مِنهـا رائحَةُ الحَنِينِ إلى الوطَنِ هَـل سَيَعُودانِ إليهِ أم لا؟ هل سَيجتَمِعـانِ بالأهلِ والأحِبَّـةِ أم لا ؟ والشَّيءُ الأكِيدُ هوَ أنّهمـا يَعلَمانِ أَنَّهُما أصبحا في نَيـرِ العُبودِيَّةِ، وأصبَحا سِلعَةً يتَداولُها الأغنِياءُ، وأَنَّهُمـا لا يَستَطِيعانِ الهَرَبَ خَوفاً مِـنَ العِقابِ، وكَيفَ يَهرُبانِ فهما لَم يَستَطيعا الهَرَبَ فـي بَلَدِهما وبَينَ أبناء جِلدَتِهِما فهل يَستَطيعـانِ الهَرَبَ في بلَدٍ غَريبٍ؟ وحتّى إن هَرَبا فإلـى أين سَيذهبانِ ووَطَنُهما وأهلُهمـا بَعِيدُونَ وبَينَهما وبينَهم بِحارٌ شاسِعَةٌ وغابـاتٌ مُوحِشَةٌ؟ وسيُعادانِ ويُضرَبان هـذا هو قَدَرُهما الذي لابُدَّ أن يَتأقلَما مَعه ويَرضَيـا بِهِ فعسى اللهُ أن يَكتُبَ لَهما فَرجاً وقَـدَراً آخَرَ، نَعم إنَّهُ الأمـلُ والرّجاءُ فَكم مِن مملُوكٍ تَحرَّرَ وحالَفَـهُ الحَظُّ وارتَقَت بِهِ سُبُـلُ الحَياةِ إلى الرَّفاهيَةِ ورَغَدِ العَيشِ إنَّ مَـن صَبَرَ على ما كَتَبَهُ الله لَهُ رَفَعَ اللهُ شَأنَهُ ويَسَّرَ لَهُ مَعيشَةً أفضلَ وأثابَهُ أجراً كبيراً ومَن تَذَمَّرَ وأعرَضَ قَبَعَ في ذُلِّهِ وهَوانِه، مَشاعِرُ قَرَأتُها في عَينَيهِما كانا جالِسَيـنِ غَيرَ بعِيدَينِ عَنِّي فنادَيتُهما وأجلَستُهُما قُربِي حَاوَلنا أنا وحامِدُ أن نَتَفاهَمَ مَعَهُما ولَم نَجِد صُعُوبَةً في ذلكَ فهُما يَتحدَّثانِ العَرَبِيَّةَ المكَسَّرَةَ، وحامِـدُ لَدَيهِ مَعرِفَةُ باللُّغَةِ السَّواحِيلِيَّةِ المنتَشِرَةِ في بَحرِ عُمان وسَواحِلِ إفريقيا فعَرَفنا اسمَيهِما وهُما ياقُوتُ ويُونس.

-١١-

مَرَّت الأَيَّامُ والرِّجالُ يَعمَلُونَ بِجِد وتَفانٍ كانَ مَحصُولُ اللُّؤلُؤِ فِيها لا بَأسَ بِهِ وبِعتُ مِنــهُ على الطَّواشِينَ مــا يُغَطِي تكالِيفَ الرِّحلَةِ بأربَعَةِ أضعــافٍ أو يَزِيد واقتَرَبَ مَوعِدُ العِيــدِ واقتَرَبَ مَعَهُ مَوعِدُ الرُّجُوعِ إلى القَريَــةِ كانَ العَمَلُ مُتَواصِلاً ولكنَّهُ كانَ رُوتِينياً أيامُــهُ مُكَرَّرَةٌ الصَّحوُ في الصَّباحِ وأكلُ التَّمرِ وشربُ الماءِ والغَوص والفَلقُ وفي اللَّيلِ العَشاءُ والسَّمَرُ والغِناءُ ثُمَّ المناكفاتُ والمداعَباتُ قَبلَ النَّومِ.

قَبلَ الرُّجُوعِ بيومَينِ كانَ الفَجــرُ ضَبابِيّاً إلى دَرَجَةِ أنَّ الجالِسَ في مُؤخرَةِ السَّفِينَةِ لا يَرى مُقَدِّمَتَها وفي مِثلِ هذِه الأجواءِ يكُونُ القاعُ مُظلِماً فانتَظَرَ الغَاصَةُ حتى ارتَفَعَت الشَّمسُ وانخَفَضَت كَثافَةُ الضَّبابِ فقُلتُ لِمَرزُوق :

– أُريدُكَ أن تُهيِّءَ البَحَّارَةَ لِأن يَسمَعُوني.

– حاضِر يا عَمِّي.

صَفَّقَ مرزُوقُ عِدَّةَ مرَّاتٍ ونادى في البَحَّارَةِ :

– يا جماعَة اسمعُوا النُّوخذة.. اسمعُوا النُّوخذة.

جَلَسَ الجَمِيعُ وعَمَّ الهُدُوءُ فَوَقَفتُ وقُلتُ :

– ما قَصَّرتُوا يا جماعَــة أدّيتُم اللّي عَليكُم وزيادَة بَعد بُكرَة إن شاءَ الله سَنعُودُ إلى البِــلادِ لِمُدَّةِ أربَعَةِ أيامٍ أُجرَتُكُــم فِيها وفِي الأيامِ الفائِتَةِ مِن الغُــوصِ مَدفُوعَةٌ وفَوقَها

عِشرُونَ رُوبِّيَّةً لــكُلِّ واحِدٍ مِنكُم سَنَصِلُ هُناكَ بإذنِ اللهِ في مَساءِ يَومِ التَّروِيَةِ فَصُومُوا عَرَفَةَ وعَيِّدُوا مَعَ أهلكم ولكن أُريدُ منكُم أن تَكُونُوا جَمِيعاً مُتَواجِدِينَ في السَّفِينَةِ فَجرَ رابِعِ العِيدِ وفَّقَكُم الله.

ما إن أنهَيتُ كَلامِي حَتّى تَرَدَّدَت عِباراتُ الشُّكرِ :

– ما قَصَّرت يا عمّي.

– جزاك الله خير يا عمّي علي.

فقالَ مُحسن :

– عمّي عَلي العِشرين روبِّيّة اللي ستعطيها سويد اعطني إياها بدال ما ضَرَبني.

ارتفَعَت ضحكاتُ البَحّارَةِ..

– أنت ما لك إلّا عَشر روبّيات لأنَّك عزُوبي.

– لا.. خلاص يا عَمّي توبَة.

بَــدَأَ العَمَلُ وبَدَأَ الهَواءُ يَتَحَرَّكُ بَعدَ سُكُونٍ ونَسَماتُهُ تَهُــبُّ شَيئاً فَشَيئاً مُعلِنَةً بِدايَةَ حَرَكَةِ جَزرٍ جَدِيدَةٍ.

إبراهيم : أوَ تَعرِفُونَ المدَّ والجَزرَ مِن حَرَكَةِ الهَواءِ..؟

– طَبعاً لقَد تَمازَجنا مَعَ تِلكَ البِيئَةِ عَرَفنا شَمسَها مَتى تَشتَدُّ وتَقسُو وتَلفَحُ الأجسَادَ بِلَهيبِهــا في الصَّيفِ، ومَتى تَميلُ وتَحنُو وتَبعَثُ الدِّفءَ في أيّامِ الشِّتاءِ. وعَرَفنا قَمَرَها ومَنازِلَهُ مَتى يَكونُ عُرجُونــاً هَزِيلاً مُبَشِّراً بِولادَةِ شَهرٍ جَديدٍ ومَتى يَكُونُ قُرصاً عِملاقاً

يَفرِشُ بِساطَ ضِيائِهِ الفِضِّيَّ على صَفحَةِ البَحرِ فتَتراقَصُ الأمواجُ بَهجَةً وحَنِيناً للأحِبَّةِ الغافِينَ وراءَهُ وعَرَفنا نُجُومَها التي تَبعَثُ في اللّيالي الحالِكةِ الرَّهبَةَ والخُشوعَ لجَبروتِ الخالِقِ العَظِيمِ عَرفناها كَثِيرةً لا تُحصَى وكأنَّها جَواهِرُ تُرَصِّعُ قُبَّةَ السَّماءِ وعَرَفناها نَجمَةً واحِدَةً مُتألِّقَــةً في الأُفُقِ وكأنَّها قائِدٌ يَتَقَدَّمُ جُيوشَهُ أولَ المساءِ ويَصرِفُهُم ثُمَّ يَنصَرِفُ في الصَّباحِ عَرَفنــا الرِّياحَ بِكُلِّ دَرَجاتِ هبُوبِها واتّجاهاتِهــا مِن سُكُونِها حتى عَصفِها وأعاصِيرِهــا وعَرَفنا البَحرَ بِفيافِيهِ الشاسِعَةِ ولُجَجِهِ السَّحِيقَــةِ وتَشَرَّبَت مِلحَهُ أجسادُنا وعُيُونُنا وشَرِبنا الماءَ العَذبَ مِن كَواكِبِ أعماقِهِ.

ذلكَ اليَــومُ كانَ البَحَّارَةُ فيهِ فــي أوجِ نَشاطِهِم يتَبادَلونَ كَلِمــاتِ المزاحِ ويُدَندِنُ بَعضُهم مَــعَ خَميس بأشعارِه ثُمَ يَقفزُ إلى البَحرِ في خِفَّةٍ هكــذا همُ البَشَرُ يَضحَكُونَ لاهيــنَ لا يَتَوقَّعُونَ ما يُخبئُه لَهم الزَّمنُ مِن مِحَنٍ ومَصائِــب، ولا يَهجِمُ علَيهِمُ الحُزنُ والألَمُ إلا في قِمَّةِ فَرحِهــم يُفاجِئهم وكأنَّهُ يُعاقِبهم على سُرُورِهم وأنسِهم فينقَضُّ كما ينقَــضُّ الكاسِرُ على فَريسَتِــهِ وبقَدرِ ما كانَ ذلكَ اليومُ سَعيداً فــي بِدايَتِهِ كانَ حَزِيناً مُؤلِمــاً ليسَ فــي نِهايتِهِ فَحسب بل في كُلِّ ما بعدَهُ مِن زَمــن فَبَعدَ ساعَةٍ مِنَ الغُوصِ صاحَ السّيب سالِم :

– يريور، يريور ضَرَبَ مَرزوق. (قرش)

فإذا بالرِّجالِ تَتَقافَزُ في البَحرِ فهُرِعنا أنا وحامِدُ إلَيهِم رَفَعَ الرِّجالُ مَرزُوقَ إلى سَطحِ السَّفِينَةِ فإذا الدِّماءُ تَسِيلُ مِن خاصِرَتِهِ اليُسرَى بَغزارَةٍ لَقَد نَهَشَ القِرشُ خاصِرَتَهُ فَبَدا جُزءٌ صَغيرٌ مِن عِظامِ ضِلعَينِ عارِياً عَنِ اللّحمِ والدِّماءُ تنزِفُ مِنهُ هُرِعَ جُمعَةُ إلى مَوقِدِ النَّارِ وجلَبَ كَمِّيَةً مِنَ الرَّمادِ حاولَ نَثرَها على جُرحِ مَرزُوق فَنَهاهُ حامِد :

– لا حَولَ ولا قُوَّةَ إلا باللهِ، هل عِندَكُم مَسحُوقُ قُشُورِ الرُّمانِ..؟

قالَ خَميس :

– نَعَم عِندي.

– هاتِهِ وضَمِّدُوا بِهِ الجُرحَ.

تَمَّ تَضمِيدُ الجُرحِ ولَفَفنا جِسمَ مَرزوق أسفَلَ الصَّدرِ بِقطعَةِ قِماشٍ..

مُحسِن : سلامات سلامات يا مَرزُوق.

سالِم : سلامات يا مَرزُوق.

كانَت عَينا مَرزُوق تَدورانِ فِي وجُوهِ البَحَّارَةِ ولكَنَّهُ لا يَتَكَلَّمُ ولا يَرُدُّ عَليهِم مِن هَولِ الصَّدمَةِ فقلتُ للبحارَةِ :

– خذُوهُ إلى مؤخِّرَةِ السَّفِينَةِ وهَيِّئُوا لَهُ مَرقَداً قُربَ حامِد أوقِفُوا العَمَلَ وواصِلُوا بَعدَ ساعَــة فَرُبما تَكُونُ هناكَ أسماكُ قِرشٍ أُخرى يَجذِبُهــا انتِشارُ الدَّمِ في الماءِ وغَداً في الفَجرِ سَنَعُودُ إلى القَريَةِ بإذنِ اللهِ.

فَرَدّ أحدُ الغاصَةِ وكان اسمُهُ خَلَف :

– حــاضِر عَمّي ولكن دَعنِي أشرَحُ لِلغاصَةِ طَرِيقَةَ التَّعامُلِ مَعَ اليريور يا جَماعَة إذا رأيتَ اليريور وأنتَ في القَاعِ امسِك أيَّ حَصاةٍ وحُكَّ الأرضَ حتّى تُصدِرَ صَوتاً أو تُثِيرَ التُّرابَ مِثلَ الغُبارِ سَتجِدُهُ يَهرُبُ واسحَب حَبلَ السَّيبِ بِقُوَّةٍ.

بَعدَ ساعَةٍ عاوَدَ الغاصَةُ والسيُوبُ العَمَلَ.

إبراهيم : وكَيفَ يَعُودُونَ إلى الغَوص ألا يَخافُونَ أسماكَ القِرش..؟

– يــا إبراهيم كانَت حياتُنا تُحيطُ بِها الأخطارُ مِــن كُلِّ جانِب في البَحرِ أو في البَرِّ مِــن غَرَقٍ وأسماكٍ مُفتَــرِسَةٍ وأُخرى سامَّة ومِن أمراضٍ ونَكبــاتٍ وحرائقَ وغَيرِها كُنّا نَتأقلَمُ بِمُجَرَّدِ حُــدُوثِ الحَدَثِ ونُسَلِّمُ أمرَنا للهِ عَزَّ وجَلَّ وبالنِّسبةِ لِعدمِ خَوفِ الغاصةِ مِــن الأسماكِ المفتَرِسةِ فــإنَّ أسماكَ القِرشِ نــادِراً ما تُهاجِمُ البَــشَرَ رُبَّما لِجُرحٍ في جِــسمِ الشَّخصِ أو رائِحَةِ دَمٍ بِجَسَدِهِ أو بِلَمعــانِ شَيءٍ يَحمِلُهُ كالسّكينِ التي يَقطِفُ بِهــا المحّارَ إذا كانَت مصقُولَةً فَتَحسَبُها أسماكُ القِــرشِ سَمَكاً فتُهاجِمُها وعمُوماً فإنَّ حَــوادِثَ افتِراسِ الأسماكِ للغاصَةِ في الخَليجِ نــادِرَةٌ جِدّاً كما أنَّهم ما عَمِلوا في هذهِ المهنَةِ إلا وهُم يَعلَمُونَ أخطارَها ونِسبَةَ تَعَرُّضِهم لَها.

عاوَدَ الغاصَةُ والسيُوبُ العَمَلَ وبَدأَ جُمعَةُ يُهَيءُ أوانيهِ لطبخِ العَشاءَ يُساعِدُهُ بخيتُ وسَعِيــدٌ وصَقرٌ في مُقَدِّمَةِ السَّفِينَةِ يُلقيانِ خُيــوطَ صَيدِ السَّمَكِ ويَسحَبانِها بالأسماكِ العالِقَــةِ بِها ويا قُوتُ ويُونسُ بالقُربِ مِنهُما وخَميسُ النَّهامُ يُرَدِّدُ المواويلَ الحَزينَةَ يرُدُّ عَليهِ سُوَيدُ أمّا حامِدُ وسالِمُ فجالِسانِ قُربَ مَرزُوق يُلاحِظانِه ذهَبتُ إلَيهِم وحَاولتُ أن أطمَئنَّ عَلَيهِ :

– كيفَ حالُهُ الآنَ..؟

حامِــد : حالَتُهُ مُستَقِرَّةٌ سَقَيتُهُ مــاءً وأطعَمتُهُ تَمراً إلا أنَّهُ يَجِدُ صُعُوبَةً في البَلعِ وفي الكَلامِ.

ثم وجَّهتُ كلامي لِمرزوق :

– سلامات يا مرزُوق ما عليك شر إن شاء الله.

نَظَرتُ إلى سالِم فإذا عَيناهُ مُغرَورِقتانِ بالدُّموعِ فقُلتُ لَهُ :

– يا سالِم..؟ هَوِّن عَليكَ سَيكُونُ بِخَيرٍ إن شاء اللهُ.

انفَجَرَ باكِياً وبَكى بِحُرقَةٍ ثُمَّ قالَ وهُوَ يَنشِجُ :

– اثنان يا عَمِّي جَوهَرُ ومَرزُوقُ تَضرّرا مِن تَحتِ يَدِي أنا السَّبَبُ.

– لا يــا سالِم أنتَ لَيسَ لَكَ ذَنبٌ هــذا قضاءُ اللهِ وقَدَرُهُ ولا حيلَــةَ للبَشَرِ في رَدِّهِ وإيقافِه غَداً إن شاءَ اللهُ سَيقُومُ مَرزُوقُ بالسَّلامَةِ ويَتعافى بإذن الله.

تَعَشَّينا ونامَ الجَمِيعُ كانَ مَرزُوقُ يَئِنُّ ثُم يَغفُو عِدَّةَ مَرّاتٍ طَوالَ اللَّيل وحامِدُ وسالِمُ يُتابعانِ حالتَهُ ويتناوبان النَّومَ ومُلاحَظَتَهُ حتى الصَّباحِ ولَم يَنَم كثيرٌ مِنَ البَحارَةِ بِسَببِ مــا جَرى ولَم تَتوقَّف همهماتُهــم وهَمساتُهم حتى أَذَّنَ خَميــسُ الفَجرَ، لَم يَكُن فَجرُ اليَــومِ التّالي أفضَلَ مِــن سابِقهِ فَقَد كانَ فِيهِ الضَّبابُ كَثيفــاً وبَعدَ الصَّلاةِ أحضَرَ لي سالِمُ التَّمرَ والقَهوَةَ فَسألتُهُ عَن مَرزُوق :

– كَيفَ هُوَ الآن..؟

– حالُــهُ كما هُوَ يــا عَمِّي كانَ يَئِنُ طَوالَ اللَّيلِ ويتَنَفَّــسُ بِصُعُوبَةٍ وحَرارَتهُ أقَلّ مِن الحَرارَةِ الطبيعية وقَبلَ قَليلٍ سَقَيتُهُ وأطعَمتُهُ.

– سَتَتَحسَّنُ حالُهُ إن شاءَ اللهُ استَعِدُّوا للرَّحيلِ.

بَعدَ ارتفاعِ الشَّمسِ وانقِشاعِ الضَّبابِ شَيئاً فَشَيئاً بَدَأتْ مراسِمُ الخَطفَةِ والاستِعدادِ للإبحارِ والعَــودَةِ إلى الوَطن وبَدَأت الأهازِيجُ والنَّهماتُ تَعلُو مَعَ سَحبِ المرساةِ ورَفعِ الــشِّراعِ ثُمَّ انطَلَقَ المركِبُ يَتَهادَى يَميناً وشِمالاً على أمواجِ الخَليجِ كانَ جُمعَةُ يَطبُخُ الغَداءَ وحامِدُ مُمسِكاً بِدَفَّةِ السَّفينَةِ وفجأةً صاحَ سالِمُ بِحُرقَةٍ :

- آه.. ماتَ مَرزُوقُ يا عَمِّي علي ماتَ مَرزُوق.

- لا إلهَ إلا الله لا حولَ ولا قُوَّةَ إلّا بالله.

ورَدَّدَ البَحارَةُ عِباراتِ التَّهلِيلِ والحَوقَلَةِ.

ماتَ مَرزُوقُ والحَمدُ للهِ أنَّنا كُنا في الطَّريقِ إلى القَريَةِ ولَم نَكُن في الهِير..

إبراهيم : وماذا لَو ماتَ هُناكَ..؟

- إذا ماتَ أحَدٌ في سُفنِ الغُوصِ فإنَّ التّأخيرَ في دَفنِهِ قَد يَجعَلُ الجُثَّةَ تُنتِنُ فَهُم إمّا أن يَرفَعُوا النُّوفَ فيَأتِيهِم مَن يُساعِدُهُم في نَقلِهِ إلى القَريَةِ وهذا نادِرٌ فلَن يأخُذَهُ سوى مَن هُــوَ ناوٍ على العَودَةِ وإمّا أن يَحمِلُوهُ في القَارِبِ الصَّغيــرِ إلى جَزيرَةٍ قَريبَةٍ فيَدفِنُوهُ فِيهــا وهذَا الأمرُ أيضاً فِيهِ صُعُوبةٌ ويَتَطَلَّبُ إلماماً بِمَواقِــعِ الجُزُرِ وبُعدِها وحَرَكَةِ الهواءِ فإذا تَعَذَّرَ كُلُّ ذلكَ كفَّنُوهُ بِخَيشٍ أو حَصِيرٍ وصَلُّوا عَليهِ ورَبَطُوا في الكَفَنِ حَجَراً ورَمَوهُ في البَحرِ.

في الطَّريقِ قــامَ البَحَّارَةُ بتَغسيلِ الجثمانِ ولفِّهِ بالقِماش ثــمَّ وزَّعتُ على البَحَّارَةِ حُقُوقَهُــم ولَم يَكُن هُناكَ مجالٌ للمُزاحِ والضَّحِــكِ وعِندما جاءَ دورُ مُحسِن لاستِلام حَقِّهِ دَمَعَت عيناهُ وقَبَّلَ رَأسِي وقالَ :

- عظَّمَ الله أجرَك يا عَمّي علي.

- وأجرَك يا محسن.

قالَها وكأنَّهُ قَد بَدأَ مُبادَرةً لَم يَقُم بِها مَن سَبَقَه فتتابَعَ البَحارَةُ بِتَقبِيلِ رَأسي وتَعزيَتي. أمّــا حامِدُ فكانَ يُدَندِنُ بَينَهُ وبَينَ نَفــسِهِ وعِندما سَألتُه عمَّ يُدَندِنُ بِــهِ قالَ شِعراً مِلؤهُ الحِكمَةُ والحُزنُ.



عِندَما وَصَلنــا إلى القَريَةِ أوقَفَ البَحّــارَةُ السَّفِينَةَ وأنزَلنا الجُثمــانَ وذَهَبنا بِهِ إلى المقبَــرةِ فغسَّلناهُ مَرَّةً أخرى بالمــاءِ العَذبِ بَدلاً عن ماء البحرِ فــي مَسجِدِ المقبَرَةِ وكَفَّنــاهُ وصَلينا عَليهِ ودَفَنّاهُ كانَ هُناكَ رِجالٌ مِنَ القَريَةِ حضَروا صَلاةَ الجَنازَةِ والدَّفنَ وقَدَّمــوا ليَ العَزاءَ بعد الصَّلاةِ وبِما أنَّ حامِد مِن بلَدٍ بَعيــدٍ فضَّلَ بَعدَ الدَّفنِ أَن يعُودَ إلى السَّفينةِ ويَظَلَّ فيها هوَ وياقُوتُ ويُونس أمّا البَحَّارَةُ فقد ذَهَبوا إلى بُيوتِهم ثُم ذَهَبتُ إلى البيتِ فَكانَت فَرحَةُ أمِّ أحمَدَ بِعَودَتِي كفَرحَتِي بِلِقائِها كَبيرَةً دافِئةً وكذلكَ أختي أمِّ عبدالله ما إن رَأتنِي حَتّى احتَضَنتنِي وهيَ تَبكِي وأطالَت احتِضاني وتَحَوَّلَ بُكاؤها إلى عَويلٍ إلى دَرَجَةِ أنها لا تَستَطيعُ الكلامَ بَكَت بِحُرقَةٍ وبَكت مَعَها أمُّ أحمَد فعَلِمتُ أنَّ في الأمرِ شَيئاً فقلتُ :

– ما بِكُما..؟ ما الذي حَدَثَ..؟

فقالَت أمّ عبدالله وهي تشرقُ بدموعِها :

– ابنِي عَبد الله.. أعطاكَ عُمرَهُ.

– لا حَولَ ولا قُوَّةَ إلا باللهِ.. يرَحمَهُ الله.

قالَت وبالكادِ تَخرُجُ كَلِماتُها مِن غُصَّةِ البُكاءِ :

– وامرأتُهُ حامِل.

- كَيفَ..؟ وما الذي حَدَثَ لَهُ..؟

- ماتَ في فِراشِهِ، نامَ وأصبَحَ مَيّتاً.

- يَرحمُهُ اللهُ، عظَّمَ اللهُ أجرَكِ يا أُمَّ عبد الله.

تِلــكَ الذِّكرَياتُ المؤلِمَةُ أصابَت عَلي بارتِعــاشَةٍ جَعلَتهُ يَفتَحُ عَينَيهِ فإذا بالصَّمتِ يُخَيِّمُ على المكانِ بَعدَ أن كانَ ضجيجُ خَواطِرِهِ يَملأُ عَقلَهُ وإذا بضَوءِ النَّهارِ يَزدادُ خُفُوتاً والشَّمــسُ خَلفَهُ تَبدُو قُــرصاً أَحمَرَ عِملاقاً آفِلاً وأمواجُ البَحــرِ تُداعِبُ رَملَ الشّاطِئِ وتَقتَــرِبُ مِنهُ أكثَرَ أدارَ رَأسَهُ يَساراً نَحوَ قارِبِــهِ، أخرَجَ مِن صَدرِهِ تَنهيدَةً ثُم تَمتَمَ وكأنَّهُ يَهمِسُ لَهُ : ستعُودُ يَوماً ما إلى البَحرِ. ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ إلى جَيبِهِ العُلويِّ وأخرَجَ ساعَةَ جَيبِهِ نظَرَ إليها فإذا بِها تُشِيرُ إلى الثانِيَةَ عَشرَةَ إلا الرُّبعَ هَمسَ :

- اثنا عَشَر إلّا رُبع ..! ، باقي رُبعُ ساعَةٍ عَن صلاةِ المغرب..

طَوَّقَ علي رُكبَتَيهِ بِذِراعَيهِ وأكَبَّ عَلَيهِمــا بِرَأسِهِ مُغمِضاً عَينيهِ مُحاولاً العُثُورَ على طَرفِ الخَيطِ لِتَلكَ الذِّكرى الحَزِينَةِ التي أيقَظَتهُ إنَّها ذِكرى بُكاءِ أُمِّ عبدالله على ابنِها ذِكرى لِقَلبِ أمٍّ ثُكلى فَقَدَت ولَدَها الوَحيدَ وَهوَ بَعدُ في رَيعانِ شَبابِهِ وهوَ بعدُ لَم يفرَح بِــولادَةِ طفلِهِ الثّاني لَقَد حَزِنَ هُوَ أيضاً لِفَقدِ ابنِ أُختِهِ عبد الله كانَ طَيفُ إبراهيم يلُوحُ لَهُ كُلَّما غَفا.

إبراهيــم : يا عَمّي إنَّ للفَقدِ بالموتِ غُصَّةً تَعجزُ عَن وَصفِها الكَلماتُ لَقَد شَهِدتُ حادِثَةَ وَفاةِ عبد الله ابنِ عَمَّتي وشَهِدتُ تَلَقّي عَمَّتي للخَبَرَ الذِي نَزَلَ عَلَيها كالصّاعِقَةِ وشَهِــدتُ الدُّمُوعَ التي ذَرَفتها إنَّ فَقد الأمِّ لأحَدِ أبنائِها مُؤلِمٌ جِداً وكَذلكَ فَقدُ الابنِ

أو البِنــتِ للأُمِّ مُفجِعٌ فأنا عِندَما تُوُفِّيَت أُمِّي مَسَحَ الحُزنُ طَعمَ العَيشِ عِندي وأجهَش لَيلِي بالبُكاءِ والسَّهرِ لَقَد أحدَثَت وَفاةُ أمِّي فَراغاً كَبيراً في قَلبِي ونَهراً مِنَ الأسى كلّما أنضَبَهُ النِّسيانُ سَقَتهُ الذِّكرياتُ بالدُّموعِ إنَّ لِفَقدَ الأُمِّ غُصَّةً كأنَّها يَدٌ مِن حَدِيدٍ تَختَرُقُ الصَّدرَ وتَعصِرُ القَلبَ بِلا رَحمَةٍ.

– نَعَم والدُّمُــوعُ هِيَ الغُيُومُ التي تُبَلِّلُ يَبَسَ القَلبِ وتُعِينُــهُ على مُواصَلَة الخَفَقانِ ولكــنَّ دُمُوعَ الرِّجالِ عَصِيَّةٌ لا تَخرُجُ إلّا إذا تَصدَّعَــت رَواسِي العَزمِ وتَشَقَّقَت قِيعانُ الصَّبرِ.

لَم أشَأ أن أثقِلَ على أُمِّ عبد الله وأُخبِرَها بِمَوتِ مَرزُوق فَجُرحُها أكبَرُ مِن أن يُضافَ إليهِ جُــرحٌ جَدِيدٌ ولكن لا بُدَّ أن أُخبِرَ أمَّ سالِم بِمَــوتِ أخيها وفي غرفتي أخبَرتُ أمَّ أحمَدَ بِموتِ مَرزُوق وقُلتُ لَها :

– نادِي أُمَّ سالِم.

فلَمّا جاءَت قالَت :

– السلامُ عَلَيكُم.

– عَلَيكُمُ السَّلامُ.

– الحَمدُ للهِ على سَلامَتِكَ يا عَمِّي علي.

– اللهُ يسَلمك عَظَّمَ اللهُ أجرَكِ في أخيكِ مَرزُوق.

صَمَتَــت لِثَــوانٍ كأنَّ كُلَّ شَيءٍ تَوَقَّفَ ثُمَّ انفَجَرَت باكِيــةً وخَرَجَت وأُضِيفَ الفَقدُ والحُزنُ إلى قَلبٍ جَدِيدٍ..

إبراهيم : لا يُحِـسُّ بالفَقدِ إلا مَن كانَ قَلبُهُ مُخلِصاً في حُبِّه للرّاحِلِينَ وهَل سَألتَ عَن جَوهَر يا عَمّي..؟

– نَعَم هُوَ أيضاً تُوُفِّيَ أخبَرَني شَعبانُ بِذلكَ عِندَما سَألتُهُ :

– وكيفَ حالُ جَوهَر..؟

– يرحمُهُ اللهُ تُوفِّي قَبلَ أسبُوعٍ.

– وكَيف..؟

– عِندَما تَرَكناكُـم وجِئنا مَعَ خَليفةَ زادَت عَليهِ الحُمّى وصَارَ يَهذِي وعِندَما وَصَلنا حَمَلنـاهُ إلى دارِهِ وأسرَعتُ إليهِ بالدَّواءِ فَتَحَسَّنَت حالُهُ قَليلاً ثمَّ كُنتُ أزُورُهُ وأخلِطُ لَهُ الـدَّواءِ وأسقِيهِ إيّاهُ قُرابَةَ الشَّهر ولكن بَعدَ ذلك ظَلَّ جَسَدُهُ يَذوي شَيئاً فَشَيئاً وبَعدَها دَخلَ في غَيبُوبَةٍ إلى أَن تُوُفِّيَ يَرحمُهُ الله.

إبراهِيم : يَرحمُهُ اللهُ هِيَ ذِي الحَياةُ قَصِيرَةٌ مَهما طالَت يَحمِلُ الإنسانُ فِيها أهدافاً وأمنياتٍ قَد يُحَقِّقُ بَعضَها ولكنَّ أكثَرَها يتَبعثَرُ ويتَلاشى بِرَحِيلِهِ.

– هوَ ذاكَ يا إبراهيم ولَولا أن غَرَسَ اللهُ سُبحانَهُ وتَعالى النِّسيانَ في النَّفسِ البَشَرِيَّةِ لأصبَحَ العَيشُ كَئيباً موحِشاً.

صُمتُ عَرَفَةَ وفي يَومَ العِيدِ صَلَّيتُ الفَجرَ ثُمَّ صَلَّيتُ العِيدَ وعِندَما اعتلى الخَطِيبُ المنبَـرَ طافَت بِي ذِكرى عَمِّكَ محمّد يَرحمُهُ اللهُ وهوَ يَخطِـبُ خُطبَةَ العِيدِ في نَفسِ السَّاحَـةِ وعلى نَفسِ المنبَـرِ لَقَد كانَ عَـدَدُ المصَلّينَ في ذلكَ الوَقـتِ أكثَرَ بِكَثِيرٍ فالنّاسُ كانُوا يَتَوافَـدُونَ مِنَ القُرى القَرِيبَةِ لِسَماعِ خطبَتِـهِ كانَ مُفَوَّهاً يَشرَحُ الصُّدُورَ

ويَبُثُّ الأمَــلَ بالتَّرغيبِ ويَبعَثُ الرَّهبَةَ ويُبكي القُلُوبَ والعُيُونَ بالتَّرهِيبِ بِلا مُكبِّراتٍ ولا سمَّاعاتٍ تَتَلاقَفُ أصداءَ صَوتِهِ جُــدرانُ الدُّورِ والمباني تُردِّدُ كَلِماتِهِ وكأنَّها تُؤكِدُ ما يَقولُ مِن تَحذيرٍ ووعِيدٍ لمن طغى وتَكبَّر ومِن تَبشيرٍ أكِيدٍ لمن تابَ وآمَنَ وأنابَ للهِ تَعالى ذَهبَ وذهبَ معهُ صَوتُهُ وحُضُورُه وبَقِيَ عِلمُه وسِيرَتُهُ العَطِرَةُ في القُلوبِ، كانت النّساءُ والفَتياتُ يَنزَوينَ في آخِــرِ السَّاحَةِ يَستمِعنَ الخطبَةَ أما الصِّبيَةُ فكانوا بالقُربِ مِــن آبائِهم يُشارِكُونَهم الصَّلاةَ كانَ أخي خالِد بالقُــربِ مني وكانَ بينَ الفينَةِ والفَينَةِ يُطأطِــأ بِرأسِهِ ليَمسَحُ دُموعَه ثُم يرفعُه للخَطيبِ أما الشَّيخُ الخَطيبُ فَلم يكُن مِن قَريَتِنا ولم نَكُن نَعرِفُه ولكنَهُ للأمانَةِ كانَ مُفوّهاً وخطبَتُهُ مؤثِّرةً أما قِلَّةُ النَّاسِ فقد تَكُونُ بِسَبَبِ الموسِمِ وتواجُدِ الغَواصينَ والطَّواشينَ في البَحرِ.

بَعــدَ الصَّلاةِ قَرَّبــتُ أُضحِيَتِي ثُمَّ تَزاوَرتُ مَعَ الرِّجالِ فــي مَجالِسِهِم وزارَني أخي صالح أمَّا في البيتِ فَلم يَكُن للعِيدِ بَهجَةً سوى بينَ البناتِ الصَّغيراتِ اللاتي فَرِحنَ بِملابِسِهــنَّ الجَديدةِ، في اليَومِ التّالِي ذَهبتُ ومَعِي ياقُوتُ ويُونُسُ إلى سُوقِ المدينَةِ وأخَذتُ مَعِــي لُؤلؤتينِ وعَملتُ بِهِمــا عِندَ الصَّائِغِ خاتمَيــنِ لِأمِّ أحمَدَ وأُمِّ عبد الله واشتَرَيتُ هدايا للبناتِ ولأُمِّ سالِمٍ قِطعَتي قِماشٍ.

كانَت الحَركَــةُ في المدينَةِ بِخِلافِ الحرَكةِ في القَريَةِ كانَــت السُّوقُ تَعُجُّ بالنّاسِ وبالدَّكاكِيــنِ وبالباعَةِ المتَجوِّليــنَ والتُّجارِ والحمَّالينَ والعَرَباتِ التــي تَجُرُّها الحَميرُ والبِغالُ لحَملِ البَضائعِ مَرَرتُ على دُكَّانِ بوهاشِم..

– السَلامُ عَلَيكُم يا بوهاشِم عِيدُكَ مُبارَكٌ.

– عَلَيكُمُ السَّلامُ ورحمَةُ اللهِ وبَركاتُه، عِيدُكَ مُبارَك يا سَيِّد علي تَفضَّل.

أدنى لِي قُربَهُ كُرسِيّاً خَشَبِيَّاً صَغِيراً ليسَ لَهُ ظَهرٌ ومقعَدَتُهُ مِنَ الخَيشِ فجَلَستُ كانَ حانُوتُهُ مُلاصِقاً لمقهىً صَغيرٍ فقالَ بِصَوتٍ مرتَفِع :

– يا وَلَد، استكانَة شاي لعَمّك أبو أحمَد.

ثُمَّ وجَّهَ كَلامَهُ إليَّ :

– يا أهلاً ويا مَرحباً يا سَيِّد عَلي الحمدُ للهِ على السَّلامَةِ ظَنَنتُكَ في الغُوص..؟

– كُنتُ في الغُوص وإن شاءَ اللهُ سَأعودُ بَعدَ يومَينِ إلى هناكَ.

– ولِمَ عُدتَ عسى ما شَر..؟

– أرَدتُ أن أصومَ عَرَفَــةَ وأضَحِّي وأقــضِي العِيدَ معَ أهلي كما أنَّ مرزوق توفّي في آخِرِ يومٍ كنّا فيه في البَحر.

– مرزوق توفّى..؟ الله يرحمه.

تَحدَّثــتُ معَ بوهــاشم كثِيراً عَن رِحلَتِــي ومَتاعِبِها ثُمَّ أشَرتُ إلــى ياقُوتَ ويُونُسَ وقلتُ :

– هــذانِ الرَّجُلانِ اللّذانِ أوصَيتَ راشِد عَلَيهِمــا وإنِي أستأذِنُكَ في أخذِ أحَدِهِما مَعي إلى الغُوصِ لِيسدَّ مكانَ مَرزوق.

– ما طَلَبتَ شَيئاً حَلالُكَ ياسَيِّد علي، في الحَقِيقَةِ طَلبتُهُما لِيساعِدانِي في الدُّكانِ ولكِن لا مانِعَ أن يَذهَبَ مَعَكَ أحُدُهُما في رِحلَتِكَ.

وتَــمَّ ذلكَ بالفِعــلِ وأخذتُ ياقُوت مَعــي واشترَيتُ من دكانِ بوهــاشم حاجاتِ

المنزلِ، في البيتِ وبَعدَ الغَداءِ أخذتُ غَفوَةً أيقَظَتني مِنها أمُّ أحمد عندَ أذانِ العَصرِ فذَهَبــتُ إلى المسجِدِ وعِندَما عُدتُ لَــم أجِدها في داري فذهبتُ إلى دارِ أم عبدالله فلَعَلَّهــا هناكَ أرَدتُ الدّخولَ ورفَعتُ يَدي لطَرق البابِ والاستِئذان إلّا أنَّ صَوتاً نِسائياً رَخِيماً مُنبَعِثاً مِنَ الداخِــلِ استَوقَفنِي فَلَبِثتُ بُرهَةً أستَمِعُ لَقَد كانَ صَوتاً شَجِيّاً لامرأةٍ تَقرَأ القُرآنَ بِصَوتٍ مَسمُوع لَم يَكُن صَوتَ أمِّ عَبدالله ولا صَوتَ أُمِّ أحمَد كانَ يَبدُو أنَّ القارِئَةَ تَقرَأُ مِنَ المصحَفِ وتُرَتِّلُ آياتِ القرآنِ بِنَبرَةٍ عَذبَةٍ ورغمَ بَعضِ الأخطاءِ واللَّحنِ في اللُّغَةِ والتَّرتِيلِ إلّا أنَّ صَوتَها كانَ رخيماً لَم ألبَث طَويلاً فَقد جاءَت خَلفي أُمُّ سالِم حامِلَةً صِينيةً عَليها كاساتُ الشَّايِ فسَألتُها عمّا يَحدُثُ بالدَّاخِلِ :

- إيش اللي صاير ..؟

- أم عبــدالله جَمَعَت نساءً مِن أهــلِ القَريةِ لعملِ خَتمةٍ في ثــوابِ ابنِها عبدالله يَرحمُهُ اللهُ.

لَــم أشَأ أن أستَرسِلَ وأسألَ عَن التي كانَت تَقرَأُ القُرآنَ فأخذتُ مِنَ الصِّينِيَّةِ كأسَ شايٍ وذَهَبــتُ إلــى دارِي ثُمَّ قَررتُ الذَّهــابَ إلى مَجلِسِ راشِد فذَهبــتُ ولَم أجِدهُ فَذَهَبتُ معَ ياقُوت نَحو شاطــئِ البَحرِ لأرى حامِد. نادَيتُهُ بِصَوتٍ مُرتَفِع فَلعَلَّهُ يُجِيبُني مِــن السَّفينَةِ ولكنَّهُ لَــم يُجِب فَعلمتُ أنَّهُ ليسَ هناكَ فلَرُبَّما ذَهَــبَ لِزيارَةِ أحَدِ مَعارِفِه جَلَــستُ على الشَّاطِئِ قُبالَةَ السَّفِينَةِ وجَلَسَ ياقُوتُ قُربي فأخذتُ أُعلّمُهُ الأشياءَ التي لا يعرِفُها في لُغَتِنا ثُمَّ أمرتُهُ أن يجلِسَ في البراحَةِ ويُعِدَّ الشايَ والقَهوةَ لِمَن سَيأتي من الرجال وبعدَ المغرِب ذَهَبتُ إلى أمَّ عبدالله في دارِها، قَبَّلتُ رَأسَها وسَلَّمتُ عَليها :

– السَّلامُ عَليكُم.

– عليكم السَّلام.

فبادَرَتني :

– اليــوم عملنا خَتمة لعبدالله رحمــةُ الله عليه أنا وكم واحدة من الحي وأريدك أن تعمل خَتمة مع الرجال في ثوابِ محمد وعيسى يَرحمهُم الله.

– الله يرحمهم حاضِر يا أم عبدالله.. بعدَ قليل في البراحَةِ سأخبِر الرّجال.

ذَهَبتُ إلى البَراحَةِ فإذا بِها شَعبان فجَلسنا نتحدّثُ ونشرَبُ الشّاي فقُلتُ لَه :

– الدَّشّة (دخول البَحر) بَعد بكرة وإن شاءَ الله تكون معانا.

– إن شاء الله يا سيّد علي.

ولَــم نَلبَث طَويلاً حتى جاءَ حامِد وتَوافَدَ علينا رِجالُ القَريَةِ فأخبَرتُهُم بأنّنا في الغَدِ سَنُقِيمُ خَتمَةً لمحمّد وعيسى فوافَقَ مُعظَمُهُم واعتَذَرَ بَعضُهُم للانشِغالِ.

وبالفِعــلِ ففي اليوم التالي وكانَ ثالثَ العِيد اجتمَــعَ الرِّجال في البَراحَةِ ووضَعنا مُتّكأً ومُصحَفاً لِلقارِئ وبدأنا نَتَناوبُ قراءةَ القُرآنِ فكُلَّما انتّهى قارِئٌ مِن نِصفِ جُزءٍ قامَ عَن الـمُتَّكأ وجاءَ واحِدُ آخرُ يَعرِفُ القِراءةَ لِيُكمِل..

إبراهِيم : لِماذا تَتناوَبُونَ المكانَ أليسّ لَدِيكُم مَصاحِف..؟

– المصاحِفُ كانَت قَلِيلَةً بَل نــادِرَةً وكانَ أحدُنا إذا اهترَأَ غِلافُ مُصحَفِهِ أو تَمزَّقَ يأخُذُهُ للوَرّاقِينَ لِيُصلِحُوهُ فقَد كانَت المطابعُ قَلِيلَةً وفي بِلادٍ بَعِيدَةٍ.



فــي رابِعِ أيامِ العِيدِ وبَعدَ صَلاةِ الفَجرِ ودَّعــتُ أُمَّ أحمَد وأُمَّ عبدالله وتَوَجَّهتُ إلى الشاطِــئِ كانَ الجَوُّ حاراً والرُّطُوبَةُ تَكادُ تَخنِقُ والشَّمــسُ وإنْ كانَت في بِدايَةِ شُرُوقِها إلّا أنَّ حَرارَتَهــا تُنذِرُ بِظَهِيرَةٍ مُلتَهِبَةٍ والبَحرُ ساكِناً وسَطحُهُ مُنبَسِطاً ليسَ بهِ أيُّ ارتِعاشٍ للمَــوجِ كانَ جَميعُ الرِّجــالِ متَواجِدِينَ ما عــدا سالِم فأرسَلتُ إليهِ مَــن يُنادِيهِ فأتى فَسَألْتُهُ :

– ما هذا يا سالِم..؟ لقد تَأخرتَ.

– اسمَح لِي يا عمِّي علي لا أريد أن أذهَبَ مَعكُم بَعدَ الذي حدَثَ منّي.

– ومــا الذي حَدَثَ مِنكَ..؟ أتَعتَقِدُ أنَّ ما حَدثَ لجوهرَ ومرزُوقَ يَرحمُهُما الله كانَ بِسَببِكَ..؟

طأطَأَ سالِمُ رَأسَهُ فأردَفتُ قائلاً :

– استَعِــذ باللهِ مِنَ الشَّيطــانِ يا سالِم هذا أمــرُ اللهِ وقَدَرُهُ تَــوَكَّل على اللهِ اذهَب وأحضِر حاجاتِكَ فهذا رِزقُكَ ورِزقُ عِيالِكَ إنَّ ابنَ آدَم في هذِهِ الحَياةِ لا يَعلَمُ الغَيبَ ولا يستَطِيــعُ رَدَّ القَدرِ فَلو عَلِمَ الإنسانُ الغَيــبَ لَتفادى ما يضُرُّهُ واحتاطَ لما سَيُصيبُه ولكن هــذه تَدابيرُ اللهِ سبحانَهُ وتَعالى وقَدَرُهُ وكُلُّها رَحمَــةٌ ببني البَشَرِ، حتى الموتُ هــوَ رَحمَةٌ للإنسانِ فهُــوَ انتِقالٌ مِن دارِ الفَناءِ إلى دارِ الخُلــودِ والبَقاءِ وهوَ أمرٌ حَتميٌّ لابُــدَّ مِنهُ وما خَوفُ البَشَرِ مِــنَ الموتِ إلّا لأنَّ الله سُبحانَــهُ وتَعالى غَرَسَ في النَّاسِ

الأُلفَـةَ والمودَّةَ بَينَهُم فهُم يَحزَنُونَ بالموتِ على فِراقِ أحبَّتِهم وعلى ما تَعبوا مِن أجلِ الحُـصولِ عليهِ في الدُّنيا وحافَظُوا عَليهِ رغمَ مَعرِفَتِهم بأنَّهم سيَترُكُونَهُ إلى غَيرِ رَجعَةٍ.. فلا تَحزَن يا سالم ولا تَدَع الهَمَّ يُسَيطِرُ عَلَيكَ اذهب وأحضر حاجاتِكَ.

وقَفَ سالِمُ أمامي مطأطِـأً رَأسَهُ وكأنَّ كَلماتِي قَد أثَّرت فيهِ فذَهَبَ وأحضَرَ حاجاتِهِ وقَبـلَ الرُّكُوبِ إلـى السَّفِينَةِ كانَ عَلَيَّ أن أُعَيِّنَ رَئيساً للبَحَّـارَةِ فأوكَلتُ تِلكَ المهمّةَ لِصَقر إضافَةً إلى مهمَّتِهِ كَنُوخذا بَرّ.

إبراهيم : وما مهمَّةُ نُوخذا البَرِّ يا عَمِّي؟.

– نوخذا البَرِّ مهمَّتُهُ التَّواصُلُ مَعَ البَحَّارَةِ طَوالَ تَواجُدِهِم في البَرِّ فَهُوَ هَمزَةُ الوَصلِ بينَهُـم وبَينَ النُّوخذا كَما أنَّهُ المسؤُولُ عَن تَأمِينِ الزَّادِ للرِّحلَةِ مِن أكلٍ وشُربٍ وقَهوَةٍ وغَيرِهـا وعَمَلُهُ على ظَهرِ السَّفِينَةِ في البَحرِ لا يَكادُ يُذكَـرُ فَجَعَلتُهُ في الرِّحلَةِ السَّابِقَةِ مُساعِداً لِسَعِيد مَسؤُولِ الشِّراعِ أمَّا هذه المرَّةَ فهُوَ المجَدِّمِي ورَئيسُ البَحَّارَةِ بَدَلاً عَن مَرزُوق.

كانَت السَّفِينَةُ بَعِيـدَةً عَن الشَّاطِئِ وكانَت مائِلَةً قَليلاً بِسَبَـبِ الجَزرِ فانتَقَلنا إليها بالقارِبِ الصَّغيرِ على دُفعاتٍ نَحمِلُ فيهِ الأمتِعَةَ إلى السَّفِينَةِ ونعُودُ ثانِيَةً لِنَحمِلَ غَيرَها وانتَظَرنا حتّى رَقى مَدُّ البَحرِ بِها فأبحَرنا.

أبحَرنـا بِأنغامِ خَميس وفِرقَتِهِ نَحوَ نَفسِ المنطقَةِ التي كُنّا فِيها وبِمَعرِفَةِ رَجُلِ البِحارِ حامِـد الذي يُوجِّهُ السَّفِينَةَ بِيَدِهِ التِي تُمسِكُ بالدَّفَّةِ وبلِسانِهِ الذي يأمُرُ بِهِ صَقر الذي بِدَورِهِ يُوَجِّـهُ الأمرَ لِسَعِيد لِأنْ يُحَرِّكَ رِجالُهُ الشِّراعَ يَمِينـاً أو شِمالاً أَبحَرنا وكأنَّ كُلَّ جُزءٍ فـي السَّفِينَةِ يَسألُ عَن مَرزُوق وجَوهَر كانا نِعمَ الرَّجُلَينِ يرحمُهُما الله أبحَرنا نَحوَ

المجهـولِ رغمَ أننا نَعرِفُ مَكانَنا الذي سنَذهَبُ إليهِ فَهـوَ مَعلُومٌ أما المجهولُ فَهوُ ما الذي يَحمِلُهُ مُستَقبَلُ هذهِ الرِّحلَةِ وهَل سَتَعُودُ السَّفِينَةُ بالجَميعِ أم سَيكُونُ هُناكَ فَقدٌ آخَـرَ ومَن التَّالي ورغمَ هذهِ الهَواجِسِ والأفـكارِ إلّا أنَّ الرِّجالَ صامِدُونَ فوقَ ظهرِها لَـم يَتَراجَعُوا ولَم يَبقوا في بُيُوتِهم بَل هُم مصَمِّمُـونَ على المضيِّ لِتَحقِيقِ ما يَصبُونَ إليهِ بنُفـوسٍ رابطَةِ الجأشِ مُتَماسِكَةٍ مُقدِمَةٍ على مُقارَعَةِ الأهوالِ وانتِزاعِ رِزقِهم ورزقِ مَـن يُعِيلُونَ مِن أعماقِ البَحرِ ولَيسَ الـرِّزقُ فَقَط هوَ الذي يَحدُوهُم نَحوَ أهدافِهم رغمَ صُعُوبَتِها ومَخاطِرِها ولكنَّه التَّوكُّلُ على اللهِ والرّضا بِقضائِهِ وقَدَرِه وقُوةُ التَّصمِيم والعَزم.

فـي الطَّريـقِ ناديتُ صَقـر وأجلَستُهُ قُربـي كانَ واضِحـاً عَلَيهِ أنَّهُ فِـي مُنتَصَفِ الخَمسِينياتِ مِنَ العُمرِ قُلتُ لَهُ :

– صقر.

– نَعَم عَمّي.

– أرى فِي خُطُوطِ وَجهِكَ آثارَ الزَّمَنِ ومتاعِبَ الحَياةِ، ما قِصَّتُكَ..؟

– أنا يا عَمّي نَشأتُ في بِيئةٍ فَقِيرَةٍ لَيسَت بَعِيدَةً عَن البَحرِ ولكنَّ والدِي لَم يَدخُل البَحرَ للغَوصِ أو صَيدِ السَّمَكِ بَل كانَ مَعَ جارٍ لَنا يَعمَلانِ في جَلبِ الصُّخُورِ البَحرِيَّةِ المفَلطَحَـةِ وتُسمى (فِرش) وتُستَخدَمُ في البِناءِ فكانا يأخـذانِ حِمارَيهِما في وَقتِ الجَزرِ ويَذهبـانِ بَعِيداً عَن الشَّاطِىءِ حَيثُ أنَّ مِياهَ البَحرِ قُـربَ قَريَتِنا ضَحلَةٌ لِمسافَةٍ بَعِيـدَةٍ فيَسِيرانِ إلى المسَطَّحـاتِ الصَّخرِيَّةِ وهي كثِيرَةٌ وعلـى مساحاتٍ واسِعَةٍ في منطِقَتِنـا فَيُقَطِّعانِ بالمعـاولِ مِن الصُّخُورِ ما يُمكِنُ حَملُهُ علـى الحَميرِ لبَيعِهِ وعِندَما كَبرتُ عَمِلتُ مَعَ أبي فِي تِلكَ المهنَةِ وحِينَ بَلغتُ الثَّامِنَةَ عَشرَةَ زَوَّجَنِي أبي مِن قَرِيبَةٍ

لي كانَت جَمِيلَةً وقَدَّرَت ما أنا فِيهِ مِن الفَقرِ وكانَ أبُوها مَيسُوراً ولَيسَ لَهُ سِواها وأخِيها ولَمّـــا أنجَبَت وَلداً أسمَيتُهُ هلال كانَ لابُدَّ أن يَكُونَ لَنـــا بَيتٌ مُستَقِلٌ ولَم أكُن أملِكُ ذلـــكَ فاقتَطَعَ أبُوها لَنا جُزءاً مِـــن أرضِهِ بَنى عَلَيهِ لَنا بَيتاً صَغِيراً فَعِشنا على ذلكَ دَهراً أعمَـــلُ مَعَ أبي في جَمعِ وبَيعِ الصُّخُورِ ثُمَّ أعُـــودُ آخِرَ النَّهارِ إلى البَيتِ مُتعَباً وبَعدَ دَهرٍ أصبَحَت امرأتي تَتَذَمَّرُ ومرَّت سَنَواتٌ وهيَ عَلى هذِهِ الحَالِ وكَبُرَ فِيها ابنِي وماتَ أبي فاشتَريـــتُ عَرَبَةً ليَجُرَّها الحِمارُ وعَمِلتُ حَمَّالاً أطُـــوفُ بينَ الأسواقِ والقُرى والمدُنِ لِإيصالِ البِضاعَةِ والنَّاسِ فـــكانَ ذلكَ أفضَلَ بِكثيرٍ مِن العَمَلِ في الصُّخُورِ وتَمَكَّنتُ مِن إعالـــةِ زَوجَتِي وابني ووالِدَتِي التِـــي كانَت تَرفُضُ أن تَنتَقِلَ مَعِـــي إلى بَيتِي فَقد قُلتُ لَها :

– أمّي، لا أحِبُّ أن تَكُونِي وَحِيدَةً.

– لا يا وَلَدي لا أُرِيدُ الخُرُوجَ مِن هذا البَيتِ حتّى وإن كانَ غُرفَةً ولِيواناً فَلَن أترُكَهُ.

خَنَقَتها العَبرَةُ ثُمَّ قالَت :

– إنَّ فِيـــهِ رائحَةَ أبيـــكَ إنِّي أراهُ في كُلِّ زاوِيَـــةٍ وأرى عَينَيهِ وهوَ يَنظُـــرُ إليَّ بِحنانٍ وأسمَعُهُ وهوَ يُنادِينِي بِصَوتِهِ الذي لا أنسى نَبرَتَهُ وهو يقول ..أبشِري يا أم صقر أبشِري بالخِير. أنـــا في هذا البَيتِ أعيشُ مَعَهُ أعِيشُ مَعَ أبِيكَ ومَـــعَ رُؤاهُ وأطيافِه، كَيفَ أترُكُ بيتَهُ وبيتي الذي عِشتُ فيـــهِ شَبابي بكُلِّ تَفاصيلِ الفَرَحِ والحُزنِ لَن أترك هذا البيتَ ما دُمتُ على قيدِ الحَياة..؟

ارتَفَعَ صَوتُ حامِد :

– يا صقر، وصَلنا.

فقُلتُ لصقر :

– أكمِل فيما بَعد يا صَقر.

إبراهيــم : قِصَّةُ صقر وأُمِّهِ تُوحِي بأنَّ هُناكَ قُلُوباً طيِّبَةً نَقيَّةً مُفعَمَةً بالإخلاصِ عامِرَةً بالوَفــاءِ لِمَن أحَبَّها واحتَواها، بِخلافِ القُلُوبِ القاحِلَــةِ مِنَ الحُبِّ الجاحِدةِ للجَميلِ الشَّحيحَةِ بالكَلِمةِ الطَّيبة، وما الذي حَدَثَ بَعد ذلك..؟

– كانَ علــى صَقر أن يُهَيِّئ البَحّارةَ للــوُصولِ إلى الموقِــعِ وإرساءِ السَّفينَةِ نَهَضَ وصَفَّقَ بيَدَيهِ وقالَ بِصَوتٍ مُرتَفِعٍ :

– اطرَح، اطرَح.

فسَرَت إلى خاطِــري مَسحَةٌ مِن الحُزنِ تَذَّكرتُ خِلالَها مرزوق وهو يرفَعُ صوتَهُ بِها مُعلِناً الوصولَ وأحسَستُ أنَّ مُعظَمَ البَحَّارَةِ ساوَرَهُم نفسُ الشُّعُورِ.

قــامَ صَقرُ بمُعاوَنَةِ سَعيد بالإشرافِ على الرِّجــالِ في إنزالِ الشِّراعِ وإلقاءِ المرساةِ كانَ ياقُــوتُ مُتَحَمِّساً وشارَكَ الرِّجالَ في العَمَلِ وبَذَلَ جُهداً واضِحاً وعِندَما استَقَرَّت السَّفِينَةُ وكانَ الوَقتُ أصِيلاً صَوَّتَ حامِدُ :

– ابلِد يا صَقر.

إبراهِيم : وماذا تَعنِي..؟

– تَعني قِياسَ العُمقِ.

– وكيف ..؟

– بإنــزالِ ثِقَلٍ في البَحرِ مدَلّى في حَبلٍ فإذا وَصَلَ إلى القاعِ سُحِبَ وحُسِبَ طُولُ الحَبلِ المغمُورِ في الماءِ فَيُعرَفُ العُمقُ.

قالَ صقر بصَوتٍ مرتفع :

– ستة باع.

إبراهيم : وهَل هذا عُمقٌ ملائمٌ للغوص؟.

– نَعــم.. وستة باع تُقارِبُ العَشرةَ أمتارٍ، وهــو عُمقٌ مُناسبٌ ولكن قَد يتَغَيَّرُ بِسبَبِ المدِّ والجَزرِ، وهُناكَ أعماق تَصلُ إلى التِّسعَة والعَشرة باع.

– وسَمِعتُ أنَّكُم كنتم تَقِيسونَ بالقامَة فما هي القامَة..؟

– جَميــعُ قِياساتُنا كانت تَقريبيَّــةٌ فالباعُ هوَ المسافَةُ ما بيــنَ الكَفَّينِ إذا انبَسَطَت الذِّراعانِ يَمينــاً وشِمالاً ويُساوي أقَلَّ مِن مِترَين، والقامَةُ هــيَ طولُ الإنسانِ مِن قِمَّةِ رَأسِهِ إلــى أخمَصِ قَدَميهِ وهمــا قِياسانِ تَقريبيّانِ لِتَفاوتِ البَـشَرِ في الطُّولِ والنَّحافَةِ والبَدانَــةِ والباعُ والقامَةُ سيّانِ في عُــرفِ أهلِ البَحرِ ويُقَدَّرانِ بِنَفــسِ المسافَةِ ونفسِ العُمقِ أذكرُ أنَّ أبي قالَ لي إنَّ باعَ الإنسانِ يساوي قامَتَه.

بعدَ الصَّلاةِ نادَيتُ صَقر :

– صقر.

– نَعَم يا عَمّي.

– عَلِّمــوا ياقُوتَ العمَلَ خاصَّةً فَلَقَ المحارِ، دَعهُ يتَعَلَّم كيفَ يَعمَلُ السَّيبُ وكَيفَ تُلقى المرساةُ وكَيفَ تُسحَبُ علِّمهُ كيفَ يُفَلُّ الشِّراعُ وكَيفَ يُطوى وكيفَ يُرفَعُ وكَيفَ

يُنزَلُ علِّمــهُ كَيفَ يَصطادُ السَّمَكَ دَع جُمعةَ يُعَلّمُهُ كيفَ يَشوي السَّمَكُ دَعُوهُ يَعمَلُ شيئاً مُفِيداً.

– حاضر يا عمّي..؟

قلتُ وحامِدُ يَسمَعُ :

– ما رأيُكَ أن نُداعِبَ سالِم..؟

– وكَيف..؟

– أنا وأنتَ وحامِد سَنَقولُ لَهُ إنّ ياقُوت سَيغُوص وأنتَ تَسُوب عَلَيهِ.

ابتَسَمَ صَقر وحامِد فنادَيتُ سَالِم :

– سالِم، تَعال يا سَالِم.

– لبيك يا عَمّي.

– ما دام إنّك احتياط وما عِندك غيص اشرايك بكرة تسُوب على ياقُوت.

– ياقُوت..؟ هَل سيغوص..؟ أنا قُلتُ لكم يا عَمّي خلوني في بيتي.

كادَ أن يَبكِي ولكنَّهُ أحَسَّ أنَّها مَزحَة..

– هذا إن غاص ما طَلَع.

قالَ حامد:

– إيش رأيك أنت تغوص وهو يسوب عليك..؟

ضَحِكنــا وغاصَ قُرصُ الشَّمــسِ في الأُفُق فرفَعَ خَمِيــسُ الأذانَ فَصَلّينا وتَعَشّينا وهَجَعنا وفي اليَومِ التّالي بَدأَ العمَلُ.

- ١٤ -

لَم تَكُن تِلكَ الرِّحلَـةُ مُختَلِفَةً عَن سابِقَتِها سِوى في بَعضِ الأحداثِ العاديَّةِ فَبعدَ يومَينِ مِن وُصُولِنا طَلبتُ مِــن صَقر أن يُكمِلَ لي قِصَّتَهُ التي وَصَلَ فِيها إلى مُحاولَتِهِ اقناعَ والِدَتِهِ أن تَسكُنَ مَعَهُ بَعدَ وَفاةِ أبِيهِ ولكنَّها رَفَضَت وقالت :

– أنا في هذا البَيتِ أعيشُ مَعَهُ، أعِيشُ مَعَ أبِيكَ ومعَ رُؤاهُ وأطيافِهِ كَيفَ أترُكُهُ..؟

– أكمِل يا صَقر.

– مَــرَّت سَنَواتٌ كانَت فيها امرَأتِي أُمُّ هِلال تَــزدادُ سُوءاً وسَلاطَةَ لِسانٍ، فَلا يَكادُ يَمُــرُّ يَومٌ دُونَ أن يَكُونَ فِيــهِ شِجارٌ ومُناكَفَةٌ وكانَت لا تَفسَحُ لِــيَ المجالَ لِتَربيَةِ ابني وتُــشَوِّهُ صُورَتي عِندَه حَتّى أشعَرَتهُ أنَّ تأدِيبِي لَهُ فَظاظَــةٌ وقَسوَةٌ وأنَّ شِجارَها مَعِي هُو دِفــاعٌ عَنهُ فكَبُرَ هِلالُ وكَبُرَ مَعَهُ ذلكَ الإحساسُ فَقرَّرتُ أن أتزَوَّجَ عَلَيها وحَدَّثتُ أمِّي بِذلكَ فاختارت لِي زَوجَةً صالِحَةً حَنُونَةً طَيِّبَةً أسكَنتُها مَعَها وكُنتُ أناوبُ بينَ البَيتَين وكانَــت أمي فَرِحَةً بِزَوجَتِيَ الثَّانيةِ فَقَد مَلأت عَلَيهــا حَياتَها كانَت تَقُومُ على خِدمَتِها بِــكُلِّ إخلاصٍ ومَحَبَّةٍ وتَحتَرِمُ رأيَها وتُقَــدِّرُ مَواعِيدَ نَومِها وأدويتِها خاصَةً وأنَّني أغِيبُ فَتــرَةً طَوِيلَةً عَن المنزِلِ كانَــت تَروي لَها حكاياتِها منذُ صِغَرِها عَــن والِدَيها وإخوَتِها وكيفَ كانت حياتُها قَبلَ الزَّواج وأمّي كذلِك كانَتْ تَحكِي لَها عَن حياتِنا أما أُمُّ هِلال فكانَت تُتابِعُ أخبارَ أمِّي وزوجتِيَ الثَّانِيَةَ عَن طريقِ نِساءِ الحَي فثارَت ثائِرَتُها وأصبَحَت أكثَــرَ شراسَةً مِــن ذِي قَبل فَواجَهتُها وقُلتُ لَها إذا كُنتِ تُرِيدِيــنَ الطَّلاقَ فأنا مُستَعِدُ فَصَمَتَت وبَكَت ورَضِيَت بالأمرِ الواقِعِ.

كانَ عَليَّ أن أبحَثَ عَن مَصدرِ رزقٍ آخَرَ فاشترَيتُ حِماراً وعَرَبَةً وعَيَّنتُ عَليها رَجلاً مِــن مَعارِفي اسمُهُ نَدِيم وكانَ أميناً فَتَيَــسَّرَت أموري والحَمدُ للهِ عِشتُ بِذلكَ الوَضعِ سَنَتَينِ نَجُوبُ أنــا وصَديقِي نَدِيمُ القُرى والمــدنَ والأسواقَ نَحمِلُ البَضائعَ والنَّاسَ وأصبَحَ لنا عُملاءُ ولكنَّ الدَّهرَ لا يَدُومُ على حالٍ.

حَملَت امرَأتيَ الثّانِيَةُ ووَضَعَت ولَدَاً سمَّيتُهُ ناصِر وما أن عَلِمَت أمُّ هِلالٍ أنَّ المولُودَ ذَكر حَتى بَدَأت مُعامَلَتُها لي تَتَغَيَّرُ للأسوأ وهذهِ المرَّة طَلَبَت هي الطَّلاقَ لَم أستَعجِل فــي الأمرِ بَل خَرَجتُ مِنَ المنزِلِ وتَركتُها أُسبُوعــاً وعُدتُ لَعَلَّها تُراجِعُ نفسَها إلّا أنَّها كانَــت مُصِرَّةً فطَلَّقتُها أمّا صاحِبِي نَديمُ فقَد انسَحبَ من العَمَلِ مَعي لِظُرُوفٍ مَرَّت بِهِ دَعَتهُ للسَّفَرِ وقالَ لي :

– لَقَــد أسعَدَنِي العَمَــلُ مَعَكَ يا صَديقِي ولكــن تلَقَيتُ بالأمسِ خَبَــرَ وَفاةِ أبي وغَداً سأرحَلُ.

– عَظَّمَ اللهُ أجرَكَ يا أخي ولكِن أظُنُّكَ سَتَعُودُ بإذنِ الله..؟

– لا، أغلَبُ الظَّنِّ أنّي لَن أعُودَ فإنَّ دِيرَتي بَعِيدَةٌ كَما تَعلَم وابني عَزَّامُ أصغَرُ مِن أن يُعتَمَدَ عَليهِ في تَصريفِ شُؤونِ والِدَتــي وأمِّهِ وإخوتِه فإن أحسَستُ فِيهِ نَباهةً وتَحَمُّلاً لِلمَسؤوليَّــةِ قَد أعُــودُ وأحبَبتُ أن أكَلِّمَكَ فــي مَوضُوعِ الحِمارِ والعَرَبَــةِ فإن أحبَبتَ اشتَرَيتُهُمــا مِنكَ لأستَعِينَ بِهِما على سَفَــرِي وإن أبَيتَ فها هُما مَوجودانِ والوَجُهُ مِنَ الوَجهِ أبيَضُ.

بِعتُهُ الحِمارَ والعَرَبَةَ وبَنَيتُ دَاراً أُخرى في مَنزِلي وظَلَلتُ أعمَلُ وحِيداً ثُمَّ اضطُرِرتُ أن أعمــلَ حَمّالاً في السُّوقِ وفي تِلكَ السَّنَةِ أيضاً مــاتَ ابنِي هِلالُ يرحمهُ اللهُ فقَد

ذَهَبَ مَعَ رِفاقٍ لَهُ إلى البَحرِ ولَم يعُودُوا وأُمّي أصابَها الوَهَنُ ولَم تَعُد قادِرَةً على المشيَ وضاقَت بِيَ الدُّنيــا فظَلَلتُ أبحَثُ عَن عَملٍ لأعيل أمي وزَوجتي وابني ناصر فبَحثتُ إلى أن التَقَيتُ بِمَرزُوق يَرحمهُ اللهُ وها أنا ذا أعمَلُ فِي خِدمَتِكُم يا عمي.

إبراهيــم : يا لَهُ مِن رَجلٍ مُكافِحٍ صَبُورٍ وقَد سَخَّرَ اللهُ لَهُ زَوجَتَهُ الثانِيةَ لِتَكُونَ بِطِيبَةِ قَلبِهــا سَكَناً لَهُ ولأمِّــهِ ولكِن يا عَمّي كَيفَ أسنَدتَ لَهُ أمرَ رَئيــسِ البَحارَة وهُوَ نُوخذا بَر..؟ ألا يتَطَلَّبُ ذلكَ خِبرَةً وحَزماً.

– نعَــم، لقَد تَوَسَّمتُ فيهِ ذلكَ فَهُوَ إضافَةً إلى سِنِّهِ الذي يُسبِغُ عَليهِ احتراماً ووَقاراً فهُوَ يعرِفُ البَحَّارَةَ ويَتَواصَلُ مَعَهُم في البَرِّ والبَحرِ كَما أنَّهُ رَجُلٌ صِفاتُ الخُلُقِ الكَريم واضِحَةٌ عَلَيهِ، مَرَّت أيامُ الغَوصِ عادِيَّةً وحَصلتُ على كَمِّيَّةٍ لا بأسَ بها مِنَ اللّؤلُؤِ بعتُ مِنها على الطّواشينَ وتُجارِ اللّؤلُؤِ واحتَفظتُ بِأفضَلِها لبَيعِهِ عِندَ العَودَةِ فَسِعرُ اللُّؤلُؤِ في غَيــرِ مَوسِمِ الغَوصِ أعلى مِنهُ في مَوسِمِهِ، وسِعــرُهُ في الأسواقِ في البَرِّ أعلى مِنهُ في البَحرِ.

فــي آخِرِ أيامِ الغُوص بَدأَ التَّعَبُ يَظهَرُ علــى كثيرٍ مِنَ البَحّارَةِ وكُنّا نَتَحَرّى مَندُوبَ السِّردالِ ليأتي ويُخبِرَنا بِمَوعِد (القُفّال) وهو مَوعِدُ العَودَةِ إلى القريَةِ لَقد مَرَّت أشهُرُ الغَوصِ فــي الكَدِّ والعَمَلِ تَشَبَّعت فيها الأجسادُ بالشّمــسِ والملح وسئمَت الآذانُ الحِواراتِ اليَومية المتكرِّرَةَ وطفَحَت القُلــوبُ بالشَّوقِ للوَطَنِ وللنائينَ خَلفَ حُجُبِ الزَّمــانِ كانَ النَّهارُ بالعَمَلِ شاغِلاً لفَراغاتِ الأفئدَةِ التي تَنضَحُ بالحَنينِ أمّا اللَّيلُ فَقَد كانَ يُفَتِّتُهــا صبابَةً ولَهفةً فأصبَحَت تَترَقّــبُ أشرِعَةَ البُشرى لتأتي بِخبَرِ انتِهاءِ المعاناةِ والتَّعبِ.

جاءَ يوسف وكانَ الوَقتُ ظُهراً وألقى السَّلام :

- السّلامُ عليكُم.

- عَليكُم السلامُ يا يُوسف، حَياك تغَدّا.

- مَشكور يــا سَيِّد عَلي أنا مُستَعجِل جِئــتُ أبَلّغُكم رِسَالةَ الــسّردالِ بأنَّ القُفّالَ (العودَة) سَيكُونُ فَجرَ السَّبتِ القادِمِ إن شاءَ اللهُ أي بَعدَ سِتَّةِ أيَّام.

- إن شاءَ اللهُ.. تَغدَّ مَعَنا.

- مَشكُــور يا سَيِّد عَلي كانَ بِــودِّي ولكن كما تَعلَم لا بُدَّ مِــن أن أوصِلَ الرِّسالَةَ للجَميعِ.

- الله يعينك.

- مَعَ السَّلامَة.

- معَ السَّلامَة.

كانَــت رِسالَةُ يُوسف على القُلُوبِ كقميص يــوسف على يعقوب أثلَجَت الصُّدورَ وغَزَلَت أملاً سعيداً بالعودةِ إلى الدِّيار.

بَعــدَ يَومَينِ مِن مَجِيءِ يُوسف وكانَ الوَقتُ ضُحــى والنَّهارُ صَيفِيّاً حارّاً أحسَستُ برَغبَــةٍ لِأن أستَحِمَّ في البَحرِ فتَهَيأتُ وقَفَــزتُ في الماءِ لَم أكُن أتَوَقَّعُ ما سَيَحدُثُ لِي كُنــتُ مُستَمتِعاً أتَقَلَّبُ وأسبَحُ مُوَدِّعــاً تِلكَ الأمواجَ واللُّجَجَ التــي احتَضَنَتنا شُهوراً فسَبَحــتُ مِن خَلفِ السَّفِينَةِ وحِيــنَ رَأيتُ الحَبلَ المربوطَ بِقَفَــصِ السَّمَكِ دَعانِيَ الفُــضُولُ لأَن أرى ما بِهِ مِن أسماكٍ أخَــذتُ شَهِيقاً عَمِيقاً وأمسَكتُ بالحَبلَ وغُصتُ

مَعَهُ إلــى الأعماقِ أغُوصُ وأسحَبُ الحَبلَ للأسفَلِ إلــى أن وصَلتُ القَفَصَ ونظرتُ فِيــهِ فإذا الأسماكُ تَسبَحُ داخِلَهُ كانَ عَدَدُها لا بَــأسَ بِهِ وفجأةً شَعَرتُ بألمٍ كالنّارِ يَلفَحُ جِسمِــي وكأنَّ عصاً تَضرِبُنِي بِقُوةٍ فتُجَرِّحُ جَسَدِي إضافَةً إلى أنَّ نَفَسِي كادَ أن يَنقَطِعَ خَرَجتُ مِنَ الماءِ مُسرِعاً باتجاهِ الدَّرَجِ فرَفَعتُ صَوتي مُنادياً حامد :

– حامِد، الدَّرَج، بِسُرعَةٍ يا حامِد.

دَلَّى حامِدُ الدَّرَجَ فَصَعَدتُ وساعَدَني في الصُّعُودِ.

– سَلامات يا عَمّي عَلي سَلامات.

نَظَرتُ إلى جِسمِي فإذا بِهِ خُطُوطٌ حَمراءُ كَلَفحِ عصا الخَيزرانِ.

– دُول، هذا دُول. (قنديل البَحر)

ثُمَّ نادى جُمعَةَ فأتى وقالَ :

– لبيك.. عسى ما شَر يا عَمّي علي..؟

– لا شَر إن شاء الله، أصابَني الدُّول أحضِر قليلاً مِنَ الدُّهنِ.

أحضَرَ جُمعَةُ دُهناً فدَهَنتُ بِهِ جِسمي وبَعدَ ساعاتٍ ذَهبَ الألَمُ والحَمدُ للهِ.

إبراهيم : الذي أعرِفُه عَن الدُّول يا عَمّي أنَّهُ قِنديلُ البَحرِ.

– نعَم يا إبراهِيم هُــو قِنديلُ البَحرِ وهوَ جِسمٌ هُلامِي لَهُ شُعَبٌ طَويلَةٌ تُصدِرُ سُموماً حارِقَــةً ضَرَرُها على جِسمِ الإنسانِ مُتَفاوِتٌ يتوقَّفُ على طُولِ المدَّةِ التي يَتَعَرَّضُ فِيها الجِسمُ لِتِلكَ السُّمُــومِ فَما تَعَرَّضتُ لَهُ لا يَكادُ يُذكَرُ إنَّما هُنــاكَ مَن أصابَتهُم سُمُومُ

الـدُّوْل وسَبَّبَت لهُـم الغَثَيانَ والتَّقَيُّؤَ وأمراضاً جِلدِيَّةً لَم يَتعـافَ بَعضُهُم مِنها إلّا بَعدَ شُهُـورٍ لذلكَ فإنَّ هُنـاكَ لِباساً يَلبَسُهُ الغـاصَةُ في حالِ وُجُودِ قَنادِيـلِ البَحرِ يُسمّى (الشّملُول).

قالَ حامدُ مواسياً :

- كَيفَ حالُكَ الآنَ يا عَمّي..؟

- الحمدُ لله.

فِـي تِلكَ اللَّيلَةِ أحـسَستُ بِألَمٍ كَوَخـزِ الإبَرِ في عَيني وخـاصَّةً اليُمنى مِمّا كانَ يَضطَرُّنـي أن أدعَكَها بَينَ حِيـنٍ وآخَرَ إلى أن غلَبَني النَّومُ فنِمـتُ وكُنتُ أفضَلَ في الصَّباحِ إلّا أنَّ عَينِيَ اليُمنى كانَ بِها ألَم فَعزَيتُ ذلكَ للسَّهَرِ.

كانَـت العَديدُ مِنَ السُّفُـنِ عِندَ دُنُوِّ مَوعِدِ القُفَّال تَقتَرِبُ مِـن بَعضِها البَعضِ بُغيَةَ الرُّجُـوعِ سَوِيّاً ويَتَزاورُونَ بالقَـوارِبِ الصَّغِيرةِ وأحياناً بالسِّباحَـةِ وتُعتَبَرُ الأيامُ الثلاثةُ أو الأربَعَةُ قَبلَ العَـودَةِ بِمثابَةِ إجازَةٍ للغاصَةِ والسُّيوب، قَبلَ يَومينِ مِنَ القُفّال اقتَرَبَت مِنَّا عَـن يَسارِنا سَفِينَةٌ إلى دَرَجَـةِ أنَّ البَحّارَةَ كانُوا يَروَنَ بَعضَهُـم ويُلوِّحُونَ لِبَعضِهِم بالـسَّلامِ ولاحَت عَن يَمِيننا مِن بَعيدٍ سَفِينَةٌ أُخرى تَقتَـرِبُ مِنّا إنَّها النُّزعَةُ الإنسانيَّة نَحـوَ الجَماعَةِ والاندِماجِ فيها إنَّهُ البَحثُ عَن الاستِئناسِ والإحساسِ بِوجُودِ الآخرينَ وباقتِرابِ السَّفِينَةِ التي عَن يَسارِنـا حَمَلَت لَنا النَّسَماتُ أصواتَ أهازِيجِهِم وتَصفِيقَ بَحّارَتِهِـم وأَنغامَهُم التي يَشعُرُ سامِعُوها وهيَ تَتَرَدَّدُ في الأرجـاءِ بأنَّ هناكَ في البَعِيدِ غَيرَها وغَيرَها وأنَّ البَحرَ بمجاهِلِهِ الشّاسِعَـةِ يَعِيشُ حَفلاً بَهِيجاً بِتوديعِ رُوّادِهِ في نِهايَةِ مَوسِمِهم فَهاضَت أشجانُ خَمِيسَ وفِرقَتِهِ بَل وجَميعِ البَحّارَةِ فاتَّخَذَ مَقعَدَهُ هُوَ وجَوقَتُهُ

وظَلُّــوا صَامِتِينَ يَستَمِعُونَ لِتِلكَ النَّغَماتِ وهُم فــي أُهبَةِ الاستِعدادِ وكأنَّهُم يَستَمِعُونَ لأَسئلَــةٍ ويُحَضِّرُونَ الــرُّدُودَ عَلَيها وبالفِعلِ فبِمُجَرَّدِ أن قرَعَ الطَّبــلُ هُناكَ إيقاعَ الخِتامِ قَرَعَ الطَّبلُ هُنا إيقاعَ البِدايَةِ بِتَناغُمٍ وكأنَّهُم فِرقَةٌ واحِدَةٌ وراحَ خَمِيسُ يَستَعرِضُ صَوتَهُ وفُنُــونَ أدائِهِ ويُطلِقُ زَفَراتِ اللَّوعَةِ والحَنِينِ وتَتَداخَلُ الإيقاعاتُ والتَّصفِيقُ بَينَ نَبَراتِهِ فأشجَــى وأطرَبَ مِما حَدا بأحَــدِ البَحّارَةِ أن يَقفِزَ في الهَواءِ ويَهــوِي بِرِجلِهِ ويَدُقَّ بِها علــى سَطحِ السَّفِينَةِ مَعَ قَرعَةِ الطَّبلِ الخِتامِيَّةِ ورَفَعَ خَمِيسُ يَدَهُ لأعلى فإذا بقَرعَةِ طَبلٍ مِــن بَعِيدٍ مِنَ السَّفِينَةِ التي عَــن يَمِينِنا تُكمِلُ مَسِيرَةَ النَّهمَةِ لَقَــد عَلِمَ خَمِيسُ أنَّهُم سَيُكمِلون واستَمــرَّت الفِرقُ تَعزفُ وتُنشدُ والبَحَّارَةُ يُصفِّقُــونَ ويَرقُصون إلى ما قَبلَ صلاةِ المغرِبِ بِقَليل فَصَلّينا ثُمَّ بَدأ السَّمَرُ وتَبادُلُ الأحاديثِ انتظاراً للعشاء.

بَعدَ الصَّلاةِ وُضِعَ العَشاءُ الذي لَم يخلُ مِن المناكَفاتِ والمداعَباتِ ثُمَّ نامَ الجَمِيعُ وعَمَّ السُّكُونُ وظَلَلنا أنا وحامِدُ نَتَسامَرُ بالشِّعرِ تَحتَ أشِعَةِ القَمَرِ الفِضِّيَّةِ قلتُ لَه :

– أشعارُكَ يــا حامِد جَميلةٌ وإيقاعُها لهُ جَرْسٌ لَذيذ فهَــل تَقُولُ الشِّعرَ على أوزانِ البُحور..؟

– أعرِفُ بَعضَ البُحورِ مِن التَّغَنّي بِها ..فأنا أتَغنّى بالصْخَري والمسحوب والهلالي والحِدا ولكن يا عمّي هناكَ ضوابــطُ للشّعرِ بالتَّفعيلة سواء بالشعر العامي أو الفصيح وأنا الآن أقرأ عنها.

استَمرَّ حِوارُنا حولَ الشِّعرِ وتِــلاوَةِ القَصائدِ والاستِمتاعِ بمعانِيها وصُوَرِها الخيالية الجَميلةِ.

ـ ١٥ ـ

كانَــت صَفحَةُ البَحــرِ هادِئةً مَعَ نَسَماتٍ خَفيفَــةٍ جِدّاً وكانَ القَمَــرُ يُبدي الأشياءَ بــوُضُوحٍ إلّا أنّنا أنا وحامِد أشعَلنا ال (فَنَــر) (فانُوس صغير يعمل بالكاز) حتى نَقرأَ أشعارَنــا على ضَوئهِ الخافِت وبَينما نحنُ كذلك فإذا بِشَخصٍ يَسبَحُ نَحوَنا وعَلى رَأسِهِ إزارٌ واقتَــرَبَ مِن مُؤخــرَةِ السَّفِينَةِ وعِندَما وَصَلَ أنزَلنا لَهُ الــدَّرَجَ فصَعَدَ وسَلَّمَ فرَددنا السَّلامَ فقال :

– أنا مُحَمَّد أُريدُ أن أقابِلَ السَّيِّد عَلي.

– أنا السَّيِّد عَلي مَرحَباً بِكَ يا مُحَمَّد.

قَبَّلَنِــي على رَأسِي كانَ شاباً جَميلاً نَحِيلاً يَبدُو عليهِ التَّعَبُ ورُبَّما المرَضُ، والإزارُ الــذي عَلى رَأسِهِ كانَ جافّاً ففَتَحَهُ وأخرَجَ مِنــهُ كِيساً بلاستِيكياً ثُمَّ ائتَزَرَ وجَلَسَ وفَتَحَ الكِيسَ وأخرَجَ مِنهُ أوراقاً وقال :

– يا سَيِّد عَلي أنتَ نُوخذا وشاعِرٌ كَبيرٌ ومَشهُورٌ والكُلُّ يَعرِفُ ذَلكَ وأنا جِئتُكَ عانياً لأنِّي شاعِرٌ مُبتَدِئٌ وأرَدتُ أن أعرِضَ علَيكَ شِعرِي لِتُجِيزَنِي.

قُلتُ مازِحاً :

– لا، لَن أسمَعَ مِنكَ ولَن أجيزَكَ.

– لِماذا..؟

- حتّى تَأكُلَ معنا التَّمرَ وتَشرَبَ القَهوَةَ.

- لَن آكلَ التَّمرَ وأشرَبَ القَهوَةَ فَقَط بَل سَأفعَلُ كُلَّ ما تُريدُ.

- واضِحٌ أنَّكَ شابٌّ مُهذَّبٌ رَقِيقٌ.

فقالَ حامد :

- هكذا الشُّعَراءُ يا عَمِّي عَلي.

قُلتُ لمحمّد مُعرِّفاً بحامد :

- هذا حامِد وهُوَ شاعِرٌ أيضاً ولَهُ أشعارٌ رائِعَة هاتِ ما عِندَكَ يا محمَّد.

بَدَأَ بِقَصِيدَةٍ جَعَلتنا أنا وحامِدُ ننظُرُ إلى بَعضِنا بَعضاً وعقَّبَ عَليها حامِدُ :

- كُلُّ هذا وتَقُولُ إنَّكَ مُبتَدئ..؟

وعَقَّبتُ على كلامِ حامد :

- ما هــذا التَّحلِيقُ في سَماءِ الشِّعرِ ما هذا الوَصفُ ما هــذهِ الكلِماتُ التي تَضِجُ بالحَنينِ إنَّها فِعلاً قَصِيدَةٌ رائِعَةٌ، زِدنا.

كانَــت القَصَائدُ التي تَلتها قَصائِــدُ لا تَقِلُّ عَنها رَوعَةً في تَصويــرِ ذِكرياتِ الحُبِّ ولَوعَــةِ الفِراقِ وعُنفِ الشَّوقِ وكآبَةِ اليَأسِ مِنَ اللِّقاءِ ثُــمَّ أصبَحَ يَقرَأُ ويَبكِي ولا يَكادُ يُكمِــلُ أبياتَهُ وكنّا أنــا وحامد نَصمتُ أثناءَ بُكائِهِ ونَترُكُهُ حتــى يُخرِجَ الهَمَّ الذي في صَدرِهِ بَكى ثُمَّ قالَ بِصَوتٍ مُتَهدِّجٍ :

- أُحِبُّها يا سَيِّد عَلي.

– هَوِّن عَلَيكَ يا مُحَمَّد، مَن هِيَ..؟

– ابنَةُ خَالِي.

– لِماذا لا تَخطِبُها وتَتزَوَّجُها..؟

– أبُوها لا يُرِيدُ أن يُزَوِّجَنِي إيّاها.

– لِماذا..؟

– يَقُولُ هيَ لابنِ عَمِّها.

التَقَت نظَراتُنا أنا وحامِد وقُلت :

– مادُمــتَ قَصَدتَنــي سَأفعَلُ كُلَّ ما فــي وُسعي لِأخطِبَها لَكَ مِــن خالِكَ حَتّى لَو كَلَّفَنِي ذلكَ كُلَّ ما أملِك.

– لا جَدوى يا سَيد عَلي حاوَلَ مَعَهُ أناسٌ كَثِيرُون فَما أصغى.

– نُحاولُ أن نَجِدَ مَنفَذاً ولَو مِن أقرَبِ النَّاسِ إلَيهِ.

– لا جدوى ولا فائدة حاوَلَ مَعَهُ كِبارُ القَومِ فَلَم يُغَيِّر رَأيَه.

كُنــتُ فِعلاً أَوَدُّ مُساعَدَتَهُ والتَّخفِيفَ عَنهُ مِمّا يُكابِدهُ مِن حُبٍّ فأردتُ أن أثنِيهِ عَن الاستمرارِ في هذا الطَّرِيقِ المسدودِ وإلّا سَيؤدي بِهِ إلى الجُنُونِ فَمِثلُ هؤلاءِ العُشّاقِ يَجُرُّونَ أنفُسَهُم إلى التَّهلُكَةِ.

– واللهِ يا مُحَمَّد هَذهِ سَفِينَتي وما فِيها بَل وكُلُّ ما أملِكُ إن كانَ يُحَقِّقُ لَكَ زَواجَكَ مِن ابنَةِ خالِكَ فأنا على استِعدادٍ أن أبذُلَه.

ثُـــمَّ أَردتُ أن أُقنِعَهُ بأن يَصرِفَ نَظَرَهُ عَن هذا الحُبِّ ليُــواصِلَ حَياتَهُ الطَّبيعِيَّةَ وأن يَتَوَكَّلَ على اللهِ فَلرُبَّما يُقَدِّرُ اللهُ أن تَكُونَ ابنَةُ خالِهِ مِن نَصِيبِهِ فقُلتُ لَهُ :

– انظُر إلى حامِد فإنَّ مُشكِلَتَهُ نَفسُ مُشكِلَتِكَ قُل لَهُ يا حَامِد.

وأشَرتُ لِحامِدَ بِطَرفِ عَينِي لِيَشُدَّ مِن عزيمَتِهِ لِتَركِ ما هُوَ فِيهِ مِن مُعاناةٍ فقالَ حامد موجّهاً كلامه لمحمّد :

– فِعــلاً يا مُحَمَّد أحبَبــتُ ابنَةَ خالِي ولَعِبتُ مَعَها ونَحــنُ صِغارٌ وجَمَعَتنا لَحظاتٌ جَمِيلَــةٌ بَرِيئةٌ عَدَونا مَعاً وأكلنا وشَرِبنــا مَعاً وعِندَما فَاتَحتني أُمّــي بأنَّها سَتَخطِبُها لِي عُشتُ أيّاماً بَل شُهوراً في سَعادَةٍ ما بَعدَها سَعادَةٍ وقُلتُ قصائدَ كَثِيرَةً في حُبِّها وعَقَدتُ آمــالاً واسِعَةً وتَفَتَّحَت أمامِي أُمنِياتٌ عَذبَةٌ بِمُستَقبَــلٍ جَمِيلٍ سَيجمَعُنِي مَعها ولكن عِندَما فاجَأتنــي أُمّي بِرَفضِ خالي وأنَّهُ يُرِيدُ تَزوِيجَ ابنَتِهِ لابنِ عَمِّها وقَفتُ وقفَةً حازِمَةً مَــعَ نَفسِي حتّى لا تُسيطِرَ عليَّ فِكرَةٌ مُستَحِيلَةٌ تُؤَثِّرُ عليَّ وعلى مُستَقبَلي ففي لَحظَتِها قَــرَّرتُ أن أكبَحَ جِماحَ أحاسيسِي وقَلبي وأن أغُضَّ الطَّــرفَ عَن ارتِباطِي بابنَةِ خالِي وأن لا أنجَرِفَ خَلفَ مَشاعِري وصَدِّقنِي يا مُحَمَّد أنَّني وَجدتُ سَلوَةً في العَمَلِ والكَدِّ وسَبــرِ مَجاهِلِ البِحارِ، ومَرَّ دَهرٌ فإذا بِمَشِيئةِ اللهِ سُبحانَــهُ وتَعالى تُعِيدُها إليَّ ويَسوقُها القَــدَرُ لِأن تَكُونَ مِن نَصِيبِــي زَوجَةً وحَبِيبَةً، فاصبِر يا محمّــد ولا تَجعَلها مِشكِلَتَكَ الأولى فَلرُبَّما يَجعَلُها قَدَرُ اللهِ مِن نَصِيبِكَ.

– أنا آسِفٌ لِما سَبَّبتُهُ لَكُما، ما كانَ مَجِيئِي إلى هُنا إلّا لأعرِضَ عَلَيكَ يا سَيِّد علي قَصائدِي وأن تُجيزَنِي، وإنَّني مُمتَنٌّ جِدّاً لِمواساتِكُما لي.

– أتريدُنــي ألّا أُجِيــزَ شِعراً ما سَمِعتُ أعــذَبَ مِنهُ مِن قَبلُ، هاتِ مــا عِندَكَ زِدنا وأطرِبنا.

كانَت لَيلَةً مُمتِعَــةً فِي نِهايَتِها وقَبلَ مَغِيبِ القَمَرِ بِقَلِيلٍ بَدأَ رِداءُ اللَيلِ يَشتَدُّ سَواداً فاستَأذَنَ محمّد بالذَّهابِ :

– أستَأذِنُكُما بالذِّهابِ.

– لا،كيــفَ تَذهَبُ سابِحاً في هذا اللَّيلِ نَم هُنا وفــي الصَّباحِ نأخُذُكَ بالقَارِبِ إلى سَفِينَتِكَ. وهكذا كانَ.

فَجرُ يَــومِ القُفَّالِ كانَ مُمَيَّزاً فبَعدَ صَلاةِ الفَجرِ بَدَأَتْ مَــراسِمُ الخَطفَةِ لَيسَ لِتَغيير المــكانِ مِن مَغاصٍ إلى آخَرَ ولكن للعَودَةِ إلى الوَطــنِ والأحِبَّةِ يومُ كَأَنَّهُ يَومُ عِيدٍ بَل هُوَ يَومُ عِيدٍ يَبعَــثُ إحساساً بِأَنَّ جَمِيعَ القُلُوبِ مُتَّحِدَةٌ فــي مَشاعِرِها يَبعَثُ إحساساً بالفَرَحِ المــشُوبِ بِمَسحَةٍ مِنَ الرَّهبَةِ ومَسحَةٍ مِنَ الحُزنِ فنَشوَةُ الفَرَحِ تَجِيشُ لأنَّهُ يَومُ لِقــاءِ الأهلِ بَعدَ شُهُورٍ مِنَ البُعدِ وأنَّ ذلكَ اللِّقاءَ سَيكونُ دافئاً مَشحُوناً بِكُلِّ الأشواقِ التــي تَكدَّست وبِكُلِّ الأشجانِ التي جاشَت في غَمرةِ تِلكَ الشُّهورِ الطَّويلَةِ مِنَ البُعدِ والفِراق، ومَسحَةُ الرَّهبةِ تَكمُنُ في الظُّنُونِ والهَواجِسِ الموجِعَةِ بأنَّ مكرُوهاً قَد حَدَثَ هناكَ خَلفَ هذهِ اللُّجَجِ البَعِيــدَةِ أو أنَّ القُلوبَ المحِبَّةَ قَد تَغَيَّرَت ومَشاعِرَ الحُبِّ فيها قَد ذَوَت، وشَيءٌ مِنَ الحُزنِ يُخالِــطُ ذلكَ الفَرَحَ وتِلكَ الرَّهبَةَ لأنَّ هذهِ الجَماعَةَ التي تَكَوَّنَت وتَمازَجَت وتَآلفت وعاشَت شُهوراً في مَكانٍ ضَيِّقٍ بالكادِ يَجِدُ المَرءُ فِيهِ مَكاناً للنَّومِ سَتَتفرَّقُ وتَذُوبُ شُخُوصُها في طِياتِ الزَّمَنِ وتَظَلُّ أحاديثُهم ومُداعَباتُهم وعَرَقُهم الذي امتَزَجَ بِمِلحِ البَحرِ ذِكرياتٍ تَجِيــشُ بِها الخَواطِرُ حيناً بَعدَ حِين، تِلكَ المشاعِرُ يَحتَويهــا قَلبُ الإنسانِ وهوَ صَغيرٌ أَمَّا البَحرُ فَهُوَ كبيرٌ وفرحَتُه كبيرَةٌ وحُزنُهُ كبيرٌ وحَنانُهُ على مُرتادِيــهِ كَبيرٌ وهوَ يُوَدِّعُهُم بِحَنانٍ يَدُلُّ عَلَيهِ طَقــسُ ذلكَ اليَومِ الذي انخَفَضَت

حَرارَتُهُ عَن الأيامِ السابِقَــةِ والسُّحُبُ الصَّيفِيَّةُ البَعِيدَةُ المتَفَرِّقَةُ تُقَلِّلُ مِن حدة حَرارَةِ الشَّمسِ والنَّوارِسُ تَحُومُ وكأنَّ البَحرَ بَعَثَها رُسُلَ سَلامٍ ووداعٍ لِمَن احتَضَنَتهُم أمواجُهُ شُهــوراً، تَدُلُّ على فَرحَتِهِ وحَنانِهِ تِلــكَ النَّسائمُ العَليلَةُ الهادِئــةُ التي تَجُوبُ الفَضاءَ الفَسِيحَ تَحمِلُ أصداءَ مَواويلِ النَّهامِينَ وأناشِيدِ البَحَّارةِ وتَصفِيقِهِم وكأنَّها رُسُلٌ بَينَهُم يُحَمّلُونَها رسائلَ يَقُولونَ فيها لِبَعضِهِم ونَحنُ أيضاً عائِدونَ.

في الطَّريقِ عاوِدَني الألمُ في عَينيَ اليُمنى فَصِرتُ أفتَحُ عَيناً وأغمضُ أخرى لأرى أثــرَ الألَمِ على نَظَري فَوجَدتُ أنَّ نَظَرَ عَينيَ اليُمنى أقَلُّ بِكثِيرٍ عَنهُ في اليُسرى ولكنَّ نَظري عِندَ فَتــحِ العَينينِ لا يَزالُ سَليماً فَقَد مَيَّزتُ شاطِئَ القَريَةِ مِن بَعيد ولاحَت لي جُموعُ المستَقبِلِينَ.

وصَلنــا قَبلَ المغرِبِ بِساعَةٍ فقَد كانَت الرِّيحُ فــي ذلكَ اليَوم نَشِطَةً شِيئاً ما وكأنَّها تَستَعجِــلُ وصُولَنا كانَت هُناكَ سَفِينَــةُ السِّردالِ والسُّفُنُ المرافِقَــةُ لَها وثَلاثُ سُفُنٍ سَبَقَتنا بِقَلِيلٍ للتَّوِّ يُنزِلُونَ الأشرِعَةَ وسَفينَتانِ خَلفَنا.

وصَلنا وسَطَ زَغاريدِ النِّساءِ ودُمُوعِ الكُهُولِ ولَهوِ الأطفالِ وأناشِيدِ النَّهامِين، وبِمُجَرَّدِ تَوَقُّفِ السَّفِينَةِ قُلتُ لِصَقر :

– سأخُــذُ ياقُوتُ ليَحمِــلَ مَعيَ صُندوقَ البيشتَخته وحاجاتي ثــم يَعُودُ لِيظَلَّ في السَّفينةِ يوماً أو يومين حتــى ينتهي البحّارَةُ مِن جَمعِ حاجياتِهِم وبَعدَ غَدٍ إن شاء اللهُ سَنَجتَمِعُ عِندي في البَراحَةِ لِنُعطي كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّه.

أخَذَ ياقُوتُ حاجاتي إلى المنزِلِ وتَوجَّهتُ إلى براحَةِ النّواخذا فكانَ هناكَ مَجمُوعَةٌ مِنهُم والسِّردالُ يَتَصَدَّرُ المجلِسِ فقال :

– الله يعطيكــم العافيــة يا جماعَة والحمد لله على السَّلامــة اليوم مسموحين وما أريدُ أن أؤخرَكم عَن أهاليكم وسنجتمعُ هنا يَومياً ابتداءً من بعد غد ونتناقَش في أمور الموسم.

دَخَلتُ البَيتَ فإذا بِعَبَــقِ المَشمُومِ والياسَمينِ يَفُوحُ في أرجائِهِ والاستقبالُ الحارُّ في الانتِظارِ مِــن أُمِّ أحمَد وأمِّ عَبدالله والفَتياتِ الصَّغيــراتِ اللَّواتي ما رَأينَني حَتّى تَعَلَّقنَ بِي إنَّها فَرحَةُ اللّقاءِ بِعدَ الغيابِ وإنّهُ الشَّوقُ المتراكِمُ في أيامِ البُعدِ وإنّها الرُّوحُ البَشَرِيَّةُ التي غَرَسَ اللهُ سُبحانَهُ وتَعالى في أعماقِها المودَّةَ والرحمةَ إنَّهُ الشُّعُورُ بالانتِماءِ وبالعَودَةِ إلى الوَطَنِ والاستِقرارِ بَعدَ الاضطرابِ والخَوفِ مِنَ اللاعَودَة مِن تِلكَ اللُّجج والمجاهِــلِ البَعيدَةِ إلى أحــضانِ الأهلِ والأحِبَّةِ تِلكَ المشاعِــرُ كانَت جَيَّاشةً لأنها كانَت في حِقبَةٍ مِنَ الزَّمَنِ لَم تكُن فيها هَواتِفُ ذكِيَّةٌ نَقّالةٌ ولا أجهِزَةُ إرسالٍ واستِقبال فَليسَت هُناكَ وسِيلَةٌ للتَّواصُلِ والسُّؤالِ عَن الأخبارِ في لَحظَةِ التَّذَكُّرِ وامتِلاء الخَواطِرِ بأطيافِ النائينَ ليسَت هُنــاكَ طريقَةٌ لاجتِيازِ جُدر الحَنينِ وإطفاءِ لَهيبِ الشَّوقِ حتى ولــو بِرِسالة فالهَواتِفُ كانَــت سِلكِيَّةً وليسَت مُتَوفِّرَةً في المنــازِلِ كانَ الاتّصالُ بينَ النَّاسِ عَــن طَريقِ النَّاسِ وكانَت الرِّسالَةُ مَكتُوبَةً أو شَفَهِيَّةً قَد تَصلُ بعدَ يَومٍ أو يَومين ورُبما تَستغرِقُ شُهوراً وقد لا تَصِل.

حِقبَةٌ تَــضِجُّ فيها لَيالي البُعدِ بالألَمِ والبُكاءِ كانَ الحَنينُ فيها عارِماً والشَّوقُ حارِقاً ولا طعمَ لــلأكلِ والشُّربِ وأحيناً لا طَعمَ للحَياةِ أمّا اللِّقــاءُ فيها فكانَ لَذيذاً إلى حَدِّ البُــكاءِ وكأنَّ دمُوعَ الفَرَحِ تَغسلُ الوَجناتِ مِن دمُوعِ الحُزنِ، والأحضان تَرقي القُلُوبَ مِن آلامِ الفِراق.

-١٦-

بَعدَ عِدَّةِ أيــامٍ عادَت الحَياةُ رَتيبةً إلى القَريَةِ يَبدأُ اليَــومُ بِصلاةِ الفَجرِ التي كُنتُ أذهَبُ بَعدَها إلى البَيتِ فأجِدُ أُمَّ أحمَد وأُم عبدالله والفَتيات وقَد اجتَمَعنَ خارِجَ الدّارِ في حوشِ المنزِلِ فنتناولُ التَّمرَ والقَهوَةَ ثُمَّ تأتي أُمُّ سالِمَ بالإفطارِ الذي لا تَخلُو جَلَساتُهُ مِنَ المداعَباتِ ومناقَشَةِ الأمُورِ العائِليةِ ثُمَّ أذهَبُ إلى السُّوقِ وأمُرُّ على المقاهي التي كانَت زاخِرَةً بالأصدقاءِ والمعارِفِ يَتحــاوَرُونَ في شُؤونِ التِّجارَةِ ويتناقَلُونَ ما يَستَجِدُّ مِن أخبار.

في تِلكَ الفَترَةِ صارَ نَظَرُ عَينِيَ اليُمنى يَقِلُّ شَيئاً فشَيئاً.

ذَهَبتُ يَوماً إلى السُّوقِ ومَعي ياقُوتُ قاصِداً دكانَ بوهاشم :

- السَّلامُ عَلَيكُم يا بوهاشِم كَيفَ حالُكَ..؟

- عَلَيكُمُ السَّلامُ يا سَيد عَلي الحَمدُ للهِ حيَّاكَ تَفَضَّل.

جَلَــستُ قُربَــهُ وطَلَبَ لي شاياً وتَحادَثنا أخبرتُهُ عَن ما جَــرى في رِحلَةِ الغُوصِ ثُمَّ أشَرتُ إلى ياقُوتُ وقُلتُ :

- هــذهِ أَمانَتُكَ وجَزاكَ اللهُ كُلَّ خَيــرٍ لَقَد عَمِلَ مَعِي وحَصلَ على رِزقِهِ كانَ نَشيطاً ذَكِياً وتَعَلَّمَ الكَثيرَ مِنَ الأعمالِ في الغوص.

- حاضرين يا بو أحمَد عَزِيز وغالٍ.

- بو هاشِم.

- نَعَم..؟

- ودَدتُ أن أشتَري مِنكَ ياقُوتُ فقَد تأقلَمَ مَعَ عَمَلِ البَحرِ وأنا قَد فَقَدتُ مَرزُوق.

- مــا طَلَبتَ شَيئــاً يا بو أحمد فأنا لــدَيَّ مِنَ العُمَّالِ ما يَكفينِي وقَــد عادَ أحَدُهُم بالأمــسِ مِن سَفرٍ لأهلِهِ كَما أنَّني لَم أُعطِ راشِد قِيمَةَ الرَّجُلَين حتّى الآن ادفَع لِراشِدَ قِيمَتَهُ وخُذهُ.

- جَزاكَ اللهُ خيراً يا بو هاشِم.

- ولكِــن قُل لِي يا سَيِّد علي لِــمَ لا تَمُرُّ عَليَّ في مَجلِسِي فأخُــوكَ صالحُ يأتِيني بِشَكلٍ شِبهِ يَومي وقَريَتُنا قُربَ قَريَتِكُم..؟

- أمرُكُم في القَريبِ إن شاء اللهُ.

لاحَظَ بوهاشِم عَينِيَ اليُمنى فسَألَني :

- عسَى ما شَر ماذا في عينِك..؟

- أحسُّ أنَّ النَّظَرَ في عَينيَ اليُمنى بَدأَ يَضعُفُ مَعَ ألَمٍ طَفيفٍ.

- لا يا أخِي لا تَسكت عَن عَينِك، قُم مَعي.

- إلى أينَ..؟

- إلى دُكانِ حَكيمِ العُيونِ جعفَر، لَيسَ بَعِيداً مِن هُنا.

ذهَبنــا إلى دُكانِ جعفَر كانَ رَجُــلاً وَقُوراً فَتَحَ عَينِي بإصبعَيهِ ونَظَــرَ بِمُكَبِّرٍ في يَدِهِ الأخرى وقالَ :

– مُنذُ مَتى وأنتَ تُحِسُّ بالألَمِ في عَينِكَ..؟

– مُنذُ عَشرَةِ أيامٍ تَقرِيباً.

– سَيد عَلي، الواضِحُ لي أنَّ لَديكَ مرَضَ السُّكرِي هَل تَعلَمُ ذلكَ..؟

– لا.

– لِمَــرَضِ السُّكرِي أثَرٌ على العَينِ وعَينُكَ فيها مــا يُسمّى الماءَ الأبيَض ورُبَّما يَكُونُ السّكَري هُوَ المسَبِّبُ وهذا لابُدَّ مِن أن يُعالِجَهُ طَبِيبُ عُيونٍ متَخصِّصٌ ولَدَيهِ خِبرةٌ وأجهِزَةٌ أمَّــا أنا فَسأُعطِيكَ قَطرَةً لتَرطِيبِ العَينِ تأخُذُها مَرَّتَينِ يومِياً في أوقاتَ الاستِرخاءِ مَرَّةً بَعدَ الغَــداءِ ومَرَّةً قَبلَ النَّومِ وأنصَحُكَ بِتَقلِيلِ السُّكريــاتِ والإكثارِ مِن شُربِ الماءِ ومراجَعَةِ طَبِيبِ عُيُونٍ في أسرَعِ وَقتٍ مُمكِنٍ لأنَّ التَّأخيرَ يَزِيدُ الأمرَ سُوءاً وقَد تَفقِدُ عَينَكَ.

كانَت تِلكَ رِسالَةً واضِحَةً قَوِيَّةً لِي بِعَدَمِ التَّهاوُنِ في مُعالَجَةِ عَينِي في أسرَعِ وَقتٍ. مَرَّت عِدَّةُ أيَّامٍ استَخدَمتُ فِيها القَطرَةَ وسَألتُ كَثيراً عَن أطبّاءِ العُيُونِ ولكِن لَم أراجِع أيَّــاً مِنهُم وجَرَفَتنِي دَوّامَةُ الحَياةِ خــاصَّةً أنَّ أُمَّ أحمَد وضَعَت طِفلَتِيَ الثَّانِيَةَ ولَم تَضَع أحمد الحَمدُ للهِ على ذلِكَ.

إبراهِيم : البَناتُ أحَنُّ على الأَبِ مِنَ الأَولادِ يا عَمِّي.

– صَحِيــحٌ لَقَد أصبَحَ فِــي البَيتِ ثَلاثُ فَتياتٍ صَغِيراتٍ هُــنَّ ابنَتايَ وابنَةُ عَمِّكَ مُحَمَّد.

عندَمــا عَلِمــتُ أنَّ راشِد عادَ مِنَ البَحرِ زُرتُهُ فِي مَجلِسِهِ عَــصراً كانَ في المَجلِسِ رجُلانِ يَلبَسانِ الزِّيَّ الإفرنجيَّ يَجلسانِ قُربَ راشِد وخادِمٌ يَصُبُّ القَهوَةَ، وعِندَما رآنِي راشِدُ نَهَضَ واستَقبَلَني :

– حيا الله السيِّد علي حيَّاك تَفضَّل.

– السَّلامُ عَليكُم.

– عليكُم السَّلامُ.

ثُمَّ عَرَّفَهُما بِي وعَرَّفَني بِهِما

– هذا السَّيــد علي شاعرنا وكبير دِيرتنا وهــذا صَلاحُ وزمِيلُه مُصطَفى مِن مملَكَةِ مِــصرَ صَحفيانِ مُكلَّفانِ مِن الدِّيوانِ الملَكي المــصرِيِّ لعَمَل تَحقيقات صَحَفِيَّة عَن الخَليج.

– هَل أنتُما مِنَ القاهِرةِ.

فأجابَني صلاح :

– أنا مِنَ القاهِرةِ ومُصطَفى مِنَ السُّويس بَس بيشتَغل في القاهِرة.

فقالَ راشد :

– السَّيد علي طَوَّاش ونوخذا وشاعِر.

دارَ بينَنــا حَديثٌ شَيِّقٌ وسألتُهُم عَن السُّويسِ والقاهرةِ وطُرُقِها وأشهَرِ الأماكِنِ فيها فقال صلاح :

– مصر كبيرة يا حاج علي مصر أم الدنيا مصر النّيل من شرب من ميّتها لازم يرجع لهــا تاني لازم تزور مصر ياحاج علي حتــشوف الأهرامات وأبو الهول وتزور الحسين والسيــدة زينب وحتمشي فــي حواريها وأزقتها وأسواقهــا الشعبية زي خان الخليلي والموسكي والأزبكية والكلام يطول لما تتكلم عن القاهرة.

- والبحر..؟ هل فيها بَحر ومراكب وغوص..؟

- لا، القاهــرة مافيهاش بحر بس فيها نهر النِّيل أما البحر فبعيد شوية عندك البحر الأبيض في الإسكندرية فيه البحارة والصيادين ومينا كبير بس طبعاً ما فيهاش الغوص لأن البحــر الأبيض عميق جداً مــش زي الخليج وطبعاً فيها البحر الأحمر اللي بيبدأ مــن خليج السويس وعليه مدن كثيرة زي الغردقــة وسفاجا والسويس ومصطفى من السويس ممكن يكلمك عنها.

فقالَ مصطفى :

- مدينة السويس كبيرة يا حاج علي فيها آثار وأسواق وفيها البحر والصَّيادين وفيها الأسواق الشعبيــة وقنــاة السّويس سمّوها عليها لأنها تبدأ مــن السويس على البحر الأحمر لغاية البحر الأبيض.

سادَ صمتٌ قصير فقالَ صلاح :

- يا حاج عَلي إحنا جايين نعمل تحقيق صحفي عن بلدكم انت عملت لنا تحقيق صحفي عن بلدنا.

ضَحِكنا فقلتُ :

- أنا سألتُ لأني فِعلاً أنوي الذَّهابَ إلى القاهِرةِ لأعالِجَ عَيني.

- كَثيرُونَ هُم أطِبَّاءُ العُيونِ في القاهِرَة.

- وحقِيقةً أخشى رُكوبَ الطَّائرَةِ بَعدَ حادِثِ تحطُّم الطَّائرَةِ الأستراليَّة.

قالَ مصطفى باهتمام :

- الأفـضَلُ يا حاج علي أن تَأتي بالباخِرَةِ مِن جِدَّةَ إلى السُّويس فهي رِحلَة مُمتعة

تتعَرَف فيها على الناس وتَرى جمال البَحر الأحمر نَحنُ سنظلّ هُنا عَشرَةَ أيَّامٍ وبعدين نرجــع إلى القاهرةِ وبَعدَها بأسبُوعٍ سأكُونُ في إجــازَةٍ لِمُدَةِ شَهر أقضِيها بينَ أهلي في السُّويس وأتمنى أشوفك هُناك وهذا عُنواني.

قاطعنا راشد قائلاً :

– وماذا عَن اتفاقِنا يا سَيّد علي..؟

– بَعدَ أن أعودَ مِنَ العلاجِ إن شاء الله.

فجأةً دَخَلَ عَلينــا يوسف مَندُوبُ السِّردالِ وكانَ مُرافِقــاً لصَلاح ومُصطَفى فقال وكأنّهُ تفاجأ بوجُودي :

– السيد علي، كَيفَ حالكَ كنتُ أنوي زيارتَك وأسألُ عَن أخبارك.

– عليكم السَّلامُ.

– عِندي لَكَ كلامٌ طيبٌ ولكن بعدَ أن نعود هيّا يا صَلاح.

– إلى أين..؟

– سَنَقُومُ بِجَولَةٍ سَريعَةٍ لِتَصويرِ مَعالِمِ القَريَةِ قبلَ غُروبِ الشَّمسِ وسَنَعُودُ لا تَذهَب.

بَقِينا أنا وراشِدُ وَحدَنا فكُنتُ أنوي أن أعرِضَ عَليهِ أن يَشتَري سَفِينَتِي كي أستَطيعَ السَّفَرَ والعِلاجَ لكنَّهُ بادَرَني وقال :

– ما دُمتَ لَن تَذهَبَ مَعي لِتجارَةِ الرَّقِيقِ وسَتُسافِرُ للعلاجِ فَبِعنِي سَفِينَتَكَ.

– فَكَّرتُ في ذلكَ.. وأنا مُوافِق.

اتفقــتُ مَعَ راشِد على أن يَشتَري سَفِينَتِي ويَخصِمَ مِن قِيمَتِها قِيمَةَ ياقُوت وعِندَما تأخَّرَ يوسف والمصريانِ خَرَجتُ.

بِعتُ السَّفينَةَ على راشِد ولكِنَّني لَم أذهَب للعِلاجِ بَل فَكَّرتُ في استِثمارِ مالِي بأَن أشتَــري السُّفُنَ وأُصلِحَها ثُمَّ أبِيعَها أمَّا بالنّسبَةِ لِعَينِي فكُنتُ أذهبُ للأطباءِ فيُعطُونَنِي أدوِيَةً تكُونُ مُريحَةً لِعَينِي أحياناً أيضاً جالَ في خاطِري أن آخذَ قِسطاً مِنَ الرَّاحَةِ لِعِدَّةِ أشهُرٍ وألتَفِتُ إلى عَائلَتِي فَقُمتُ أنا وياقُوتُ بتَرمِيمِ البَراحَةِ التي أمامَ البَيتِ فالجُوُّ قَد بَــدأ يَمِيلُ إلى الاعتِدالِ في حرارَتِهِ. كانَت أمُّ أحمَد وأمُّ سالِم تُعِدَّانِ الأكلَ لضُّيوفِ البَراحَةِ أما القَهوَةَ والشَّايَ فيقُومُ ياقُوتُ بإعدادِهِما على المجمَرِ. وصَنَعتُ عِندَ جارِنا النَّجــارِ طاوِلَةً خَشَبِيَّةً صَغِيرَةً يَستَطِيعُ الجالِــسُ على الأرضِ أن يكتُبَ عَلَيها وضَعتُها هنــاكَ حتى تَتَسنّى لِي الكِتابَةُ عَليها. كانَــت البَراحَةُ في مَكانٍ يَسقُطُ عَليهِ ظِلُّ غُرفَةِ البَيــتِ العُليا بَعدَ صَلاةِ العَصرِ فَقَــد كانَت الغُرفَةُ في الجانِبِ الغَربِيِّ للبَراحَةِ، أمَّا في الشِّتاءِ فَتَلتَحِفُ البَراحَةُ بالظِّلِّ طَوالَ اليَومِ تَقرِيباً لأنَّ البَيتَ في الجِهَةِ الجَنُوبِيَّةِ مِنها.

إبراهيم : أذكُرُ تِلكَ البراحَةَ يا عَمِّي كُنتُ آتيكَ عِندَها مِن بَيتِ أخوالِي أنا وعيسى ابن عَمّي مُحَمَّد.



ـ١٧

في مَساء يَومٍ مِن الأيامِ مُعتَدِلِ الحَرارَةِ لَطيفِ النَّسماتِ كُنتُ أراجِعُ أشعارِي على طاولَتــي الخَشَبيَّةِ وياقُوتُ في الزَّاوِيَةِ المقابِلَــةِ لي مِنَ البَراحَةِ قُربَ المجمَرِ وأستَعِيدُ أشعارَ حامِد إذ مَرَّ يوسف فَسَلَّمَ وجَلَسَ وتَحدَّثنا ومِن بينِ الكَلامِ قالَ لِي :

– هنــاكَ بانُوشٌ للبَيعِ في القَريَةِ القَريبَةِ ورَخِيــصٌ بثَلاثَةِ آلافِ روبِّيَّة ولكنَّهُ يَحتاجُ إلى إصلاح وقَد يُعطِيكَ إيَّاهُ بِأقَلَّ إن ساوَمتَهُ.

– طيِّب، ومَتى نُعايِنُهُ..؟

– في أي وَقتٍ تَشاءُ.

عايَنــتُ البانُوشَ واشتَرَيتُــهُ بألفَينِ وسِتّمائــةِ روبِّيَّةٍ وعَهِدتُ إلى شَعبــانَ تَرمِيمَهُ وإصلاحَهُ فطَلَبَ ثَمانَمائةِ روبِّيةٍ وقالَ :

– حــاضِر يا سَيِّد علي ولكَ عليَّ أن أُعِيدَهُ جَدِيداً ولكِنَّ ذلكَ يتَطَلَّبُ شَهرَينِ تَقِلُّ أو تَزِيد.

– تَوكَّل على الله.

كانَــت البَراحَةُ مَكانَ أُنسِي وكانَ عَدَدُ الأصحابِ والأصدِقاءِ الذينَ يزُورونَني فِيها يَزدادُ كُنّا نَتَسامَــرُ ونَتَبادَلُ أطرافَ الحَديثِ حَولَ مُستَجِــدّاتِ الأخبارِ وحَولَ الشِّعرِ والشُّعــراءِ والرِواياتِ التِــي تَناولَتها الألسنُ من أخبارِ الأولِيــنَ، كانَ مِن بَينِ الذينَ يَزورُونَنــي أخي خالد وهو مَعنا في القَريَةِ وأخي صالِــح الذي كانَ يَسكُنُ قَريَةً قَرِيبةً.

لَقَد فرَّقتنا الحَياةُ أنا وإخوَتي فقَد ماتَ مُحمَّد وعِيسى وحَمَد وإبراهيم وبَقِيَت أختُنا أمُّ أحمَد التِي نادِراً ما أزورُها لانشِغالي وأمُّ عَبدالله التي تَعيشُ مَعي ويوسف الذي عاشَ وَحيداً مَريضاً وخالِــدُ وصالح وعَبدالله الذِي هاجَرَ للعَمَــلِ واستَقرَّ هُناكَ، كانَ رَجُلاً وَقُوراً ذا خُلقٍ ودِينٍ وواصِلاً فَقد زارَنا عِدَّةَ مَرّاتٍ.

بَدأت أنسامُ الشِّتاءِ تَهُبُّ والجُلوسُ قُربَ الجَمرِ يَبعَثُ الدِّفءَ في الأجسادِ ويَتَغَلغَلُ بينَ الضُلوعِ إلى القَلبِ فيُثيرُ الشُّجُونَ ويُلهِبُ الحَنينَ ويُفَجِّرُ يَنابِيعَ الذِّكرياتِ فتَتَراءى أطيــافُ الرَّاحِلِينَ وتَزدَحِمُ الخَواطِرُ نَحوَهُم بِكَلِماتٍ ما قِيلَت لَهُم تَتَهلَفُ أن يَسمَعُوها عِندَهــا تنسابُ جــداولُ البَوحِ وأنهارُ الــشَّوقِ وتَمتَلئُ الكَلِماتُ لَوعَــةً على الأوراقِ خــاصةً عِندَما يَكُونُ المجلِسُ خالياً مِــنَ الأصحابِ بَعدَ أن كانَ عامِراً بِهِم وبِنَوادِرِهم وضَحكاتِهِــم فَتُخَيِّمُ الوحدَةُ والسُّكونُ ويَنهَمِرُ الشِّعرُ ويَصِرُّ القَلَمُ وتُشعُّ الحُرُوفُ عَلى السُّطُورِ فكَتَبتُ..

جَفنِــي عَلامِكْ ما تِهَنِّيــتْ بِنْعاسْ
وعْيُونْ خَالِــيْ البَالْ وَسْنى نِواعِيسْ
وْيــا قَلْبْ يَلّي دَكّ بِهْ فَــرْطْ هُوجَاسْ
يــا ويْلْ قَلْــبٍ شَاغِبَتْــهْ الهَواجِيسْ
وِحِيدْ مــا عِنْدِي مِن النَّــاسْ وَنّاسْ
سِمِيرِي المَبَــرِي وبِيضِ القَراطِيسْ
أبْنِي بْيُوتْ القَافْ سَاسٍ عَلَى سَاسْ
ما يَثبِتْ المَبنى عَلــى غِيرْ تَأسِيسْ

كانَ الشِّعــرُ مُتَنَفَّساً لمشاعِــري ولكنَّ البَحرَ يَدعُوني بَل ويُلِــحُّ علَيَّ أن أُسافِرَ في مَجاهِلِهِ وأعتَلِي أمواجَهُ ولَم أنتَظِر شَعبانَ حتّى يُصلحَ البانُوشَ بَل اشتَرَيتُ قارِباً صَغِيراً لا يتَعَــدَّى طُولُهُ سَبعَةَ أمتارٍ فكُنتُ أنا وياقُــوتُ نَذهَبُ فِيهِ ونَصطادُ السَّمَكَ ونُوَزِّعُ مِنهُ على الجِيرانِ مَرَّةً جاءَنِي يوسف المندُوبُ وطَلبَ مِنّي أن آخُذَهُ بِقارِبِي إلى دُوبةٍ قَرِيبةٍ.

إبراهيم : ولِماذا..؟

– كانَ يُريــدُ تَحمِيلَ مَوادَّ تَموينيَّةٍ لِمَتجَرِ بوهاشم مِــنَ (الدُّوبَةِ) والدُّوبَةُ وجَمعُها الــدُّوَبُ هِي مسَطَّحاتٌ حَدِيديةٌ كَبيــرَةٌ عائمَةٌ تُجرُّ بالمراكِــبِ كالمقطُوراتِ بالنِّسبَةِ للشَّاحِنــاتِ وتُثَبَّتُ في نُقاطٍ مُعَيَنَةٍ قَرِيباً مِــنَ الشَّواطئِ تَرسُو عَلَيها المراكِبُ التِّجارِيَّةُ الكَبيــرَةُ لإنــزالِ البَضائِعِ حَيــثُ أنَّ موانئَ الخَلِيــجِ لَم تَكُن مُهَيَّــأَةً في ذلك الوَقت لاستِقبالِ سُفُنِ الشَّحــنِ الكَبِيرَةِ وبَعضُ الدُّوَبِ كَبيرَةٌ وفِيها غُرَفٌ لموظَّفي الجمارِكِ والحُرَّاسِ. قالَ لِي يوسف :

– لَدَيَّ فاتُــورَةُ استِلام بِضاعَةٍ لبوهاشم وأُريــدُكَ أن تأخُذَنا في قارِبِكَ إلى الدُّوبَةِ والأفضَلُ أن تُحضِرَ ياقُوتَ مَعَكَ.

كانَ طَلَبُ يوسف مُحَفِّزاً لي لِارتِيادِ البَحرِ لِهَدَفٍ آخَرَ غَيرَ صَيدِ السَّمَكِ..

– حاضِر، أنا جَاهِزٌ في أي وَقت.

– لَكن لَيسَ قَبلَ أن تَعِدَنِي أن تَأخُذَ أُجرَتَك.

– لَيسَ بَينَنا أجرَةٌ يا يُوسف.

– يا سَيِّد عَلي هــذهِ تِجارَةٌ وَمخَصَّصٌ فِيها ثلاثُمائةِ روبيَّة للنَّقلِ مِنَ البَحرِ إلى البَرِّ وهِي مِن حَقِّكَ وحَقِّ عامِلِكَ.

– طَيّب ولكِن قُل لي كيفَ تَتِمُّ هذهِ الإجراءاتُ..؟

– يَقُــومُ التَّاجِرُ المستَورِدُ والتَّاجِــرُ المصَدِّرِ بِتَبادُلِ البَرقِيــاتِ بِتَفاصِيلِ البِضاعَةِ المطلوبَــةِ وقِيمَتِهــا وكيفِيَّــةِ إرسالِهــا ومَــكانِ استِلامِهــا ويقُــومُ المستَــورِدُ بِإبراز البَرقِياتِ لِمَصلَحَةِ الجَمارِكِ فَيُعطُونَهُ أوراقاً لاستِلامِ بضاعَتِهِ مِن الدُّوبَة.

إبراهِيم : وكيفَ يَضمِنُ المستَــورِدُ بِضاعَتَهُ وكَيفَ يَضمِنُ المصَدِّرُ مالَهُ ألَم تَكُن هُناكَ بُنُوك..؟

– البنُوكُ والحَوالاتُ البَنكِيَّةُ قَدِيمَةٌ في العالَمِ ولكنَّها لَم تَكُن مَوجُودَةً في الخَلِيجِ في ذلكَ الوَقتِ وحتّى بَعدَ أن وُجِدَت استَمَرَّ التَّعاملُ بِدُونِها لِعِدَّةِ أعوامٍ.

وسَألتُ يوسف :

– هَل تَعرِفُ المكانَ..؟

– نَعَم أعرِفُهُ.

– إذنْ هَيَّا بِنا.

– لا يــا سَيد علي قارِبُكَ صَغِيــرٌ وبَعدَ قَلِيلٍ سَتَغرُبُ الشَّمــسُ أرى أن آتيكَ غداً وأصَلي الفَجرَ مَعَكُم في مَسجِدِكُم ثُمَ نَتَوَكَّلُ على اللهِ ونَذهَبُ.

– تَوَكَّلنا على الله.

في الفَجرِ التَقَينا في المسجِدِ وكانَ يوسف قَد أحضَرَ مَعَهُ يُونُسَ وما إن رَآهُ ياقُوتُ حتــى تَعانَقا وكَأنَّهُمــا لَم يُصَدِّقا أن يَرَيا بَعضَهُما في خضَمِّ هــذهِ الحياةِ التي فَرَّقَتهما وأبعدَتهمــا عن أهلِهِما أَخَذنا مَعَنا تَمــراً ومَاءاً وقِدراً فيهِ الــرُّزُّ والسَّمَكُ الذي أعَدَّته

أمُّ سالِـم وأبحَرنا كانَ الجَوُّ صَحـواً بارِداً في الفَجرِ ولكنَّ ارتِفـاعَ الشَّمسِ رَفَعَ دَرَجَةَ الحـرارَةِ فأصبَحَ الجَـوُّ مُعتَدِلاً والهَواءُ مُنعِشاً وعلى الرغمِ مِـن أنَّ سُرعَةَ الرِّيحِ كانَت نَشِطَـةً إلّا أنَّ اتّجاهَها لَـم يَكُن في صالِحِنا فَقَد كانَ يوسف يُشِيـرُ لِي أن أتَوجَّهَ إلى الشَّمالِ الغَربِيِّ وهذا يَعنِي مُواجَهَةَ الرِّيحِ والأمواجِ وهذا يَتَطَلَّبُ مِنّا أن نُخايِرَ.

إبراهِيم : وكَيفَ تُخايِرُونَ..؟

– المخايَـرَةُ مَطلوبَةٌ إذا كانَت الجِهَةُ المقصُودَةُ في اتِّجاهِ هُبوبِ الرِّيحِ تَماماً وتَعنِي أن نُبحِرَ لِمُواجَهَتِها عَن يَمِينِها تارَةً وعَن يَسارِها تارَةً أخرى حتّى نَصِلَ كما أنَّ العَمَلِيَّةَ تَتَطَلَّبُ جُهداً وتَتَطَلَّبُ اثنَينِ لِتَوجِيهِ القارِبِ فَكُنتُ أنا مُمسِكاً بالدَّفَّةِ ويوسف مُمسِكاً بِمُوَجِّهِ الشِّراعِ يُعاوِنُهُ في ذلكَ ياقُوتُ ويُونُسُ فالرِّيحُ تَكُونُ قَوِيَّةً عِندَ مُواجَهَتِها.

وصَلنـا بَعدَ صَلاةِ الظُّهرِ بِقَلِيـلٍ كانَت الدُّوبَةُ كَبِيرَةً جِداً وفيهـا كَبائنُ خُصِّصَتْ كمكاتِبَ للحُرَّاسِ ورِجالِ الجَمارِكِ وتَحمِلُ حاوِياتٍ كَثِيرَةً وتُحِيطُ بِجوانِبِها الإطاراتُ المطَّاطِيَّـةُ لِتُخَفِّفَ مِنَ اصطِدامِ السُّفُنِ والمراكِبِ التِي تَرسُو عِندَها كانَ هُناكَ رِجالٌ علـى سَطحِها أشارَ لَنـا أحدُهُم بالمكانِ الذي يَجِـبُ أن نُوقِفَ قارِبَنـا عِندَهُ فاتَّبعنا تَعلِيماتِـهِ وصَعدنا أنا ويوسف إلى سَطـحِ الدُّوبَةِ كانَت هُناكَ سَفِينَـةٌ كَبِيرَةٌ تَرسُو في الجِهَـةِ المقابِلَةِ. استَقبَلَنا الرِّجالُ بِحفاوَةٍ وأخَذُونا لمكتَبٍ وأحضَرُوا لَنا الشَّايَ. عَرَّفنا أحَدُهُم على نفسِهِ قائلاً :

– أنا عامِر مِنَ الجَمارِكِ والمشرِفُ على هذِهِ الدُّوبةِ مَن أنتُما..؟

قالَ يوسف :

– أنا يوسف وهذا صَدِيقِي علي جِئنا مِن أجلِ بِضاعَةٍ استَلَمنا بَرقِيَّةً بأنَّها وَصَلَت.

أخَذَ عامِرُ الأوراقَ مِن يوسف واطَّلَعَ عَلَيها ثُمَّ قال :

– نادِ عُمَّالَكَ .

أمَرَ يوسف ياقُوتَ ويُونُس أن يَصعَدا على ظَهرِ الدُّوبَةِ فصَعدا فقالَ عامِرُ :

– اتبَعُوني .

نادَى عامِرُ أحَدَ عُمَّالِ الدُّوبَةِ ومَعَهُ عَرَبَةٌ ثمَّ أخَذَنا إلى حاويَةٍ مُغلَقَةٍ فَتَحَ مِزلاجَها ثُمَّ فَتَــحَ بابَها وبَدأَ يَقرَأُ والعامِلُ يُنَفِّذُ باستِخراجِ الموادِّ ووَضعِها في العَرَبَةِ وياقُوت ويُونُسُ يُساعِدانِهِ..

– عَشرَةُ أكياسِ رُز، سِتَّةُ أكياسِ سُكَّر، عَشرَةُ كَراتِينِ زَيت..؟

قاطَعتُهُ :

– أهذا لِتاجِرٍ أم لِمَنزِلٍ..؟

– ياسَيِّد عَلي إنَّها الحَربُ كانَ التّاجِرُ الصَّغِيرُ يَطلُبُ مائةَ كِيسِ رُز وقِس على ذلكَ أمَّا الآنَ وبَعدَ أن فُرِضَ التَّعامُلُ بالبِطاقَةِ فَإنَّ الموادَّ التَّموِينِيَّةَ الدَّاخِلَةَ عَبرَ المضِيقِ قَد قَلَّتْ.

– ولماذا..؟

– كَثِيــرٌ مِن تُجارِ العالَمِ غَيَّروا مَساراتِ السُفُــنِ إلى مَوانئَ خارِجَ المضِيقِ بِسَبَبِ الحَربِ كَما أنَّ السُّفُنَ الدَّاخِلَةَ تَتَعَرَّضُ للسَّرِقَةِ المقَنَّنَةِ وغَيرِ المقَنَّنَةِ.

– وكَيفَ تَكُونُ السَّرِقَةُ مُقَنَّنَةً.

– حَـدَثَ مَرَّةً أنَّ إحدى الحامِياتِ التَّابِعَةَ للـدُّوَلِ العُظمى في الخَلِيجِ قامَت عَن طَريـقِ سُفُنِهـا الحَربِيَّةِ بالاستيلاءِ على سَفِينَـةِ تَموينٍ لإطعامِ جُنُودِهـا بِسَبَبِ تَأَخُّرِ شُحنـاتِ الغِذاءِ التي طَلَبَتها إلّا أنَّها قامَت بِدَفعِ قِيمَةِ الشُّحنَةِ كامِلَةً ولا يَحدُثُ ذلكَ كثيراً فالسُّفُـنُ الحَربيةُ للحامياتِ تَقُومُ بِحراسَةِ بَعـضِ الشُّحناتِ التَّابِعَةِ للحُكوماتِ حتّى تَصِلَ لمياهِها الإقليميةِ وبالتَّالي تَقُومُ الحُكوماتُ بِبَيعِها بالبِطاقَةِ على المواطِنِينَ بِسِعرِ التَّكلُفَةِ أما السَّرِقَةُ غَيرُ المقَنَّنَةِ فَيقُومُ بِها القَراصِنَةُ كالسَّطوِ على الدُّوَبِ الصَّغيرَةِ أو سُفُنِ التَّجزِئةِ ولكِن كَثيراً ما تَكُونُ لَهُم السُّفُنُ الحَربِيَّةُ بالمرصادِ.

قامَ عامِلُ الجمارِكِ مَعَ ياقُوتَ بِنَقلِ البِضاعَةِ إلى القارِبِ وقَد كانَ فيهِ يُونُسُ يَتناوَلُ مِنهُم الأكيـاسَ والصَّنادِيقَ وأنا أراقِبُهُ مِن فَوقِ سَطحِ الدُّوبَـةِ وأعطِيهِ التَّعليماتِ أينَ يَـضَعُ الأكياسَ والصَّناديقَ للمُحافَظَةِ على تَوازُنِ القارِبِ وعلى الرّغمِ مِن قِلَّةِ البِضاعَةِ إلّا أنَّ القارِبَ بَدَأ يَمتَلِئُ وفي أثناءِ تَناوُلِ يُونُسُ مِن ياقُوت صُندوقاً خَشَبِياً كُتِبَ عَلَيهِ (شاي) زَلَّـتْ قَدَمُهُ ووَقَعَ هُوَ والصُّندُوقُ في البَحـرِ فَنَزَلَ ياقُوتُ إلى القارِبِ وساعَدَ يُونُسَ على الخُـرُوجِ مِنَ البَحرِ وإذا بالصُّندُوقِ الخَشَبِيِّ يَطفُـو قُربَ القارِبِ فانتَشَلَهُ ياقُوتُ وبَعدَ أن حَمَّلنا البِضاعَةَ وقَّعَ يوسف على أوراقِ الاستِلامِ ووَدَّعنا عامِرَ وصَحبَهُ وحِيـنَ ابتَعَدنا عَنهُم قَليـلاً تَوقَّفنا لأكلِ الرُّزِّ والسَّمَكِ ثُمَّ أبحَرنـا كانَت الرِّيحُ مُواتِيَةً ونَشِطَـةً فعَلى الرَّغمِ مِن ثِقلِ الحُمُولَةِ كانَ القَـارِبُ يَسِيرُ بِسُرعَةٍ وصَلنا بَعدَ المغرِبِ، قُلتُ لِيوسف :

– وماذا سَتَفعَلُ بالبِضاعَةِ في هذا اللَّيلِ..؟

– غداً في الفَجرِ أُحضِرُ عَرَبَةَ نَقلٍ لِحَملِها.

طَلَبتُ مِن ياقُــوت أن يُحضِرَ فِراشَهُ لِينامَ في القَــارِبِ لِحِراسَتِهِ وفي الصَّباحِ جاءَ يوسف وأخَذَ البِضاعَةَ.

بَعدَ أيامٍ كانَ الجَوُّ فِيها جمِيــلاً وإشراقَةُ الصَّباحِ فِيهِ تَدعُو للنَّشاطِ والعَمَلِ ذَهَبتُ إلى البانُوشِ الذي اشتَرَيتُهُ ورَأيتُ عِندَهُ شَعبانَ وعُمَّالَهُ فسلّمتُ :

– السلامُ عليكُم.

– عليكُمُ السَّلام سَيد عَلي.

– ما شاءَ الله، شُغل نَظِيف ومُرتَّب.

كانَ البَانُوشُ يَبدُو وكَأنَّهُ جَدِيدٌ وحتّى رائِحَتُهُ ولَمعانُهُ.

– ومَتى أستَلِمُهُ..؟

– بَعدَ يَومَينِ إن شاءَ اللهُ.

ثُمَّ استَطرَدَ :

– لَقَد جَاءَنِــي صَدِيقٌ وطَلَبَ مِنِّي أن أعرِضَ عَلَيكَ أن تَبيعَهُ البانُوشِ وتَحاوَرنا في سِعرهِ فأوصَلَهُ إلى خَمسَةَ عَشرَ ألفِ رُوبِّيةٍ، فَما رَأيُكَ..؟

– واللهِ يــا شَعبان فاجَأتَني فَقَد كُنتُ أنــوِي الإبحارَ فِيهِ ونَقلَ البَضائعِ ولكِن دَعنِي أُفَكِرُ.

وبعدَ تَفكِيرٍ بِعتُهُ بِخَمسةَ عشرَ ألف.

بِعتُ البانُوشَ دُونَ أن أُبحِرَ فِيهِ ودُونَ أن أُجَرِّبَهُ وقَرَّرتُ أن أجُوبَ الشَّواطِئَ لأبحَثَ عَن قَوارِبَ وسُفنٍ مُتَوَقِّفَةٍ عَن العَمَلِ لأشتَرِيها وأُصلِحَها.

-١٨-

تَوَقَّفَــت ذِكرَياتُ عَلي فَقَد هَبَّت نَسمَةٌ بــارِدَةٌ أصابَتهُ بِقَشعَرِيــرَةٍ أيقَظَتهُ مِن سِنَتِهِ فَساحَــت عَيناهُ فِيما حَولَهُ مِن مَشهَدٍ بَدِيعٍ لَقَد أبهَجَــهُ بُزُوغُ قُرصِ القَمرِ الذي قارَب علــى التَّمامِ وارتَفَــعَ قَلِيلاً عَن الأُفُقِ أمامَهُ ولكنَّه مُطفَأٌ ولَــم يُضِئ فالشَّمسُ خَلفَهُ لَم تَغِــب بَعدُ وأمواجُ البَحرِ تَتَكَــسَّرُ قُربَ قَدَمَيهِ وقارِبُهُ الصَّامِتُ مائِــلٌ على جَنبِهِ وكأنَّهُ مَضطَجِعٌ نَحوهُ يُشارِكُهُ تِلكَ الذِّكرَياتِ الجَمِيلَةَ بابتسامةٍ عَرِيضَةٍ أملاً بعَودَتِهِ إلى سابِقِ عَهــدِهِ دَسَّ يَدَهُ في جَيبِهِ العُلويِّ وأخرَجَ ساعَتَهُ، فَتَحَهــا وهَمَسَ : اثنا عَشَرَ إلّا عَشر دَقائِقَ، باقِي عَشر دَقائِقَ عَن صَلاةِ المغرِبِ.

أعادَ ساعَتَهُ وأكبَّ بِرَأسِهِ على ذِراعَيهِ وانغَمَس في ذِكرياتِهِ.

لَقَد زَوَّجَ ابنَتَيهِ وابنَةَ أخِيهِ مُحَمَّــد وأنجَبنَ البَنِينَ والبَناتِ وتَركنَ العُشَّ وطِرنَ مَعَ أزواجِهِنَّ، وإخوَتُــهُ كذلكَ عبدالله وصالح زوَّجُوا بَعضَ أبنائِهِــم وبناتِهم ما عدا أخاه يُوسف الذي لَم يتزَوَّج لِمَرَضِهِ وخالِد الذي تَزَوَّجَ ولَم يُنجِب.

إبراهِيم : رَحِمَ اللهُ عَمِّي خالِد، أذكُرُهُ لقد كانَ نحِيفاً وأذكُرُ يومَ وَفاتِهِ.

– رَحِــمَ اللهُ خالِد كانَ هزيلَ الجِسمِ ضَعِيفَ البُنيَةِ مُرهَفَ الحِسِّ حَنُوناً لَم يَسمَح لَهُ ضَعفُهُ بارتيادِ البَحرِ ومُكافَحَةِ الحَياةِ كانَ دَيِّناً وَرِعاً كَثِيرَ البُكاء لِوَرَعِهِ وماتَ فَقيراً.

– إنَّ لَحَظــاتِ الألَم تَأتِي بَغتَةً دُونَ سابِقِ إنذارٍ فتُحِيلُ لَحظاتِ الأُنسِ والفَرَحِ إلى لحَظــاتِ أسىً ولَوعَةٍ وتَخنِقُ أُمنياتِ اللقاءِ بأمــراسِ اليأسِ والمستَحِيلِ إلّا أنَّ تُرُوسَ النِّسيانِ رُغمَ ما بِها مِن ثُلُومٍ تُعيدُ عَجَلَةَ الحَياةِ مِن جَدِيدٍ.

- كُنتُ أجُوبُ البَحرَ في قارِبيَ الصَّغيرِ أنقُلُ فيهِ البَضائعَ مِنَ البَحرِ إلى البَرِّ وأحياناً العَكـسِ وكَثِيراً ما كُنتُ أذهَبُ إلى دُكانِ بوهاشِم فَمِن هناكَ ومِن تُجّارِ السُّوقِ أتَلَقّى صَفقـاتِ الإبحارِ وكانَ بوهاشِم ويوسف يُساعِدانِي فـي تَوفِيرِ الزَّبائنِ أمَّا البَراحَةُ فقد ظَلَّت عامِرَةً بالأصحابِ.

في أحدِ أيّـامِ الشِّتاءِ البارِدَةِ جِئتُ البَراحَةَ فإذا فيهـا يُوسفُ ومَعَهُ جُون وديفد ما عَرفتُهُما بادئَ الأمرِ كانا يَلبَسانِ مَلابِسَ عَرَبِيَّةً ثَقِيلَةً وكانَ الجَمِيعُ يَجلِسونَ قُربَ مِجمَرِ النَّـارِ وياقُوتُ يَـصُبُّ لَهُمُ القَهوةَ لَقَد كانَ الطَّقسُ بارِداً فِعـلاً سَلَّمتُ فَنَهَضَ الجَميعُ للسَّلامِ عَليَّ :

- السلامُ عليكم .

- عليكم السلامُ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه.

قالَ يوسف :

- لقَد أصَرّا أن يَرَياكَ قَبلَ أن يُغادِرا.

- إلى أينَ..؟ ولِمَ العَجَلة ؟ فاللَّيلُ في أوَّلِهِ اسألهُما يا يُوسف..؟

- لِمَ أسألهُما..؟ اسألَهُما أنتَ فجون يَتَحَدَّثُ العَربِيَّةَ بِطلاقَة.

- ما شاءَ الله.

قالَ جون مُؤيداً :

- نَعَـم، تَعلَّمتُ العَربيَّةَ وأجدتُها بالدِّراسَةِ وبالممـارَسَةِ لَقَد قَضَينا أكثَرَ مِن عَشرَةِ أعـوامٍ فـي المنطقَةِ ذَهاباً وإياباً أمَّـا الآنَ فَمُهِمَّتُنا قَد انتهَت وكانَ مِـنَ المفترَضِ أن

نُغـــادِرَ قَبلَ ثلاثَةِ أيّامٍ إلّا أنّنـــا تَسَلَّمنا بَرقِيَّةً بأنَّ مَوجَةَ البَردِ هــذهِ سَتزدادُ حِدَّتُها على المنطَقَةِ الأُسبُوعَ القادِمَ وهيَ أقسى مَوجَةِ بردٍ مُنذُ عُقُودٍ على جَميعِ دُوَلِ الخَليجِ وقَد تَهبِــطُ دَرجاتُ الحَرارَةِ فِيها إلى أقَلَّ مِن سَبعِ دَرجاتٍ تَحتَ الصِّفرِ ففَضَّلنا أن نَمكُثَ لِنُــدَوِّنَ هذهِ الظَّاهِرَةَ وتَأثيراتِها وقَد جِئناكَ يا سَيِّــد عَلي لأنّنا أُعجِبنا بِشَخصِكُم فأنتَ مِنَ الشَّخصِياتِ التي دَوَّناها في مُذَكّراتِنا وزُرناها ونُرِيدُ أن تُعطينا مِن أشعارِكَ وتُحدِّثنا عَن تأثِيرِ البِيئةِ التي تَعيشُها في شِعرِكَ.

كانَت تِلــكَ سَهرَةً مُمتِعَةً حافِلَةً بالأحادِيثِ الطَّيبَــةِ كانَ ديفد قَلِيلَ الكَلامِ ويقُومُ جُــون ويوسف بتَرجَمَةِ بَعضِ الحِواراتِ لَهُ كانَ جُون يَــسألُ فأجِيبُ ثُمَّ تَحَوَّرَ الكَلامُ إلى مَوضُوعاتٍ تَتَعَلَّقُ بالدِّينِ فقالَ :

- سيِّد عَلِي.

- نَعم.

- أتَذكُر يَومَ أن أتَيناكَ في سَفِينَتِكَ في البَحرِ..؟

- نَعَم أذكُرُ.

- أتذكُــرُ يَومَ أن سَألتُكَ عَن الرِّزقِ فقُلتَ لــي : إنَّ الرِّزقَ بيَدِ اللهِ سُبحانَهُ وتَعالى خالِــقِ الأكوانِ ومُقَسِّمِ الأرزاقِ الحَيِّ الذي لا يَمــوتُ لا تأخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَومٌ الواحِدِ الأَحَدِ الفَردِ الصَّمَدِ الذي لَم يَلِد ولَم يُولَد..؟

- ما شاءَ اللهُ هَل حَفِظتَها..؟

- لَم أحفَظها فَقَط بَل لازَمَتنِي طَوالَ السِّنِين الفائِتَةِ كانَ وَجهُكَ يَتَجَسَّدُ لي وأَنت

تُنـصِتُ لِيوسف وهُوَ يُتَرجِمُها لي قَـرَأتُ تَرجَماتِ القُرآنِ مِن أجلِهــا وتَعَلَّمتُ اللُّغَةَ العَرَبيَّــةَ مِن أجلِها لَم تُفارِقنِي صُورَتُك وصَوتُكَ وأنا أقرَأُ وأبحَثُ واقتَنَعتُ أنَّ الإسلامَ هُوَ دِينُ الحَقِّ فقَرَّرتُ أن أعتَنِقَ الإسلامَ ولكن.

صَمتَ جون وكَأَنَّهُ يَلتَقِطُ أنفاسَهُ..

- ولكن ماذا..؟

- ولكــن قَرَّرتُ ما دُمتُ هُنا في هذا البَلَدِ أن أزُورَكَ أن أزُورَ مَن لَهُ الفَضلُ بَعدَ اللهِ في قناعَتي بالإسلامِ وغَداً بإذنِ اللهِ تَعالى أذهَبُ لأشهِرَ إسلامِي.

- بارَكَ اللهُ فيكَ يا أخي إنَّهُ خَبَرٌ مُفرِحٌ وماذا عَن ديفد..؟

ابتَسَمَ ديفد فردَّ عنه جون :

- في الطَّرِيقِ إن شاءَ اللهُ.

- إذَن أرجُــو أن لا تَخذِلَنِي يــا أَخي جُون وتَقبَلَ دَعوَتِي لــكَ أنتَ وزَمِيلكَ على العَشاءِ غَداً بِهذهِ المناسَبَةِ التي لا شَكَّ في أنَّ أهلَ القَريَةِ سَيفرَحُونَ بِها.

تَرَدَّدَ جُون في الرَّدِّ فأومَأَ لَهُ يوسف بأن يُوافِق :

- مُوافِق وعلى فِكرَة يا سَيِّد علِي فأنا اختَرتُ اسماً جَدِيداً لي هُو يَحيى.

- ونِعمَ الاسم.

- نَستأذِنُكَ الآن يا سَيِّد علي.

إبراهيم : لَقَد أعجَبَني إصرارُ ذلكَ الرَّجُلِ في البَحثِ عَن الحَقِيقةِ وقد وَصَل إليها عَن قَناعَةٍ.

- نَعــم، إنَّهُ مِنَ النَّاسِ الذينَ يُخَطِّطُونَ لِحَياتِهم ويجعَلُــونَ لَها هَدَفاً يضَعُونَهُ نصبَ أعينِهــم ويَسعَونَ لِتَحقيقِــهِ بالمثابَرَةِ والصَّبرِ لا يَثنيهم عَن ذلــك مَرُّ الأيامِ ولا حتى السّنين خاصَّةً إذا كانَ الهَدَفُ مَصِيرياً يَتَعَلَّقُ بالعَقِيدَة.

في اليَومِ التّالِي حَضَرَ مُعظَمُ الذينَ دعَوتُهم وكانَ حَفلاً مُمتِعاً فقَبلَ العَشاءِ تَبادَلنا الحَديــثَ وتَسامَرنا كانَ من بين المدعوين أخي صالِــح وأبناءُ عمّي هزيم وأيضاً جاء شَعبان وراشد ودارَت حواراتٌ كثيرةٌ كانَ معظمُها معَ يحيى حولَ اعتناقِهِ الإسلام ثم أصبحَــت الحواراتُ جانِبيةً ثُمَّ وضِعَ العَشاءُ وأثنــاءَ الأكلِ أمالَ يحيى رأسَهُ ليوسف هامِــساً فابتسم وضحكَ ضحكةً مَكبُوتَةً فــأشرتُ ليوسف بيدي مستفسراً عن ما دارَ بينهَما ثُمَّ قُلتُ لجُون ممازِحاً :

- خير يا يحيى ألا يعجبكم أكلنا.

- بالعكس يا سيد علي لقَد تَعوَّدنا على هذه الوَلائمِ التي تُعبِّرُ عَن كَرَمِكم.

ثُمَّ وجَّهتُ كلامي ليوسف :

- خير يا يوسف.

فضحكَ وقال :

- تَذَكَّــرَ يحيى قِصّةَ لِــسان الخَروف التي قالها أحد بحّارتكــم عندما زرناكم أيام الغوص.

ضَحكتُ فقالَ أخي صالح :

- إيش القصة..؟

فذكــرتُ القصَّةَ لصالح أمام الجميع فضحكوا ثم بعَــد العَشاء أدارَ ياقُوتُ أكوابَ الشَّاي والقَهوةَ وتسامَرنا إلّا أنَّ الجَميعَ ذَهَبُوا بَعدَ شربِ القَهوةِ مُباشَرَةً فالجَوُّ كانَ بارِداً جِدّاً.

فــي الصَّباحِ كانَ هُنــاكَ أناسٌ مُتَجَمهِرُونَ عِنــدَ الشَّاطِئِ يَجمَعُــونَ أسمَاكاً كَثِيرةً تَجَمَّدَت مِنَ البُرُودَةِ وجَرَفَتها الأمواجُ إلى ساحِلِ البَحرِ والنَّاسُ فَرِحُونَ بِذلكَ الرِّزقِ الوفِيرِ غَيرَ آبِهِينَ بالبَردِ لقد ظَلَّ الجَوُّ بارِداً لِعِدَّةِ أيامٍ ثُمَّ مَرَّت أيَّامٌ تَراكَمَت فِيها الغُيُومُ وتَخاطَفَت فِيهــا البُرُوقُ وهَزَمَت فِيها الرُّعُودُ وانهَمَرَ المطَــرُ غَزيراً وقَد تَأثرَ العَدِيدُ مِن بُيــوتِ القَريَةِ الطِّينيَّةِ بِفعلِ الأمطــارِ والرِّياحِ، لَقَد رَحلَ كَثيرٌ مِن أهــلِ القَريَةِ بَعدَ أن أصبَحَت المباني مُهتَرئةً وبَــدأت أطرافُها تَتآكلُ وتَتَساقَطُ ونَخَرَ فِيها القِدمُ ولكِن بَقِيَ في القَريَةَ عددٌ مِــنَ البُيوتِ العامِرَةِ بِأهلِها انتِظاراً لِوَعدِ الحُكُومَــةِ بِبناءِ مَدينَةٍ حَديثَةٍ مــكانَ قَريَتِنا القَدِيمَــةِ وتَناقَلَ النَّاسُ أيــضاً أنَّ هُناكَ ميناءً كَبيــراً سَيُبنى في غُضُونِ سَنــواتٍ قَليلَةٍ مِمّا سَيجعَــلُ النَّاقِلاتِ الضَّخمَةَ تَرسُو على أرصِفَتِــهِ بدَلاً عَن رُسُوِّها علــى المسَطَّحاتِ العائِمَةِ بَعيداً فِي عَرضِ البَحرِ أمَّا الغُوصُ فَقَد هَجَرَهُ النّاسُ فكُنتُ إن أبحَــرتُ بِقارِبِي في مُهِمَّةٍ أو صَيدٍ ونَظَرتُ إلــى صَفحَتِهِ البَعِيدَةِ الفارِغَةِ التي خَيَّمَ فيها السُّكونُ والوَحشَةُ أتَخَيَّلُ أنَّها حَزِينَةٌ لِفراقِ ذلكَ الحَشدِ مِنَ السُّفُنِ تَحِنُّ أمواجُهُ لأصواتِ النَّهامِينَ وتَصفِيقِ البَحَّارَةِ وحَرَكَةِ مَراكِبِ الطَّوَّاشِينَ وهُم يَتَنَقَّلُونَ بَينَ سُفُنِ الغَــوصِ وتَشتاقُ أعماقُهُ للغَواصِينَ وهــيَ تُقَدِّمُ لَهُم الــدُّرَرَ المكنُونَةَ في الأصدافِ وتَشتــاقُ نَسَماتُهُ للعَبَثِ بالأعــلامِ والأشرِعَةِ ونَقلِ أهازِيجِ الغُربَــةِ والحَنِينِ وتَشتاقُ نَوارِسُهُ المهاجِرَةُ للصَّوارِي تَشتاقُ لأن تَلجأَ إلَيها كُلَّما أتعَبَها السَّفَرُ.

١٩ـ

ظَلَلتُ أعمَلُ في نَقلِ البَضائعِ وتَعَرَّفتُ على كَثيرٍ مِن تُجّارِ السُّوقِ واشتَرَيتُ سَيّارَةً لأحمِــلَ عَلَيها البَضائعَ مِنَ القارِبِ إلى حَوانيتِ التُّجارِ وعَيَّنتُ عَلَيها سائِقاً استَقدَمتُهُ مــن شَرقِ آسيــا كانَ اسمهُ هارون وكانَ أَميناً وكُنتُ أرتــادُ المقهى القَريبَ مِن دُكانِ بوهاشِم والذي كانَ يرتادُهُ أيــضاً مَجمُوعَةٌ مِن مَعارِفي وأصدِقائي مِثل راشِد ويوسف وأخــي صالح وآخَــرُونَ تَعَرَّفتُ عَليهِم كانَ راشِدُ بَعدَ أن أرهَقَتــهُ تِجارَةُ الرَّقيقِ قَد باعَ سَفينَتَــهُ التي اشتَراها مِنّي واشتَرى أُخرى أصغَرَ مُهتَرِئَةً تَحتاجُ إلى جُهدٍ كَبيرٍ ووَقتٍ طَويلٍ لإصلاحِها قالَ لي مَرَّةً :

– لَقَد جاءَتني صَفقَةٌ جَيِّدَةٌ ولكن لَيسَ لَديَّ سَفينَةٌ.

– وما هيَ..؟

– أنْ أُحضِرَ بِضاعَةً للتَّاجِرِ مِهراب مِن تاجِرٍ اسمُهُ فاضِل في بَندَر لِنجَة.

– ولكنّكَ تَعلَم يا راشِد أنَّ قاربي صَغِيرٌ وأنَّ بَندَرَ لِنجَة بَعيدٌ.

– قارِبُكَ لَيسَ صَغيراً أليسَ بِهِ خُن..؟

– بلى.. ولكنَّهُ صَغيرٌ.

– أليسَ بِهِ شِراعٌ..؟

– صَغِير.

- أليسَ لَهُ عَرشَةٌ نَستَظِلُّ بِها ..؟

- نَعَم، وما نَوعُ البِضاعَةِ..؟

- تَبغٌ وجراك وخشك ولوازِمُ الشِّيشَةِ والقدُو والتَّدخِين.

- وبِكَم اتَّفَقتَ مَعَهُ..؟

- الطــنُّ بِستِّمائةِ روبِّيّة وأنتَ وشَطارَتُــك وأرَى أنَّ قارِبَكَ يَتَحمَّــلُ أكثَرَ مِن ستَّةِ أطنان.

- ومَتى تُحِبُّ أن نَذهَبَ..؟

- بَعدَ غَدٍ..؟، مارَأيُك..؟

وافَقــتُ وأخَذنا مَعنا الزَّادَ والماءَ وفُرُشاً وأغطِيَةً وأبحَرنا بَعدَ صَلاةِ الفَجرِ كانَ شراعُ القــارِبِ صَغِيراً والصَّارِي كانَ قِطعَتَينِ سُفليَّةً قَصيرَةً مَحفُورَةً في أعلاها وعُلويَّةً طَويلَةً تَدخُــلُ في السُّفلِيَّةِ وتُثَبَّتانِ بِعَمودِ حَديد كانَ الجَوُّ مُلائِماً جِدّاً للإبحارِ الحَرارَةُ كانَت مُعتَدِلَــةً والرِّياحُ شَمالِيَّةً غَربِيَّــةً نَشِطَةً ثبَّتَ راشِدُ حَبلَ الــشِّراعِ وثَبَّتُّ أنا الدَّفَّةَ على الجَنُوبِ الشَّرقِــيِّ واستَمَرَّ القارِبُ هكذا يَمخرُ عُبابَ البَحرِ لِخَمسِ ساعاتٍ مُتَواصِلَةٍ بعدَهــا تَغَيَّرَ اتِّجاهُ الرِّيــحِ وقلَّت سُرعَتُها كانَت الشَّمسُ قَد مَالَــت عَن الزَّوالِ فَتَوقَّفنا حَتّــى نُصلِّي ونَأكُلَ فإذا بِسَفينَةٍ تَلُوحُ مِــن بَعيدٍ اقتَرَبَت مِنَّا شَيئاً فشَيئاً وعِندَما وصَلُوا إلينا أوقَفُوا سَفِينَتَهُم وألصَقُوها بالقَــارِبِ قَذَف لَهُم راشِدُ الحَبلَ ورَبَطُوهُ على عارِضَةِ السَّفِينَةِ سَلَّمُوا وسَلَّمنا فقالَ أحدُهم :

- سَلامات، سَلامات، أنا حُسين، عَسى ما شَر..؟

فقالَ راشد :

– عليكم السَّلامُ، أنا راشِد وهذا علي، لا شَر توَقفنا نَستَرِيحُ ثُمَّ نُواصِل.

– إلى أينَ وُجهَتُكم..؟

– بَندَر لنجة.

– بَعِيد، قَد تَصلُونَ غَداً مَساءً أو بَعدَ غَدٍ، هَل لَديكُم بَوصَلَة..؟

– نعَم..

– اسنِد على مائة شَرق، هَل لَدَيكُم ماعُونٌ أو قِدرٌ..؟

– نَعَم، لِماذا..؟

– أعطِني إيّاهُ.

أعطى راشِدُ القِدرَ لحُسَين فَمَلَأهُ البَحَّارَةُ رُزّاً وسَمَكاً وأعطاهُ لراشِد..

– هَل لَدَيكُما ماء..؟

– نَعَم الخَزَّانُ مُمتَلِئٌ.

وَدَّعُونــا وذَهَبُوا وأبحَرنا ثَلاثَ ساعاتٍ أو تَزِيدُ كانَ هَبُوبُ الرِّيحِ يَقِلُّ شَيئاً فَشَيئاً ثُمَّ تَغَيَّــرَ اتجّاهُ الهَواءِ قَبلَ المغرِبِ ورَأينا مَنطِقَةً داكِنَةً مِنَ البَحرِ عَلِمنا أنَّها مِنطِقَةٌ صَخرِيَّةٌ وعِندَمــا وَصَلناها قِسنا العُمــقَ فإذا هُو يُقارِبُ المترَينِ تَوقَّفنــا عِندَما غَرُبَت الشَّمسُ فَصَلينا وتَعشَّينا كانَ نِصفُ القَمَرِ في كَبِدِ السَّماءِ يَمنَحُ رِداءَ اللَّيلِ ضِياءً خافِتاً يُمَكِّنُنا مِن تَمييزِ الأشياءِ، قالَ راشِد :

– ما رأيُكَ يا سَيِّد عَلي أن نَرتاحُ ساعَةً ثُمَّ نُكمِلُ في هذهِ الليلَةِ المقمرَةِ الجَميلَةِ..؟

وافقــتُ فألقَينا المرساةَ وأكلنا نصفَ ما في القِدر من طَعامٍ وافتَرَشَ كُلٌّ مِنَّا فِراشَهُ والتَحفَ بِلِحافِــهِ وخيَّمَ السُّكُونُ أخَذَتنا غَفوَةٌ قَصِيرَةٌ أيقَظَنــا مِنها اشتِدادُ الرِّيح ومِنَ الاشتِدادِ إلى العَــصفِ وأصبَحَت الأمواجُ تَتَقاذَفُ القارِبَ تَرفَعُــهُ عالياً ثُمَّ تَهوِي بِهِ فقُلتُ لِراشِد :

- ارفَع المرساةَ وإلّا غَرِقنا.

رَفَــعَ راشِدُ المرساةَ وقُمــتُ بِتَثبيتِ إبرَةِ البَوصَلَةِ فأصبَحــت تَتَقاذَفُنا الأمواجُ ولا نَدرِي إلى أيــنَ ستأخُذُنا، والرِّيحُ كانَت تَهُبُّ وتَزدادُ اشتِداداً والأمواجُ تَزدادُ عُنفاً كُنَّا خائفَيــنِ بأن يَنقَلِبَ القَارِبُ فَنَغرَقَ فَسَلَّمنا أمرَنا للهِ نَدعُــوهُ ونَبتَهِلُ إليهِ أن يُنجِينا مِن هــذا الكَربِ بَعدَ مُدَّةٍ لاحَ لَنا في البَحــرِ جِسمٌ أبيَض كبِير ألقى عَليــهِ القَمَرُ ضِياءَهُ والأمواجُ تَحمِلُنا نَحوَهُ فَعَلِمنا أنَّها جَزِيرَةٌ وبعدَ فَترَةٍ ألقَت بِنا الأمواجُ على ساحِلِ تِلكَ الجَزيرَةِ فحَمَدنا اللهَ أن نَجّانا إلى البَرِّ كانَ الشَّاطِئُ رَملِياً بِكراً وكانَ واضِحاً أنَّ السَّاحِلَ الذي نَزَلنا مِنهُ هُوَ السَّاحِلُ الجَنُوبِيُّ الشَّرقِيُّ للجَزِيرَةِ ويَبدُو وليسَ بَعِيداً عَن الشَّاطِئِ سِيــاجٌ صَخرِيٌّ يَتَبَيَّــنُ أنَّهُ قَد جُمِعَ مِن قِبَلِ مَجموعَةٍ مِنَ الرِّجــالِ طُولُهُ يُقارِبُ السِّتَّةَ أمتــارٍ وارتِفاعُهُ أقلُّ مِن نِصفِ مِترٍ تَبعُدُ نِهايَتُهُ عَن الساحِلِ الغَربيِّ قُرابَةَ الخَمسينَ أو السبعينَ مِتراً أما في نِهايَةِ السِّياجِ مِنَ الجانِبِ الشَّرقِيِّ جِدارٌ بامتِدادِهِ بِطُولِ ثَلاثَةِ أمتارٍ وارتِفاعِ مترَينِ وسُمكِ نِصفِ مِترٍ تقريباً يَتَعامَدُ عَلَيهِ في نهايَتِهِ جِدارٌ بِنَفسِ أبعادِهِ خَلفَهُ شاطِئٌ صَخرِيٌّ والجِداران مبنِيانِ بالطِّين ومِن صُخورٍ وأحجارِ الجَزِيرَةِ ويَصُدَّانِ الرِّياحَ الشَّمالِيَّةَ والشَّمالِيَّــةَ الغربيَّة رُبَّما أقامَهُما البَحارَةُ كمَصَدٍّ للرِّياح كُلَّما أرادُوا أن يَلُوذُوا بالجَزِيرَةِ مِن عَواصِفِ البَحرِ قَرَّرنا أنا وراشد أن نَنزِلَ على الجَزِيرَةِ ونَأخُذَ مَرقَدَينا ونَنَامَ

قُربَ الجِدارَيــنِ اتِّقاءً للرِّيحِ كُنتُ قَد أحضَرتُ مَعِــي مِصباحَينِ يَدَويَّينِ لي ولِراشِد
نَزَلنــا الجَزيرَةَ وهَيَّأنا فِراشَينا إلّا أنَّ راشِد أصَرَّ على السَّهرِ وإشعالِ النَّارِ وعَمَلِ الشَّاي
وتَدخِيــنِ القدُو على ضَوءِ القَمَــرِ رغمَ اشتِدادِ الرِّيحِ كانَت هُناكَ ألــواحٌ مُتَناثِرَةٌ عَلى
الشَّاطِــئِ جَمَعَ راشِدُ بَعضَها وجَهزَّهــا لإشعالِ النَّارِ ثُمَّ ذَهَبَ إلــى القارِب الذي لَم
يَكُن قَريباً جــدّاً مِنَ الشَّاطِئِ أمّا أنا فَلبستُ نَعلِيَ الجِلدِيَّةَ واتَّجهتُ شَمالاً أستَكشِفُ
كانَت أطرافُ الجَزيرَةُ تَتَّسِعُ شَرقاً وغَرباً كلَّما اتَّجَهتُ شمالاً وكلَّما مَشَيتُ قَليلاً رَفَعتُ
مِصباحِــيَ اليَدَوِيَّ وأدَرتُهُ في أرجاءِ الجَزيرَةِ يَمِيناً ويَساراً فلاحَت لي مِن بَعِيدٍ حُجرَةٌ
طِينِيَّةٌ على السَّاحِلِ الشَّرقِي مَشَيــتُ إليها وحِينَما اقتَربتُ مِنها رَفَعتُ المصباحَ إلى
جِهَــةِ الشَّمالِ فإذا بِشاطِئٍ صَخرِي تَهدِرُ عَلى صُخُورِهِ الأَمواجُ لِشِدَّةِ الرِّيحِ كانَ ذلكَ
الشَّاطِئُ هُوَ نِهايَةُ الجَزيرَةِ مِنَ الشَّمالِ أمَّا الحُجرَةُ فَكانَت طَلَلاً بِلا نَوافِذَ إنّما لَها ثَلاثُ
فَتحــاتٍ مِن جِهــةِ الغَربِ وفَتحَةٌ كَبِيــرَةٌ مُقابلةٌ لِلشَّرقِ كانَ المــكانُ مُوحِشاً وجَّهتُ
المصباحَ إلى الأرضِ حَولِي فإذا بِأحجــارٍ مَصفُوفَةٍ عليها شاهِدانِ كانَ واضِحاً أنَّهُ قَبرٌ
وإذا بِصَوتِ أنِينٍ يَــصدُرُ مِن داخِلِ الغُرفَةِ فأحسَستُ بِوَحــشَةٍ فَذَهبتُ إلى الجانِبِ
الآخَــرِ ووَقَفتُ أمامَ فَتحَةِ البــابِ تَرَدَّدتُ في الدُّخــولِ وازدادَ صَوتُ الأنِينِ سَمَّيتُ
باسمِ اللهِ ودَخَلتُ رَفَعتُ المصباح وأدَرتُهُ نَحوَ الصَّوتِ فإذا بِجَرَّةٍ خَزَفِيَّةٍ يدخُلُها الهَواءُ
فتُــصدِرُ صَوتاً يُشبِهُ الأَنِينَ يَعلو كُلَّما اشتَدَّت الرِّيــحُ تَنَفَّستُ الصُّعداءَ ودارَت بِبالي
خُرافاتُ البحّارَةِ وتَهَيؤاتُهم التــي يسرِدُونَها في المجالِسِ لإثارَةِ الجالِسينَ ويضيفونَ
لأساطيرِهــم التَّوابِلَ والزِّياداتِ في كُلِّ مَرَّةٍ فَلم تَكن لَديهِم أجهزة التلفزيون والفيديو
لم يكُن لديهم سوى السَّرد الذي يهدفونَ منهُ لَفتَ الأنظارِ إليهِم أدرتُ المصباحَ مرةً
أخــرى في جدرانِ الطَّلَلِ فَلم يكُن هناكَ ما يلفــتُ الانتباهَ فخَرَجتُ وتَوَجَّهتُ لِراشِد

فإذا بِهِ قُربَ النَّارِ يُدَخِّنُ القدُو وقَد أنزَلَ قِدرَ الرُّزِّ والسَّمَكِ وقَد بَقِيَ فيهِ أكثَرُ مِن نِصفِهِ ووَضَعَــهُ وأبريقَ الشَّاي قُربَ النَّارِ بَدأت شِدَّةُ الرِّيح تَهدأُ شَيئاً فشَيئاً تَعَشَّينا ونِمنا نَوماً عَميقــاً في الفَجرِ صَلَينا وأبحَرنا قُمتُ بِتَسجيلِ قِــراءَةِ إبرَةِ البُوصَلَةِ المثَبَّتةِ ثُمَّ حَرَّرتُها وحسَبتُ الفَرقَ فَعُدنا إلى مَكانِنا ثُمَّ أبحَرنا باتِّجاهِ مائة شَرق كما قالَ لنا حسين أبحَرنا لأربعِ ساعــاتٍ ثُمَ تَوقَّفنا للراحَةِ كانَ الهَواءُ دافئاً وأمــواجُ البحرِ نَشِطةً ولكنَّها ليسَت بتِلــكَ الحِدَّةِ مِنَ النَّشاطِ أكلنا التَّمرَ وشَرِبنــا الماءَ فلَم يَكُن لَدَينا مِن أكلٍ غَيرِها كنّا نُبحِرُ ثم نَتَوقَّفُ للأكلِ أو الصَّلاةِ في المساءِ وقَبلَ المغربِ بِساعَةٍ لاحَ لَنا البَرُّ فوصَلنا مَرفَــأً فِيهِ سُفُنٌ كثِيرَةٌ تَكادُ تَكُونُ مُتلاصِقةً أوقَفنا قارِبَنا وتَعَرَّفنا على بَحّارٍ اسمُهُ عِمران قالَ لهُ راشد :

– ما اسمُ هذه المنطَقَةِ..؟

– اسمُها بُستانة وهذا المرفأُ اسمُهُ بَندَرُ بُستانة.

– وهَل بَندَرُ لِنجة بَعيدٌ مِن هُنا..؟

– لا، مِن ثَلاث إلى أربَعِ ساعاتِ جَنُوباً بِمُحاذاةِ السَّاحِلِ سَتَمُرانِ على العَدِيدِ مِنَ المرافِئِ والبَنادِرِ إلّا أنَّ بَندَرَ لِنجَةَ أكبَرُها.

بِتنا فــي مَقهى بِميناءِ بَندَرِ بُستانة في حُجــرَةٍ استَأجَرناها مِن صاحِبِ المقهى لَم ينَــم راشِدُ في تِلكَ اللَّيلَةِ فقَــد كانَ يَبحَثُ عَن التَّبغ بِهَوسٍ ليدخِّنَ القدو فَذَهبَ إلى المقهى عِندَ مُنتَصَفِ اللَّيلِ فلم أترُكهُ وحيداً وذَهبتُ مَعَه، وَجدنا المقهى مُغلقاً فَطلبتُ مِنــهُ أن يَصبِرَ حتّى الصَّباحِ لكنَّهُ بَدأَ يَطــرقُ بابَ المقهى ويُعلي صوتَهُ حتّى خَرَجَ لَهُ صاحِبُ المقهى وكادَ أن يَتَعارَكَ مَعهُ إلّا أنَّهُ في النِّهايَةِ تَفَهَّمَ حاجَتَهُ للتَّبغِ فأحضَرَهُ لَه.

في الفَجــرِ تَوَجَّهنا إلى بَندَرِ لنجة كانَــت الرّياحُ شَمالِيَّةً شَرقِيَّــةً مُتوسِّطَةَ السُّرعَةِ ودَرَجَةُ الحَرارَةِ مُعتَدِلَةً تَرتَفعُ شَيئاً فشَيئاً بارتِفاعِ الشَّمسِ كانَ إبحارُنا سَهلاً فقَد وصَلنا في أقلَّ مِن أربَــعِ ساعاتٍ ودَخلنا مَدخَلَ الميناءِ الذي فيــه السُّفُنُ الخَشبيَّةُ وكانَت مُتَــراصَّةً لِكَثرَتِها فإذا برَجُلٍ على رصيفِ الميناءِ يُشيرُ لَنا فتَوجَّهنا نَحوهُ وأومَأَ بيدِهِ أن اربِطُوا قارِبَكُم هُنا كانَ المكانُ بينَ سَفِينَتَينِ خَشَبِيَّتَينِ بالكادِ يَتَّسَعُ لِلقارِبِ ثُمَّ حَدَّثنا بالفارِسيَّةِ فَما فَهِمنا فَحَدَّثَنا رَجُلٌ مِن السَّفِينَةِ الملاصِقَةِ لِقارِبِنا بالعَرَبِيَّةِ وقال :

– هَل أنتُما عرَبِيانِ..؟

– نَعَم.

– هذا مِن رِجالِ الميناءِ يَقُولُ لَكُما راجِعا إدارَةَ الميناءِ لِدَفعِ رُسُومِ مَوقِفِ القارِبِ.

قالَ راشد :

– هَل هِيَ كَثيرَةٌ..؟

– لا أعتَقِــد لأنها تَعتَمِدُ على طُولِ مَدَّةِ بَقائِكُما ولكن حَتّــى لَو ظَلَلتُما شَهراً فَلَن تَكُونَ كَثِيرَةً وانتَبِها سيُعطونكُما وصلاً مِن ثلاثِ نُسَخٍ الأصلُ لكُما للخُروجِ والدُّخولِ مِن بَوّابَةِ الميناءِ ونُسخَةٌ للجَمارِكِ ونُسخَةٌ للجَوازاتِ.

أجابَهُ راشد :

– ليسَ مَعَنا جَوازاتٌ.

– لا يَهُــم سَيُعطُــونَ كُلَّ واحِدٍ مِنكُما وَرَقَةَ مُــرُورٍ وإذا عُدتُمــا لبَلَديكُما لا بُدَّ أن تَستَخرِجا جوازاتٍ فَفي الأيامِ القادِمَةِ لَن تَستَطيعا السَّفَرَ بِدُونِ جَوازاتٍ.

دَخَلنا المدِينَةَ وذَهَبنا إلى سُوقِ التَّبــغِ وهُناكَ سَألنا عَن التّاجِرِ فاضِل فسألنا عِدَّةَ بائِعيــنَ إلى أن قالَ لَنا أحَدُهم أنا أعرفــهُ سأرافِقُكُما إليهِ فتَبعناهُ إلى متجَرِ فاضِل كانَ التّاجِرُ فاضِل رَجلاً طَيِّباً يَتَحَــدَّثُ العرَبيَّةَ الممزُوجَةَ بالفارِسيَّةِ عِندَما التَقانا رَحّبَ بِنا تَرحيباً حاراً وذَكَرنا لَهُ أنَّنا مِن طَرفِ التَّاجِرِ مِهراب، قالَ فاضل :

– مَرحَباً بِكُما كيفَ كانَت رحلَتُكما..؟

– الحَمدُ لله واجَهَتنا بعض المتاعِب البَسيطَة.

ثُمَّ أمَرَ أحَدَ غِلمانِهِ باحضار الشَّاي ثُمَّ قال :

– هَل لديكُما قائمَةً بما يريدُهُ مهراب ..؟

– نعم.

أخرجَ راشد مِن جَيبِهِ وَرقةً أعطاها إيّاه.

– أينَ سَكَنتُما..؟

– لَم نَسكُن بَعدُ.

– لَدَي مَسكَنٌ نَظِيفٌ مِن غُرفَتَينِ لَيسَ بَعِيداً مِن هُنا سيُعجِبُكُما.

نــادَى فاضلُ أحَد الفِتيــانِ ليَدُلَّنا على السَّكَنِ فَذَهبنا مَعَــهُ ووضَعنا أمتِعَتَنا هُناكَ وعُدنا إلى دُكَّانِ فاضِل لَم تَكُن المسافَةُ بَعِيدَةً ولكِنَّ الطَّريقَ فيهِ عِدَّةُ أزِقَّةٍ تُوصِلُ إلى الطَّريــقِ العامِ للسُّوقِ الذي يَتَمَيَّزُ بِطابَعِهِ الشَّعبِيِّ وبهِ حَرَكَةٌ دؤوبٌ مِنَ المارَةِ وعرَباتِ الحَمّالِينَ وعلى الجانِبَينِ متاجِرُ ودَكاكِينُ اشتَمَلَت على معظَمِ السِّلَعِ وبَعضَ البَضائِعِ كانَت دَكاكِينُ تُجّارِهــا مُتَقارِبَةً كالخضَّارِينَ وبائعي التَّبغِ وغيرِهِم كانَت أسواقُهم أكبَرَ

مِن أسواقِنا والازدِحامُ فيها أكثَرُ مِمــا عِندَنا وعِندَما اقتَرَبنا أنا وراشِد مِن دكانِ فاضِل كانَت المفاجأةُ فقَد رَفَعَ مِن خَلفَنا أحَدُ المارَّةِ صَوتَهُ :

- يا سَيد عَلي.

لَــم أتَوقَّع أن يَعرِفَني أحَدٌ في هذا البَلَدِ البَعِيدِ أحسَستُ أنَّني أعرِفُ هذا الصَّوتَ التَفَتُّ إليهِ فإذا هُوَ هُوَ ولكنَّ مَلامِحَهُ تَغَيَّرَت قَلِيلاً إنَّهُ حامِد :

- حامد..؟

- كيفَ حالُكَ يا سَيِّد عَلي..؟

- الحمــدُ لله.. كيفَ حالُكَ أنتَ يا أبا عُمَير وما هــذا البَياضُ الذي أكَلَ لِحيَتَك وشَعرَك..؟

قالَ مازِحاً :

- كنتُ أصبُغُ البَيتَ باللَّونِ الأبيَضِ فتَطايَرَ الصُّبغُ على شَعرِ رَأسِي ولِحيَتِي.

ضَحِكنا، فقُلتُ لراشد :

- هل عَرَفتَهُ يا راشِد..؟

- كأنّي رَأيتُهُ في سَفِينَتِكَ.

قالَ حامد :

- نَعم يا عَم راشِد تَقابَلنا في سَفِينَةِ العَم علي عِندَما أحضَرتَ اثنَينِ مِن بَحّارَتِكَ.

- آه، تَذَكَّرتُكَ، كَيفَ حالُك..؟

– الحَمــدُ لله، إنَّها مُصادَفَةٌ جَمِيلَةٌ أن أراكُما هُنا ما الذي جاءَ بِكُما إلى هُنا يا عَمّي عَلي..؟

– اتفقَ راشِد مَعَ تاجِرٍ يُدعى مِهراب عَلى أن يُحضرَ لهُ أوراقَ التَّبغِ والجِراك ولوازم التَّدخِينِ مِن هُنا من التّاجر فاضل فأحضَرتُهُ في قارِبي.

تَوجَّهَ مَعنا حامِدُ لِدُكانِ فاضِل وعِندما وصلنا قالَ حامد :

– السَّلامُ عَليكُم يا حاج فاضِل.

– عَليكُم السَّلامُ يا حاج حامِد.

– أوصِيكَ بِهذَينِ الرَّجُلَينِ خَيراً.

– على العَينِ والرَّأسِ ضُيُوفك ضيُوفنا يا أبا عمير.

– يــا حاج فاضِل تَفاهَما أنتَ والعَــم راشِد على البِضاعَةِ وأنا سأكُونُ مع العَمّ علي في دُكَّانِي.

أخَذَنــي حامِدُ إلى دُكانِهِ ولَم يَكُن بَعِيــداً وفي أثناءِ سَيرِنا كانَ يشرَحُ لي ما نَطُوفُ بِهِ مِــن متاجِرَ وأسواقٍ مَفتُوحَةٍ والتُّجارُ والباعَةُ يُسلمُــونَ عليهِ بالصوتِ مَن كانَ قَريباً وبالتَّلويــحِ مَن كانَ بَعيداًحتّى وصَلنــا كانَ مَتجَرُ حامِد مَعرَضاً لِبَيــعِ السَّجادِ فدَخلنا فقُلتُ لَهُ مُبدياً إعجابي بحانُوته :

– ما شاءَ اللهُ، الله يُبارِكُ لَكَ فيهِ.

– افتَتَحتُــهُ مُنذُ خَمسِ سَنَواتٍ وأصبَحَت لِي سُمعَةٌ فــي السُّوقِ.. ماذا تَشرَب يا عَمّي علي..؟

– شاي.

وأثناءَ ما كُنّا نَتَحَدَّثُ أنا وحامِدُ دَخلَ عَلينا فَتى يكادُ يَخُطُّ شاربُهُ وقَبَّلَ رَأسَ حامِد.

– ما شاءَ اللهُ، أهذا عُمَير..؟

– نَعَم هُوَ.

ثمَّ وَجَّهَ الكَلامَ لابنهِ :

– قَبِّل رّأسَ عمِّكَ عَلي يا عُمَير.

– بارَكَ اللهُ فِيهِ ورَزَقَكَ بِرَّهُ وحَنانَهُ.

– قُل لي يا عمّي علي كيفَ كانَت رحلَتُكُما؟

رَويتُ لِحامِدَ ما حَدَثَ لَنا أنا وراشِد في الرِّحلَةِ والمتاعِبَ التي واجَهناها فقال :

– أستَحلِفُكَ باللهِ يا سيد علي أن لا تَعُودَ في هذا القارِبِ سأَخذُكَ في بانُوشِي إلى دِيرَتِكَ.

– أوَ لا يَزالَ البانُوشُ عِندَكَ..؟

– طَبعاً يا عَمّي عَلي كما تَعلَم فنحنُ لا نَستَغني عن حياةِ البَحرِ فمُنذُ عِدَّةِ سَنواتٍ اشتَريتُ بانوشاً مُستَعملاً وقُمتُ بِصِيانَتِهِ ووَضَعتُ في جَوفِهِ مُحَرِّكَ دِيزل وعَيَّنتُ ثلاثَةً مِــنَ البَحَّارَةِ للعَملِ فيه يَصطادونَ السَّمَك ويأخذونَهُ إلى السُّوق وأيضاً أستَخدِمُهُ في نَقــلِ البَضائعِ أحياناً وفَتَحَ اللهُ بِهِ عَليَّ الرِّزقَ فافتتحتُ مَتجرَ السّجاد وأحياناً أذهَبُ فِيهِ شَخصيّــاً إذا كانَت لَدَيَّ صَفقَةٌ كَبيرَةٌ وعُمَيرُ يَتَولَّى أمرَ الدُّكانِ ولَن أدَعَكَ تَذهَبَ في قارِبِكَ الصَّغيرِ بَل سَنَسحَبُهُ بالبانُوشِ.

وافَقتُ.

– شورك وهداية الله هذا من كَرَمِكَ يا حامد.

– وأرجــو ألّا تَخذِلَني يا سيِّد على بــأن يكُونَ غَداؤكُما وعَشاؤكمــا فَترَةَ بَقائكُما عِندي.

لَقَد أعادَ حامِدُ تَكوينَ نَفسِهِ بعدَ أن كانَ طَوّاشاً ثُمَّ قَسَت عليهِ الحَياةُ فأصبَحَ سكونياً يعمــلُ لدى الغَيرِ ثُم هاهوَ يُعيدُ تَرتيــبَ أوراقِهِ مِن جَديدٍ ويَجِدُّ ويجتَهدُ في إعادَةِ بناءِ حيــاةٍ أفضلَ لَهُ ولأُسرَتِه بِخلافِ ما أنا عليهِ بَعدَ أن كُنتُ نُوخذا لَهُ صِيتُهُ في الطّواشة والغُــوص لَم أخرُج مِن كُلِّ ذلكَ إلا بِقارِبٍ صَغيرٍ لا يَكادُ يَقوى على مهمَّةٍ في البَحرِ صَغيــرة قَد يكونُ ذلكَ بِسببِ مَعيشَتِهِ في مَدينَةٍ كبيــرَةٍ فيها فُرَصٌ كثيرَةٌ في التِّجارَةِ وسوقِ العَمَــل بِخلافِ قَريَتي الصَّغيــرةِ التي ليسَ فيها مَتاجِرُ ولا أسواق ومَهما يكُن مِن أمرٍ فإنَّ سُبُــلَ الرَّفاهيَةِ في العَيشِ لا تتَأتى إلّا بالعملِ والجدِّ والاجتِهادِ والمثابَرَةِ وانتِهازِ الفُرَصِ وها أنا ذا أعمَلُ وأجتَهِدُ ولم يأتِ بي إلى هُنا سوى الكَدُّ والصِّراعُ مِن أجلِ حياةٍ أفضلَ تَرحَلُ بِيَ الأُمنياتُ إلى غَدٍ أفضَلَ ويُعِيدُني إيماني بِما كَتَبهُ الله لي مِــن رِزقٍ فَمهما اجتَهَدَ الإنسانُ وعَملَ فَلن يَنالَ إلا ما كَتَبهُ اللهُ سبحانَهُ وتَعالى لهُ إنْ خَيراً فخير وإنْ شَرّاً فَشَر.

تغَدَّينا أنا وراشِد عِندَ حامِد وعلى الغَداءِ قُلتُ لِراشِد :

– عندَ العَودَةِ سنَذهَبُ في بانُوشِ حامِد.

– جَميلٌ، وأنا قُلتُ لِفاضِلَ أن يُجَهِّزَ البِضاعَةَ فقالَ غداً ستَكُونُ جاهِزَةً.

– خُذ قَدرَ ما تَستَطيعُ مِن بِضاعَةٍ.

– طبعاً.

بَعدَ صَلاةِ العَصرِ أخَذَنا حامِدُ فِي جَولَةٍ حَولَ المدِينَةِ وقال :

– بَنــدر لِنجــة يا عَمّ علــي مَدِينَةٌ لَها تارِيــخٌ عَرِيقٌ وقَــد عُرِفَ عَن تُجّارِهــا بِأنَّهم أصحابُ مَراكِبَ وقَوافِــلَ تَجارِيةٍ بَينَ مَوانِئِ الخَلِيجِ والمحِيطِ الهِندِي يَحمِلونَ الملحَ والمكَــسَّراتِ والتُّمُورَ إلى بُومبــي وكَراتشِي ومُمباسا وزِنجبــار ويَجلبُونَ مِنها العُطورَ والبَهاراتِ والشّايَ والأعشابَ والأَرُزَّ والمنسوجاتِ والفَحمَ والأخشابَ.

في اليَومِ التّالِي اشتَرَينا بِضَاعَةً كَثِيرةً وبِحُكمِ مَعرِفَةِ حامِد بِرجالِ المِيناءِ والجَمارِكِ فقَد قامَ رِجالُهُ بِتَحمِيلِ البَضائِع في البانُوشِ بسُهولَة وبلا تَعقيداتِ التَّفتيش في اليَومِ الرّابِعِ أبحَرنــا وكانَ إبحاراً مُمتِعاً فَلَيسَ هُناكَ شِراعٌ يَحجِــبُ الرُّؤيَةَ ولا انتِظارٌ لهُبوبِ الرِّيــحِ أو تَحوُّلِ اتِّجاهِها، وجَرَى البانُوشُ يَشُقُّ الموجَ ويَمخُرُ عُبابَ البَحرِ ويَجُرُّ قارِبِي خَلفَهُ بالحَبلِ وكأنَّهُ يَجُرّ أسيراً، ومِيناءُ بَندَرِ لِنجة يَتضاءَلُ شَيئاً فشَيئاً.

في الطَّرِيقِ كانَ حامِدُ يَقرَأُ علَينا أشعارَهُ التي كانَت تَزخَرُ بِمَشاعِرِ الشَّوقِ والحَنِينِ الممزُوجَــةِ بالمغامَراتِ والبُطولاتِ والمليئةِ بالحكمَةِ وتَجــارِبِ الحَياةِ والحَثِّ على العَمَــلِ والكَد وكُنا نَستَعيدُ ماضِي الغوص ونَستَحــضِرُ أطيافَ الرِّجالِ الذينَ نَعرِفُهم ونَضحَكُ تارَةً ونَحزنُ تارَةً على مَن فقَدناهُم وَصَلنا وأنزَلَ البَحّارَةُ البِضاعَةَ التي حَمَلَها هارُونُ وياقُوتُ في السَّيارَةِ على دُفعاتٍ إلى السُّوقِ وظَلَّ مَعنا حامِدُ ثَلاثَةَ أيّامٍ حَصَلَ فيهــا على صَفَقاتٍ جَيِّدَةٍ مِن بَعضِ التُّجّــارِ كانَ يَنامُ في المجلِسِ الخارِجي في بيتي ويُسامِرُني في البَراحَةِ معَ أهلِ القَريَةِ مساءً ثُمَّ رَحَلَ تارِكاً ذِكرَياتٍ جَمِيلَةً.

ـ٢٠ـ

بَعـدَ تِلكَ الرِّحلَةِ رَفَعتُ قارِبي إلى البَرِّ لصِيانَتِهِ وفَكَّرتُ كَثيراً أن أشتَرِي لَهُ مُحرِّكاً كما فَعَـلَ حامِد لِيتَحَمَّلَ مُقارَعَةَ أمواجِ البَحرِ ولأحمِـلَ علَيهِ البَضائعَ ولكن أرجَأتُ ذلكَ إلى مـا بَعدَ عِلاجِ عَيني وزِيارَةِ أهلي الذينَ تَفرَّقوا فـي أرجاءِ الأرضِ وتَرَكُوني وَحِيداً حتّى أحفادِي وأحفادُ إخوَتي الذينَ تَزَوَّجُوا وأنجَبُوا كُنتُ أزُورُهم رغمَ قَطِيعَتِهم لـي إلّا ما نَدَر كُنتُ أعَلِّلُ ذلكَ بِصِغَرِهِم وعَدَمِ تَقدِيرِهِـم لَقَد تَغَيَّرَت الحَياةُ بَل تَغَيَّرَ أهلُها تَفَشَّت فيهـمُ الأنانِيَةُ والبُعدُ عَن التَّوَكُّلِ على اللهِ فـي أرزاقِهم وانتَشَرَت بَينَهُمُ القَطِيعَةُ وضاعَت صِلَةُ الأرحامِ كُنتُ أزُورُهم فكانَ بَعضُهُم يَفرَحُ بِمقدَمي ويَعتَذِرُ عَن قَطِيعَتِـهِ لي أمّا بَعضُهُم فَقد كُنتُ أحسُّ أنَّني عِبءٌ عليـهِ بزيارَتي لَهُ فيُبدِي لي عَدَمَ الاهتمـام ويَتَجَنَّبُ نَظراتي وأُحِسُّ أنّني أستَجدي الكَلامَ مِنهُ ولكِن كُلَّما طافَت علي ذِكرى أحدٍ مِنهُم ولاحَت لي طُيوفُه أُحِـسُّ أنّني لا أُكِنُّ لَهُ ضَغينَةً وألتَمِسُ لَهُ العُذرَ بانشِغالِـهِ وأدعُو لَهُ بالتّوفيقِ في صَلاتي وأتَمنَّى مِـن اللهِ أن يَهديَهُ وأن يَذكُرَه بي بعدَ وفاتي لِيَدعُوَ لي أتَذَكّرُهـم وأتذكرُهم جمِيعاً بِكُلِّ مَواقِفي معَهُم حُلوِها ومُرِّها فشَريطُ الذِّكريـاتِ يَعرِضُ الأحداثَ على الخَواطِرِ بسُرعَةٍ وتَمُرُّ بِـهِ أحداثُ الماضي مُتَتالِيَةً سَريعَـةً ولكنَّها تَتَباطأُ عِندَ أزمِنَةٍ رَسَمَت بَصماتِها في صفحاتِ العُمرِ وأحياناً تتَوَقَّفُ.. تَتَوَقَّـفُ ليسَ فَقط لتَعرِضَ فَترةً زَمَنِيَّةً لِحَدَثٍ ما بَل تَتَوقَّفُ عندَ دَقيقةٍ أو ثانِيَةٍ أحدثَت الانحِرافَ في تِلكَ الفَترةِ الزَّمَنِيَّةِ قَد تَكونُ ثانِيَةً تَحوي ساعاتٍ أو أياماً أو سِنِينَ طَويلَةً لِتَطوي صفحَةً قَبلهـا بِأفراحِها وأُنسِها وتَفتَحَ صَفحَةَ حُزنٍ وفَقدٍ وبُعدٍ وشوقٍ أو لِتَطوي

صفحَةَ نِهايَةٍ لأحزانٍ وآلامٍ جَثمَت على القُلُوبِ وفَجَّرَتِ الدُّمُوعَ، وزادَت ليالي السُّهدِ ظُلمَةً وعَتمَةً لِتَفتحَ صَفحَةَ فَجرٍ جَدِيدٍ زاخِرٍ بالأمَلِ والسَّعادَةِ.

والبَحــرُ ذلكَ العملاقُ العَظيمُ الذي أحَبَّني وأحبَبتُهُ والذي تَعَلَّقَ بهِ قَلبي وشعري وحُرُوفــي لَم يَعُــد يُناديني كما كان إذا جَلَستُ على شاطِئِهِ الــذي تَبدو منهُ صَفحَتُهُ واسِعةً فَسيحَةً تُعانِــقُ الأفقَ وزُرقَةَ السَّماءِ وأصبَحَ الذيــنَ يرتادونَهُ قَليلينَ وأصبَحَت نَواحيهِ وشُطآنُهُ مُكتَظَــةً بالمباني وبالبَشر لقَد تخلّى البَحرُ عنّي ولكنَّني لَم أتَخَلَّ عَنهُ تَخلى عَني لصِغَري ولكِبَرِهِ واتّساعِه فَمَن أنا بالنِّسبَةِ للملايينِ الذينَ يرتادُونَهُ ويَعرفُهُم ويعرفونَه أبحَرَ فيهِ الملوكُ والجَبابِرَةُ والقَراصِنَةُ والتُّجارُ وغاصَ في أعماقِهِ الباحِثونَ عن كُنوزِ اللُؤلُؤِ والمرجانِ والحيتــانِ والعُلَماءُ الدّارِسونَ لأعماقِهِ وأحيائهِ أمّا أنا فلَم أتَخَلَّ عَنــهُ لأنَّ فيهِ ذِكرياتي وذِكرياتِ مَن أُحب ذِكرياتِ آبائي وأجدادِي وأصحابي كَم مِن مَوجَةٍ حَمَلت قَطرةَ دَمٍ مِنهُم وكم مِن موجَةٍ حمَلت حُروفَ قَصِيدَةٍ أو نَغمَةَ نَهامٍ وألقَت بهــا على الشَّواطىءِ البَعَيدَةِ أحرصُ كَثيراً على الجُلُوسِ على رِمالِ شاطِئهِ العَسجَدِيَّةِ كُلَّ مِــساءٍ وأسرَحُ في أُفِقِهِ اللامُتناهي وأستَعيدُ طُيوفاً رَحَلــت وبَينَ ضُلُوعِها أشواقٌ لَــم تَبُح بِها وفي قُلُوبِها شَذَراتُ حُبٍّ كامِنَةٌ لَم يتَــسنَّ لَها أن تُفصِحَ عَنها وبينَ طيّاتِ أفكارِهــا كلماتٌ لَم يَفسَح لَها العُمرُ أن تَصِلَ إلى شِفاهِها كم مِن هذهِ الطُّيوفِ أرَدتُ أن أقــولَ لَها كلاماً لا يزالُ مَكبُوتاً في أعماقــي أنطَوي على الشّاطىءِ وأتَذكّرُ وأتمنى وأركُــضُ بِخيالاتي وبِبَصَري ولكن وفي هذا العُمقِ اللانِهائي يَرتَدُّ إليَّ البَصَرُ حَسيراً فأُلَملِمُ أشتاتي وأعودُ إلى داري وإذا عُدتُ وأحسستُ بالوحدَةِ بَعدَ ذلكَ الزَّخمِ أدنَيتُ أوراقــي وقَلَمي وكتَبتُ الشِّعرَ والخَواطِرِ بَعدَ أن كُنتُ نُوخــذا تَزخرُ سَفينَتي بالبَحّارَةِ

واللُّؤلُؤِ وبَيتِي بالأهلِ والأطفالِ والخَدَمِ أصبَحتُ وَحِيداً أعدُو خَلفَ أمنِيَتِي بأن أصلحَ قاربـاً مُتهالِكاً كي أجُوبَ بِهِ المرافِئَ البَعِيدَةَ للحُصولِ على لُقمَةِ العَيشِ فالحَمدُ للهِ، الحَمـدُ للهِ على كُلِّ حالٍ ومآلٍ فَرِزقُ اللهِ لَيسَ فـي المالِ فَقط بَل قَد يكونُ بَرَكَةُ اللهِ فـي الذُّريةِ والعِيالِ وقَد يكُونُ في الصِّحَّةِ وراحَةِ البالِ والسّترِ والحِكمَةِ فالحِكمَةُ هيَ الخَيرُ الوَفِيرُ فاللهُ سُبحانَهُ وتَعالى يقُـولُ في مُحكَمِ تَنزِيلِهِ: ((يُؤتي الحِكمَةَ مَن يَشاءُ ومَن يُـؤتَ الحِكمَةَ فَقَد أوتِيَ خَيراً كثيراً وما يذَّكَّـرُ إلّا أولو الأَلبابِ)) البقرة ٢٦٩، والحِكمَةُ لَيسَت العُلُومُ والمعارِفُ التي يُخَزِّنُها الإنسانُ في عَقلِهِ فَقط بَل هِيَ الإيمانُ بـاللهِ والتَّحَلي بالأخـلاقِ الفاضِلَةِ وحُسنُ التَّعامُلِ مَعَ الآخَريـنَ والصَّبرُ على البَلاءِ والعَملُ ونَبذُ الكَـسَلِ الحِكمَةُ هيَ حُسنُ التَّصرُّفِ في المواقِفِ التي تَحتاجُ لاتّخاذِ قَـرارٍ حاسِمٍ سَرِيعٍ ولكـن بِرويَّةٍ وتَعَقُّل الحِكمَةُ هي استِحـضارُ الموعِظَةِ مما اكتَسبَهُ الإنسانُ مِن خِبرَةٍ وتَجارب مِن خلالِ قِراءاتِهِ وممارساتِهِ في الحياةِ كانَت الحَياةُ رَتيبَةً فـي القَريَةِ وأوقـاتُ الفَراغِ طَويلَةً إلّا أنَها قَصيرَةٌ بالنِّسبَةِ لي فأنـا أقضِيها في العَمَلِ بالصَّيـدِ وبإصلاحِ مـا أستَطيعُ إصلاحهُ في المنزِلِ وأقضي بعـضَ الوقتِ مَعَ قراآتي وأشعارِي.

أمّا أصدِقائي ومَعارِفي فبَعضُهُم رحَلَ وبَعضُهم ينتَظِر كانَ آخِرهم أخي صالح الذي تُوفّي قَبلَ يَومَين يَرحمهُ اللهُ، وكُلُّهم تَرَكُوا لَمَساتٍ تَمُرُّ بِها طُيُوفُهم في الفِكرِ كُلَّ حِين، تَمُرُّ طُيُوفُهم مَعَ ما مَـرَّ بِهِم مِن قِصصٍ وحكاياتٍ تَعجَزُ الأوراقُ والكُتُبُ عَن احتِوائها فكلُّ إنسانٍ في هذه الحياةِ لَهُ سِيرَةٌ لَو كُتِبَت لاحتاجَت لِصفحاتٍ وكُتُب.

أمّـا قارِبي فَقَد ظَلَّ على الشّاطـئِ تَسنِدُهُ الأخشابُ في وَضعِـهِ الطَّبيعيِّ إلى أن

هبَّت رِيحٌ عاتِيةٌ كَفَأتــهُ وقَلَبَتهُ على جانِبِهِ وملأت جَوفَهُ برِمالِ الشَّاطِئِ، ولكِنَّني كُنتُ مُصَمِّماً على إصلاحِهِ فلَم يَبقَ لي سِواهُ سأصلِحُهُ وأرتادُ بِهِ البَحرَ، وأصطادُ السَّمَكَ معَ أصدِقائي وأحملُ فيهِ البضائعَ، وأملؤُهُ بالشِّعرِ والحَنينِ والذِّكرياتِ الجَميلَةِ.

قاربي سَيعُود، سيَعُودُ بِما يَحمِلُــهُ مِن أمنياتٍ لَذِيذَةٍ وآمالٍ مُشرِقَةٍ.. سَيعُودُ حامِلاً صُحبَةً تُوشِّيها الابتساماتُ والضحكاتُ.. سيعُودُ حامِلاً الجُهدَ والعَرَقَ والعَمَلَ الذي يَستَــشرِفُ الأمَلَ بِغَدٍ سَعِيدٍ .. سَيعُودُ تُبَلِّلُ شِراعَهُ أنداءُ المواويلِ وأصداءُ الأغنياتِ المتراكِمَــةِ بالحَنينِ وأناشيد النَّهامِينَ .. سَيعُودُ إلــى تِلكَ اللُّجَجِ الدّاكِنَةِ ويعُودُ مِنها بِخرائِدِ اللآلِيءِ والدُّررِ والخَيرِ الوَفير.

مَرَّت نَــورَسَةٌ ونَعَقَت بِصوتٍ عالٍ لِتُوقِظَ علي مِن سِنَتِــهِ لكنَّهُ لَم يُفِقْ، وصَدَحَتْ مُكَبِّراتُ الصَّوتِ في المآذِنِ مُعلِنَــةً دُخُولَ صَلاةِ المغرِبِ ولكِنَّ علي لَم يَفتَحْ عينَيهِ ولَم ينظُرْ إلى ساعَتهِ التي تَوقَّفَت وتَوقَّفَ مَعها شَريطُ ذِكرياتِهِ، وتَوقَّفَ قَلبُه.





